

الشيخ أحمد البان

وادي الحطب

سيرة

رواية

وادي الحطب

الشيخ أحمد البان

وادي الحطب

مرواية



ميارا للنشر والتوزيع

MAYARA PUBLISHING & DISTRIBUTION

المؤلف : الشيخ أحمد البان
عنوان الكتاب : وادي الحطب
تصميم الغلاف : ميادة غرافيك
الإخراج الفني والتصنيف الداخلي : ميادة غرافيك
الناشر: دار ميادة للنشر والتوزيع
محضنة المؤسسات برقادة، المكتب عدد1، القيروان
الهاتف: 21880445 / 99095008(+216)
البريد الإلكتروني: mayara.editions@gmail.com
الطبعة الأولى: تونس 2019
السحب: 1000 نسخة
ر.د.م.ك: 9-039-31-9938-978
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

الضمن داخل تونس: 20 د.ت
الضمن خارج تونس: 20 أورو أو ما يعادلها

إهداء

إلى القائد الفقيه الشيباني بن الشيخ أحمد الذي صفع الكابتن الفرنسي
مُونِيَّه عند بئر «أَنْخَيْل» وأمر بجلده وجلد أعوانه، وإلى الأخوين
المقاومَيْن سيدي بن بَنَاهِي وأخيه سيدي بن عبد الدَّائِم اللذين اختارا
العيش في رؤوس الجبال على الخضوع للنصارى.

ش.أ.ب

تنويه

هذه رواية أدبية موضوعها التاريخ، ولكنها ليست تاريخاً بالمفهوم المعروف لهذه الكلمة، لذلك فإن الأشخاص والأماكن والأحداث التي فيها محكومةٌ بهذا التداخل بين الحقيقة والخيال.

ش.أ.ب

الفصل الأول

كانت الشمس مائلةً للغروب، قد اختفى نصفُ قُرْصِهَا المُشْرِبِ،
حُمْرَةً خلف جبال «تِنَكَارَه» التي تَلْفُ ذلك الوادي من ثلاث جهات،
وكأنها تحتضنه حتى لا تَتَخَطَّفه عواصفُ الرمال المتحركة باتجاه
تَامُشِكْطُ، إذ يقتضي قانون الجغرافيا والمناخ أن ينساح شمالاً. لكن
قوانين التقسيمات العُرفية للأرض والكلأ تفرض عليه المكث في تلك
البقعة، التي يَلْزَمُ أهلها عبور الجبال جنوباً كلَّ صيف، تستقبلهم رياح
الغرب ونسمات الجنوب الباردة التي تحرمهم منها الهضاب المتصلة من
لعصابة وحتى الحدود القصوى للحوض الغربي.

«وادي الحطب» مكانٌ مُنَاسِبٌ للإقامة في فصل الشتاء، وذلك
لطبيعته الخلابة الساحرة، ولدفته النسبي في ليالي الصقيع القارسة،
فالجبال التي تَلْفُهُ تشفعها غابة كثيفة، تتعانق فيها ظلال السدر والدوم
والكلاكل والكريب والقتاد وغيرها، وتتكاثر أغصانها شتاءً فتكسر
عرامة الرياح الباردة الآتية من الشمال. كما تحجب الشمس سائر الأيام
إلا وَقْتِي الغروب والشروق، إذ تتسلل أشعتها منفلتةً بصعوبة بين
شعاب الجبال وجذوع الأشجار المتعاضدة في حميمة، لا تساويها إلا

الوشائج الوجدانية القائمة بين أبناء أولئك القوم وبين هذا المكان، الذي يعتبرونه منطقةً حُدُودِيَّةً لأرض القبيلة، تقتضي الأعراف الاحتياطية ألا يَمُرَّ عام حتى تنزلَ به، وتُوقَدَ نيرانها، وتسرح في امتداده الأبقار والأغنام والإبل وحتى الحمير، التي تحمل ميسم القوم.

وقطعا لكل أطماع أخرى فقد قرر رجال القبيلة - بعد صلح «التَيْشَطَايَه»، الذي رعاه الحاكم الفرنسي بتَامَشِكُطْ - أن يَتَقَرَّى به موالي القبيلة، لذلك نشأت هناك شبه قرية صغيرة، على بعد ثلاث كيلومترات من مزارعهم الممتدة على تلك المساحات الخصبية الشاسعة.

الفصل شتاء، والبرد في عنفوانه، إنه شتاء قارس، لم تعرفه المنطقة منذ فترة. يقول العارفون بمناخ تلك الربوع، إن موجة قاسية من البرد تجتاحها كل عشر سنين، وإنها كانت مرتقبة هذه السنة، لذلك لم يفاجئهم الطقس الزمهريري الذي أثنى تَعَبًا وَمَرَضًا في الأطفال وكبار السن. الرياح الباردة تعبر من بين جذوع الأشجار مُحَمَّلَةً بروائح فضلات المواشي، ومُحَدَّثَةً صفيرا لا ينقطع إلا يوما أو يومين، ثم تعود تلك الزوابع الباردة لهيجانها.

تلثف الغابة على أكثر من مائة خيمة تتواشج العلائق النسبية بينهم بطريقة رهيبية، كل من بهذا المكان تربطهم قرابات أبعداها الدرجة الثالثة، خلف تلك الوشائج تنتصب فلسفة طهورية، تعمل بطريقة مدروسة للحفاظ على نقاء النوع، لذلك لا تجد بينهم إلا صِلِيًّا قُفًّا ينتمي بأبويه إلى أرومة هذا الحي. وقليلون منهم تنتمي أمهاتهم لقبيل آخر، أما الذين أبأؤهم من قبائل أخرى فليسوا سوى ثلاثة، يعرف كل من في الحي القصص القادحة لزواج أمهاتهم، ويُنظَرُ إليهم كأبناء من الدرجة الثانية.

لا تسمح القبائل لغير أبنائها بإدارة شأنها العام، الحكمة الأثيرة تقول: «إِنَّ ابْنَ الْبِنْتِ يَنْصُرُ وَلَكِنَّهُ لَا يَقُودُ»، ولذلك فإنه ما إن يبلغ أحدهم الحلم حتى يدرك أن علاقته بأخواله علاقة عطف وحنان تناسب طفولته، ولكنها ليست علاقة مجد وسؤدد تناسب رجولته ومطامحه، فيرحل باتجاه بني عمومته إذا كان طالب مجد.

كان «خَطْرِي» يدفع فرسه المرهقة باتجاه الحي، منحدرًا من الطريق الجبلي الضيق المعروف بِشَعْبِ «صَيْرَاطَه»، لم تبد الخيام الكثيرة المضروبة وسط تلك الغابة بعد، رغم أنه صار منها على مسافة أقل من ست كيلومترات، لكن كثافة الأشجار تحجب ما بداخلها، فلا يرى القادم أي ملمح للسكنة حتى يتوغل.

بدأت الغابة في تواسجها شبيهةً بالغابات التي رآها قبل عامين لأول مرة، حينما خرج في قافلة «رِجَالِ الْغَيْثِ» التي تخرج سنويا صوب باماكو أو «بِنَكُو» - كما يسميها هؤلاء البدو - لجلب ميرة العام من الطعام والعبيد وجديد مطابع بيروت.

سرح خياله في يوميات تلك الرحلة المليئة بالأحداث المثيرة والمغامرات الخطرة، وحتى الأسرار التي ستدفن معه دون أن يفرج عن أي واحد منها. رفع بصره فرأى عقابا يطارد قُمْرِيَةً رمادية اللون، بعد لحظات صارت بين مخالبه، ومنقاره الحاد منغرز في عنقها المَطْوَّق بخط أسود بارز، يمنحها جمالا باهرا، آيَّة وحشية قبيحة يعامل بها هذا الجارح حمامة بريئة، كيف لم يعبأ بطوقها الساحر! أليس في الجمال شنيع يمنع من إيذائه! أم هو الشَّرُّ مثلُ الحب يعمي ويصم! لقد أحزنه كثيرا شأن الحمامة المقتولة، فأوغل في حديث نفسي عميق: «لا شك في أن لهذه القُمْرِيَةِ فِرَاحًا خرجت كي تجلب لهم طعاما.» تَحْيَلُهُمْ فَاغْرِين

أفواههم في المساء كما تعودوا، وبعد ليلة طويلة من الانتظار سيقتلهم البرد والجوع في ذلك العش البعيد. لن يسمع ذلك العقاب العدواني صفيرهم الخافت الضعيف، ولن يشهد لحظة انطفاء أرواحهم الطرية، ربما لو سمع حركة أرجلهم الضعيفة، ورأى حُلُوقَهُم اليابسة، وزغب حواصلهم الفارغة في ذلك العش المهجور، ربما لو رأى شيئاً من ذلك لانزجر عن تكرار الجريمة، ولكنه سيبيت في وكره الجلي الدافئ مستعجلاً الصباح ليغدو على قتل حمامات أخريات وفراخٍ ضعافٍ آخرين.

أي قانون هذا الذي يترك الضعيف لبطش القوي؟ أليس هذا التفاوت موجوداً بشكل أكبر وأعنف بين بني الإنسان؟
- هي حكمةُ الله.

قالها بصوت مرتفع، وكأنه يريد إيقاف دَفْقِ تيار الفلسفة الذي اجتاحه في لحظات.

- لماذا يطالبني امهّادي بقطع رحلتي والعودة إلى الحي في أسرع وقت! لا ريب في أن أمراً مُهَمًّا دفعه لذلك.
الأنأة الواثقة التي يتحلّى بها امهّادي، وطبيعة علاقته به باعتباره زوج أخته تَرَبّه فال، جعلته يرتبك كلما فَكَّرَ في ما يمكنه أن يكون سبباً لإرجاعه قبل أن ينهي مهمته.
واصل مناجاته لنفسه:

- ربما ابنتي العالِيه أو أحد أبنائي أصيب بأمر عضال، وربما زوجتي تَرَبّه فال - لا قدر الله-، لكن كل ذلك حصل في مرات سابقة ولم يستدع استعجالي، إن لدى امهّادي من الخبرة في التعامل

مع طوارئ الأحداث وحسن تدبيرها ما يعصمه من العجلة. وإذا كان الأمر شأنًا عاما ونازلةً قَبَلِيَّةً فَإِنَّ اجْتِمَاعَ شَمَلِ رِجَالِ الْحِي فِي الشِّتَاءِ كَفِيلٌ بِتَدْبِيرِهِ، دُونَ أَنْ تَعْلَنَ حَالَةُ طَوَارِيءِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ. وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَإِنَّ امْتِهَادِي عَلَى قَرَابَتِهِ مِنِّي، وَرَغْمَ أَنِّي زَوْجُ أُخْتِهِ، فَإِنَّ بَيْنَنَا مِنَ الْاِخْتِلَافِ مَا يَجْعَلُهُ غَيْرَ حَرِيصٍ عَلَى رَأْيِي فِي أَمْرِ عَامٍ، خُصُوصًا إِذَا تَعَلَّقَ بِالنَّصَارَى. إِنَّ دَعْمِي لِلْمُنْشِقِينَ عَلَى طَاعَةِ شَيْخِ الْعَامَةِ الَّذِينَ نَصَبَهُمُ النَّصَارَى فِي «أَفَلَه» و«لِعَصَابَه» و«الْحَوْضَيْنِ»، وَرَفْضِي إِعْطَاءِ الْإِتَاوَاتِ، وَتَوَزِيْعِي لِمَخْطُوطَاتِ فِتَاوَى مُحَرَّمِ الْخُضُوعِ لِسُلْطَةِ الْكَافِرِ، وَنَشَاطِي الْإِلَافَتِ بَيْنَ رِجَالِ الْحِي مِنْ أَجْلِ إِقْنَاعِهِمْ، كُلِّ ذَلِكَ عَمَقَ الشَّرْحِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، هُوَ الَّذِي يَسْتَمِدُّ قُوَّتَهُ مِنْ هَيْبَةِ النَّصَارَى فِي قُلُوبِ الْعَامَةِ وَخَوْفِهِمْ مِنْ بَطْشِهِمْ وَسَجْنِهِمْ الْمَشْهُورِ فِي تَامَشِكُطْ.

بَيْنَ خَطْرِي وَصَهْرِهِ امْتِهَادِي عِلَاقَةٌ ظَاهِرًا لِاحْتِرَامِ وَبَاطِنًا لِالْحَقْدِ الدَّفِينِ، يَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَوْ مَاتَ صَاحِبُهُ فِي فَلَائَةٍ تَمْرُقُهُ أَنْيَابُ السَّبَاعِ، ثُمَّ ارْتَشَفَ بِنَشْوَةِ كَأْسٍ مِنْ شَايِ الْمَفْتُولِ عَلَى إِيقَاعِ صَرَاحِهِ فِي سِوَاءِ الْجَحِيمِ. لَيْسَ لَطَبَاعَهُمَا أَنْ تَتَصَادَقَ، إِنَّهُمَا مِثْلُ إِبْرَتَيْنِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَتَعَاقَبَا أَبَدًا، كِلَاهُمَا طَمُوحٌ وَجَرِيءٌ وَابْنُ عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ، وَرَغْمَ أَنَّهُمَا مِتَبَاعِدَانِ فِي السَّنِّ، إِذْ امْتِهَادِي تَرَبُّبٌ سَلْمَاتِي أَخِي خَطْرِي الَّذِي يَكْبُرُهُ بَعِشْرِينَ سَنَةً، فَإِنَّهُمَا كَانَا رَمَزِي صِرَاعِ الْعَائِلَتَيْنِ عَلَى سِيَادَةِ الْقَبِيلَةِ، لَكِنَّهُ صِرَاعٌ رَغْمَ ذِيوعِهِ بَيْنَ النَّاسِ فَلَا أَحَدٌ يُمْكِنُهُ أَنْ يَجِدَ دَلِيلًا مَا دِيَا يَعْبُذُهُ.

بَعْدَ تَنْصِيبِ «امْتِهَادِي» شَيْخًا لِلْعَامَةِ مِنْ قَبْلِ النَّصَارَى خَطَبَ خَطْرِي تَرَبُّبَهُ فَالَّ أُخْتِ امْتِهَادِي، كَانَ يَرْمِي مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَشُقَّ صَفَّ الْقَبِيلَةِ عِنْدَمَا يَرْفُضُ «امْتِهَادِي» مِصَاهِرَتَهُ، وَبَعْدَهَا يَعْزَمُ نَفْسَهُ

زعيماً للمنشقين، ورغم أنه كان أشرس المعارضين لتنصيب «أمهادي»، وبذل في ذلك كثيراً من جاهه وماله، فإن «أمهادي»، لرجاحة عقله، وافق على الخطبة، وجمع رجال الحي وقال كلمته المشهورة:

- «خَطْرِي» خطب أختي تَرَبَّهَ فَاَل، ولو لم يفعل لَخَطَبْتُهُ لها.

تفرق الجمع وهم يلهجون بالثناء على عقل وحلم أمهادي، أما خَطْرِي فقد كانت تلك الكلمة بمثابة الرصاصة التي اخترقت فؤاده، فهو رغم حُبِّهِ لَتَرَبَّهَ فَاَل فإن طبعه العنيد وصراعه الأبدي مع «أمهادي» جعله يتمنى لو رَدَّ خطبته.

فجأة قفزت الفرس يمينا متجاوزةً صخرةً ارتفاعها أكثر من متر ونصف، كاد يسقط، لكنه نجح في البقاء على صهوتها، شعر بشيء من الزهو بفروسيته، أنساه خاطر الفزع الذي رَفَّ بقلبه، عندما قفزت الفرس تحته.

- لو كان غيري يمتطيك لسقط.

قالها بصوت مرتفع، وأردف قائلاً بنبرة أكثر زهواً مفتخراً بِأُمَّهِ المنحدرة من إمارة أو لاد مَبَارِكُ:

- لم تضع دماؤك السَّارِيَةَ فينا أيتها «لِمَبَارِكِيَّة» الأصيلة.

غمز الفرس برجليه المنغرزين في الرِّكَابِ، واستدار بالصخرة قاصدا النقطة التي قفزت منها أول مرة، كي يعرف ما الذي دفع فرسه إلى هذه القفزة المفاجئة، كانت لا تزال مدعورة مُتَوَفِّزَةً للهرب، بدت كأنها أسد مستثار، رافعةً ذيلها ذا الشعر البني، وعُرْفُهَا مُتَنَفِّسٌ حتى ليكاد المرء يُعُدُّهُ واحدةً واحدةً رغم كثافته. كانت تحطو حذرةً، وتركل بيمنها الأرض، وكأنها تحتج على ما يقوم به، طَوَّفَ ببصره في الدائرة

الضيقة المحيطة بالمكان، لم ير شيئاً يستدعي ما حصل، لكنه يؤمن إيمان العجائز أن هناك شيئاً ما جعل «مَزُوزَتْ أَفَلَّه» تدعُر بهذه الطريقة.

غمزها مرة أخرى باتجاه الحي، كانت الشمس قد اختفت تماماً خلف تلك الجبال، وبدأ الظلام يتسلل إلى المكان. وصار بإمكانه الآن أن يرى بَصِيصَ نيران ساكنة الوادي، بدت النيران تلتمع مُرَاوِحَةً بين الحمرة والصفرة والبياض، وكأنها عيون الذئب والأسود حين تقابل الضوء في ليلة مظلمة. أصابه التشبيه بنوع من الانقباض. تَحَسَّسَ مخللة الجلود الصغيرة التي يربطها خلفه ليتأكد من وجود بعض التُّخَفِ التي جاء بها؛ مساويك السرح والبشام لزوجته، وحنفات من ثمار الشفَلَحِ الحلوة لأطفاله، كما كانت بها مواعين الشاي وبقايا من السكر وشاي المفتول، وشيءٌ من القَدِيدِ، هي بقايا ما زوّدته به زوجته تَرَبَهُ فَال قبل أسبوعين، عندما أزمع السفر بحثاً عن ثيران وبقرات انفصلت عن قطيعه، والتحقت بقطعان آخرين مرّوا قبل شهر مُيَمِّينَ أدغال الجنوب.

كانت أصوات البقر والغنم والإبل تمتزج مع أصداء حناجر أطفال يصدحون بالقرآن الكريم، كل ذلك تخالطه زقزقات الطيور التي يرى أسراباً منها تغيب في أشجار الوادي، بينما لا تزال أسراب أخرى مُحَلَّقَةً تسابق الليل كي تصل إلى أعشاشها في كهوف الجبال التي صارت خلفه الآن.

لقد أصبح يجوس بين مواشي الحي، بين الفينة والفينة يلقي نظرة خاطفة على قطيع كامل فيفرز في سرعة البرق ودِقَّة الحاسوب ما فيه من غرائب، ويعرف من خلال تلك اللمحة الخاطفة أعمارها وألوانها وميَاسَمَها، وبالطبع يعرف هي مملوكة لأي قبيلة، بل لأي أسرة.

سجلت ذاكرته كل تلك الملاحظات، إنها معلومات يلتقطها دون أن يبذل أي جهد إضافي، لقد أصبحت سجية له، شأن رجال البادية الذين منحتهم الدربة والتجربة قدرة هائلة على ضبط تلك التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالمكان والإنسان والحيوان، واستحضارها في الوقت المناسب ولو بعد عام كامل، وكأنها عرفت للتو.

- السلام عليكم، كيف رواحكم، أين هو خَطْرِي؟

عرفت تَرْبَهُ فَالَ صاحبَ الصوت، فضاعفت طرف ملحفتها السوداء على رأسها وأرخت منها لثاما، ثم حرفت وجهها تجاه الرجل ناظرةً نحو الأرض في حياء، وقالت بصوت رزين واضح النبرة:

- يا مرحبا، وعليكم السلام ورحمة الله، كيف أنتم وكيف حال سَلَمَ زَجَاهُما مع مضاعفات لدغة العقرب، للأسف لم أتمكن من زيارتها مرة أخرى، فأحد الأبناء أصيب ظنوبه قبل يومين، لقد ضربها بالفأس عندما كان يحاول قطع أغصان يوقدها مصابيح بالليل لقراءة لَوَجِهِ.

كانت تسترسل في هذا اللون من الأخبار والتفاصيل حتى لا تجيب عن سؤال الرجل عن زوجها، رغم أن طريقة سؤاله التي توحى بأنه رآه أو سمع بمجيئه كانت مثيرة ومستفزة، فالرجل يعلم خبر سفر زوجها، ويعلم أن الوقت لم يحن بعد لعودته بله استبطائه.

رغم كل ذلك آثرت ألا تحرق سياج التقاليد السائدة، التي عَلَّمَتْهَا ألا تجيب عن أي شيء يتعلق بزوجها إلا في حالات الضرورة القصوى، وغير ذلك وقاحة لا تليق بمثيلاها من بنات الكرام. لم يمهلها الرجل كثيرا، فأعاد السؤال مرة أخرى، وهو يخطو موليا إياها ظهره. قالت باقتضاب:

- لم يكن وقت مجيئه بعد، إنه ذهب باتجاه...

قاطعها الرجل مؤكدا:

- بعد عصر اليوم بساعة نزل من «فم صيراطه» هذا الذي لا يبعد عنك إلا قدر ما بين أذان المغرب وإقامتها، ثم تتم «أذائها معها». أين ذهب؟ ما الذي حصل له؟ نسأل الله له الحفظ والسلامة، سيكون خيرا إن شاء الله.

أثناء حديثه عن زوجها دارت بذهنها مئات الأسئلة، لكن ذلك لم يجعلها تسأله بتلهف، فالموت في رأيها خير من أن تظهر أي حرص على أخبار زوجها أمام هذا الشيخ الوقور، لذلك اقتربت من المدخل الأمامي للخيمة وأشارت لبنتها العالیه دون أن يلحظها الرجل، فهتمت البنت ما ترمي إليه إشارة الأم، فخرجت من الخيمة وسألته:

- هل لقيت أبي خَطْرِي هذا المساء؟

- نعم.

ثم استدرك، وهو يخطو مقتربا من الخيمة مجددا:

- سبحان الله، لم ألتق به جسما وصوتا، ولكني رأيت أثر فرسه، وقد تَوَقَّعتُ ورجعت ثم استدارت متجهة صوب الحي، هذا يا ابنتي هو ما وقع فعلا، ولكن لا فرق بين أن أراه، أو أرى فرسه، وبين أن أرى أثره.

ثم ابتسم، وتابع:

- يا ابنتي، هذا يقين لا يتطرق إليه الشك، لقد نزل أبوك من شَعْبِ «صيراطه» ممتطيا فرسه بعد العصر بساعة، ثم قفزت به ولكنه لم يسقط، واستدار إلى مكان قفزها، ثم واصل سيره باتجاهكم، ولعله وجد أخبارا عن إحدى ضوآله فانحرف إلى بعض الأحياء

القريبة المجاورة ليتأكد من ذلك.

بعد انصراف الإمام أحمَدُونَا بدأت البنت تُعيدُ لأُمها ما قاله، ومع أن تَرَبه فَال كانت تنصت لحديثها، فقد أظهرت لبنتها الاهتمام بما سَتَقُصُّه.

قالت البنت براءة:

- يا أُمي، كيف يقول إنه لم يلتق به ثم يعطي كل هذه التفاصيل عنه ويرويها كأنها حقائق لا يتطرق إليها الزيف؟
- هذا ليس غريباً، فأحمَدُونَا معروفٌ بالخبرة في الأثر والقيافة، وهذه ملكة حازها من أخواله المشهورين بها.
- ولماذا لم يأت أبي إذا كان ما قاله أحمَدُونَا عنه صحيحاً!
- أسألي الله العافية، أرجو الله بِجَاهِ الأنبياءِ والصالحين ألا يُيَتِّمَكُم.

لم تفهم العالِيَه شيئاً ممَّا ترمي إليه أُمها، لكنها عرفت أن مزاجها تغير للأسوء، كانت ستسألها مستوضحة عن بواعث هذا الدعاء الذي لهجت به، لكن صوت المؤذن قطع حديثها. جلست مكان أُمها وبدأت في غسل الأواني وإصلاح الشُّكُوةِ وتسخين المحلاب وإحضار الحبال التي تُربطُ بها العجول إلى قوائم أمهاتها وقت الحلب، قبل أن ينتزعها الظلام الذي تُضاعف طبيعة الغابة من اسوداده، بينما انشغلت تَرَبه فَال بالاستعداد لصلاة المغرب.

طافت بها في تلك الجلسة خواطر نسيت معها الحديث الذي دار حول أبيها قبل قليل وقلق أُمها بعده، تخيلت نفسها رَبَّةَ منزل جالسةً عند المدخل الأمامي لخيمة بيضاء رحبة الفناء والأثاث والمتاع، وحولها

العبيد والإماء وقطعان الإبل والبقر والغنم تحجب مدى رؤيتها، وفارس أحلامها ذي النسب العريق والغنى التليد والطارف يجلس في وسط الخيمة، يرنو إليها بعيني عاشق مستهام. وتخيلت نفسها قبل ذلك عروسا تلبس ملحفة من «أُمَيْرَاتٍ»، وقد خضبت يديها ورجليها بحِنَّاءٍ تَفَنَّت الصانعات في طرزها، تساءلت في نفسها، ترى من سيكون سعيد الحظ الذي ستزف له حورية حَظْرِي، فتى قومه علما وكرما وغنى وشجاعة! تذكرت نظرات لَمْرُورِح ذلك الشاب الوسيم الذي كان يديم النظر إليها قبل ليلتين، عندما كانت هي وزميلاتها يضرين بالدُفِّ ويغنيْنَ بِكَيْفَانٍ¹ تتحدث عن الحب والشوق والحنين، وعن أن غواية الجميلات تجعل المُتَزَهِّدَ يَتَهَتَّكُ، وذا الروح اليابسة أرقَّ من ماء الغمام.

لقد تركت نظرات ذلك الفتى في نفسها شعورا مبهما لا تستطيع تفسيره، كل ما تعرفه أنه يثير فيها البهجة والسعادة. تهاست صديقاتها لما لاحظن تبادل النظرات بينها وبين الشاب الذي أومض لها مغمضا إحدى عينيه، ورافعا حاجب عينه الأخرى بسرعة خاطفة. فعلت تلك الإيماضة في قلبها الصغير ما يفعله المطر بالأرض الجذباء. فكَّرت كيف لم تنتبه لجمال صورة وروح ذلك الشاب خلال كل هذه السنين، ولماذا هي الليلة مشغولة باستعراض ملامح وجهه وهيئته وطريقته الساحرة في الحديث، وتتمنى من أعماق قلبها لو عاشت بقية عمرها في ظلال روحه المخضبة ووجهه الفردوسي الأخاذ. إن وجهه الوسيم ومنكبيه العريضين، وحضورَ بديهته وحلاوة نكته، وخبرته بالأدب الشعبي

1- كَيْفَانُ: جمع «كَافٍ» وهو في الشعر الشعبي الحَسَّاني مثل البيت في الشعر الفصيح.

إنشاء وإنشادا، كلها صفات أصيلة فيه، فلماذا الليلة كل هذا الحنين!
ما أغرب عالم المرأة! إنها لا تفتن بالرجل إلا يوم تكتشف أن لها في
قلبه مكانة، لكأن عينيها في قلبها، فإدام قلبها مُغْمَصًا فإن عينيها لا
تريان شيئا، ولو كان البدر ليلة تمامه، ولكن يوم يفتح قلبها بالحب،
ترى الدَّمَامَةَ غاية الحسن، والسَّاحِجَةَ منتهى الخفة والذوق. لقد وقعت
العَالِيَةَ في شباك «لِمَرْوَرِح» منذ رأت في عينيه بريق حبها.

سمعت نقرا على الدَّفِّ، إنهن صواحبهَا تُعَلِنَنَّ بَدَاءَ السمر الليلي
المعتاد في الليالي المقمرة. والعادة أن يقام ذلك السمر في مكان مكشوف
وسط الحي، ولكنَّ بَرَدَ الشتاء يرغمهن منذ فترة على إقامته في إحدى
الخيام. وَدَّتْ لو قفزت إليهن كي تحظى برؤية سيد قلبها، لم تظن
قبل تلك الليلة لتأخر «أمبيريك»، الذي يأتي مع صلاة العشاء كي
يجلب البقرات، كانت متلهفة للذهاب إليهن، ويحتاجها توتر ممتع
لنظراته إليها وتهاؤسهنَّ حوله. ولفرط خجلها لم تستطع أن تستأذن
أمرها في الانصراف إلى صواحبهَا، ولم تستطع أن تظهر لها استبطاءها
لـ«أمبيريك» خوفا من تَكْشِفِ السر، فهي تظن أنها تعرف ما يضطرم
بين جوانحهَا من هوى ذلك الشاب.

بدأ قلبها يضرب في صدرها بقوة، وكأنه لص يحاول تنفيذ جريمته
أول مرة، لقد صارت تشعر بالخرج من مقابلة ذلك الفتى، وتشتاق
لرؤيته في نفس الوقت، تتنازعها مشاعر متناقضة، الغريزة والبراءة
تصطرعان في نفسها الطرية، رغم أن ما بينها وبينه لا يعدو قراءةً منها
وصواحبهَا لنظراته، قد تكون قراءة خاطئة، فهو لم ينبس لها ببنت شفة،
ورغم ذلك فإنها لبراءتها تتخيل أن كل أهل الحي يعلمون علاقتها به.
تذكرت موقفا آخر أكد لها ذلك الحب الذي تتخيله، في فصل

الخريف المنصرم قبل أشهر، كان شبان وشابات من الحي يتفرجون على هدير «سَيْلِ العَاكِرِّ» بعد يوم أغدقت فيه السماء عطاياها على تلك السهول، كان تدفق الماء عنيفا وممتعا، جذوع الأشجار الكبيرة تتراقص فوقه كما يلعب صبي بحفنة رمل، بين الحين والآخر يطل رأس من خلال زبد الماء فيختلف المتفرجون هل هو رأس بقرة أم تمساح. فجأة قال لها: «العَالِيَه، ابتعدي عن مجرى السيل فإنه هائج».

لم تثر تلك الكلمة في نفسها شيئا ذلك اليوم، ولكن ذات الكلمة تحولت عندها الليلة دليلا قاطعا على قدم ذلك الحب الذي يكنه لها بين جوانحه. لكأن الحب يبعث في كلماتنا الحياة. تولد الكلمات ميتة ساذجة، فإذا وقع الحب نفخ الروح في رميمها فأنشأها خلقا آخر.

استعادت ثناء أبيها وأصحابه على بديهة لِمَرَوْرَحَ وذكائه، وإتقانه حفظ القرآن، ومعرفته الواسعة بأنساب القبيلة، والقبائل المجاورة، رغم أنه لم يتجاوز العشرين من عمره، فاشتعلت جوانحها إعجابا به، وسرّها ما تذكرت من ثناء أبيها عليه ورضاه عنه. اطمأنت روحها البريئة إلى خواطر قلبها الوهّان، ونشرت طوايا المستقبل على بساط خيالها الطفولي، فرسمت بريشة الحب كل أمنياتها المستقبلية الجميلة معه: «لقاءات عابرة مسروقة من بين أعين الرقباء، وتغزلٌ يسيل سُكْرًا على شفاه فتيان الحي وفتياته، تخيلت نفسها مختبئة ليلة الخطبة والخجل يُلْبِسُ خَدَّيْهَا لَوْنَ الوردِ، وتنامت إلى خيالها أصوات الزغاريد والتصفيق وهتاف المحتفلين بعقد قرانها على فارس أحلامها «لِمَرَوْرَحَ».

لا تزال تَرَبّه فَالٌ في مكان صلاتها مستغرقة في دعائها وتعاويذها، وعلى غير عاداتها لم تتذكر والديها الميتين، رغم أنها ليلة الجمعة، استنفدت كل ما تعرف من أدعية الحفظ والسلامة وكبت العدو ورد كيد الحاسد،

ونفثت في الجهات كلها باستثناء جهة الأرض، إذ تقول الحكاية الشعبية إن الخارج من الأرض مَيَّتٌ. لقد كان كيانها كله مشغولا بمصير زوجها، كان قلبها يستعرض لها كل الاحتمالات السيئة، وقد زاد من قلقها أن أخبارا كثيرة تنامت إليها في الأشهر الأخيرة تجعل أي واحد من تلك الاحتمالات السيئة ممكن الوقوع. كانت تستعيد في ذهنها كلام الرجل، وتحلله كلمة كلمة، تماما كما تفعل أجهزة الباحث الأمنية. توقفت طويلا عند قوله:

- إن فرسه قفزت به ولكنه لم يسقط.

لقد حصلت نفس الحادثة لِجَدِّهِ في مكان غير بعيد من ذلك المكان. وطرحت على نفسها أسئلة كثيرة، لماذا يرجع قبل الوقت المتوقع له، كان أدنى احتمالاته أن يرجع بعد خمسة عشر يوما، والواقع أنه لم يمض له سوى أسبوع واحد! كيف ينزل من شَعْبِ «صَيْرَاطَه» بعد العصر، وَيُصَلِّيَ المغرب دون أن يصل إلينا، والمسافة أقل من ستّ كيلومترات؟ انتبهت على شخص أمْبِيرِيك يناديها بصوته المبحوح ولكتته الزنجية الظاهرة:

- هل ادخرت لي هدية ممّا جاءكم به «خَطْرِي» من غَيْبَتِهِ أم حرمتمني منها كما فعلت المرة الماضية؟

لم يزلها سؤاله يقينا في أن زوجها وصل هذا المساء إلى الوادي، فهي تعرف أن أحمَدُونَا خبير بقيافة الأثر، إن عرق أخواله نزعه فأصبح معروفا في تلك المنطقة بأن فراسته في الأثر لا تخطئ ولو بنسبة واحد في الألف، لذلك صار القضاة يعتمدون عليه في إثبات أي قضية لها علاقة بأثر إنسان أو حيوان أو جماد، لكنها أرادت أن تسمع رواية أمْبِيرِيك فقد يكون نقل هذا الخبر من مصدر غير مصدرها، وقد تجد عنده تفاصيل

وشروحا تساعدها في فك لغز اختفاء زوجها الذي صار بالنسبة إليها حقيقة شاخصة، لذلك أجابته بهدوء مصطنع:

- خَطْرِي لم يأت بعد.

- والله لقد جاء، وسأطلب منه إتخافي بهدية فور رجوعه من المسجد.

قالت بشيء من الجد:

- قلت لك إنه لم يأت بعد.

جلس امْبَيْرِيك قبالتها على أطراف قدميه، دون أن تلامس بقية جسمه الأرض، ممسكا عصاه بكلتا يديه، وقال بنبرة توحى بأنه انزعج من تشكيكها في ما يقوله، رغم محاولته كظم ذلك الغيظ:

- والله لقد جاء، لقد لقيته قبيل الغروب في طرف الوادي، وسلمت عليه بيدي الخشنة هذه، كان معه رجل أسود طويل القامة، يمتطي جملا أورق ضخم الكراديس، عليه ميسم لا أعرفه، كان يسأله عن بعض الأحياء المجاورة، وطلب منه أن يرافقه إليها حتى لا يضلّ في الوادي لأنه غير خَرِيّتِ بهذه الأرض.

ثم أضاف بعفوية من يتذكّر فجأة شيئا كان غائبا عنه:

- لم أعرف الرجل الأسود حينما رأيته، ولكنني تذكرت الآن أنه يشبه رجلا لقيته مع امْهَادِي قبل عام. أتذكرين حينما بعثني خَطْرِي من أجل...

قالت بسرعة، وهي تريد منه ألا يذكر التفاصيل:

- نعم أتذكّر...

- كان معه عندما أتيت بهيد العصر وهم يجلسون تحت ظل شجرة طلح، ومعهم جبة النصارى.

كانت تنصت له وقلبها يدق بقوة حصان يرى الخيل تركض في مضمارها، والقيد يعوقه عن المجارة. لقد أصبحت كل الأمور واضحة لها الآن، ظلت متماسكة في الظاهر وإن كانت الهزيمة أمام خواطر السوء التي تحاصرها تتخن في أعماق قلبها المتهدم. جمعت شتات نفسها وقالت بنبرة صارمة:

- امبيريك، إياك أن تعيد الحديث بما أخبرتني الآن مرة أخرى،
أسمعت يا امبيريك؟
فهم امبيريك الرسالة، وأشار برأسه مؤكدا الانصياع لما أمرت به سيدته. خَشِيَتْ أن تنهار أمامه فقطعت حديثها قائلة:
- احلب البقرات كي يتعشى الأطفال قبل نومهم.
وقبل أن ينهض سألته:

- هل أخبرت أحدا قبلي برؤيتك لَحْطَرِي؟ وهل كان معك أحد أو ترى أن أحدا غيرك رآه والرجل الأسود الذي معه؟
أكد لها أنه لم يخبر قبلها أحدا، وأنه لن ينسب بنت شفة حول الموضوع بعد الآن، كما أكد لها أن أحدا لم يكن معه، وأنه لا يرى أن أي إنسان من الحي رآهما معا، لقد كان الوقت غروبا، وكانا في جهة من الوادي ليست مورودة لعامة الناس.

- إذن هو بيني وبينك! احلب للأطفال بسرعة.
مد يده اليمنى وخطف المحلاب والحبال في حركة رشيقة، بينما اعتمد على العصا يسراه ناهضا، واختفى بين الأشجار والبقر.
أَحَسَّتْ بالدُّوَار، فاحتمت بالأرض مضطجعة، صرخت البنت مذعورة، قفز امبيريك من بين رجلي البقرة التي كان يجلبها، فوجدها

مستلقية فاغرةً فأها، وقد اختفى سواد عينيها، ولم يعد يرى منها إلا
ذلك البياض المخيف. هرع بسرعة إلى المصلّي كي يخبر رجال الحي.
- لقد أغمي على ترّبه فال!

الفصل الثاني

يشهد الوادي منذ ساعات الفجر الأولى جلبةً عاليةً وحركةً متواصلةً. أَقْتُلَعَتْ الخيامَ وطُويَتْ، وشُدَّتْ بالحبال وُجِّعَتْ حسب ثقلها، حتى تُحْدِثَ توازناً عند حملها على ظهور الجمال. النساء منشغلات بمخيض اللبن للرجال الذين نهضوا للترحل منذ السدس الأخير.

ينقسم العبيد والإماء فريقين، ينشغل العبيد بزِمِّ الجمال وشَدِّ الأكوار وإسراج الخيول، وبتعبئة القرب من البئر، وبتجميع ما يحتاجون إليه من الحمير للرحلة، بينما تنشغل الإماء بخياطة بعض الأوعية للوسائد والأواني وأوتاد الخيام والفؤوس والسكاكين وغير ذلك من خفيف المتاع. وفريقٌ آخر من العبيد منشغل بقطع الأشجار، حتى يمكن لهذا الكم من الجمال والحمير والخيول أن يخرج من الغابة بطريقة سلسلة مباغته، فتوقيت الرحلة فرض هذا الأمر.

كانت الحالة العادية أن يستمر مقامهم حتى يسلكوا شهور الشتاء كلها مستدفئين بذلك الوادي، ومحتمين بالجبال المحيطة بهم من قسوة الرياح في شهر فبراير المعروف بزوابعه ورياحه القوية الباردة، كما أن العادة أن يرحلوا بتدرجٍ تكتمل معه الأسرُّ في المكان الجديد في غضون

ثلاثة أسابيع إلى شهر. لكنهم هذه المرة يرحلون في وقت واحد.

لا أحد يعرف على وجه الدقة سبب هذه الرحلة المفاجئة، ما يعرفه الجميع هو أن هناك أمرا من الحاكم الفرنسي في تَامَشِكُطُ جعل «أمهّادي» خلاف عاداته يعلن الرحيل على وجه السرعة دون مشورة رجال الحي. لقد انفض البارحة جمع صلاة العشاء دون أن يكون هناك أي احتمال للرحيل، لكن أمهّادي بعث رُسله بعد منتصف الليل إلى رجال الحي لاجتماع طارئ. وبعد أقل من ساعة كانت خيمته تغص بأكثر من تسعين رجلا. كان القمر مكتملا، وقد توسط السماء، وطاسات حديدية مملوءة جَمْرًا مصفوفة أمام الخيمة، كي تكسر حدة البرد. شدة البرد والاستغراب من الدعوة في هذا الوقت عقداً ألسنتهم عن الضجيج المعتاد في مثل هذه المجالس، فاكتمى كل اثنين أو ثلاثة متجاورين بالهمس في ما بينهم. وبين الحين والحين يدخل أحد عبيد أمهّادي ويلقي نظرة على الجمع، ويسأل عما إذا كان العدد قد اكتمل، فيجيبه الرجال أن فلانا وفلانا لم يحضروا بعد، ولكنهم لا شك سيحضرون في أقرب وقت.

بعد أقل من ساعة حضر أمهّادي، ومعه اثنان من «كُومِيَات»، كان يلبس لباسه الرسمي؛ جبة زرقاء مفتوحة من جهة الصدر، تلتصق على طرفها الأيمن قطعة نحاس مُدَوَّرَةٌ بها شعار الدولة الفرنسية. جاء وجلس خلفا للعادة بين الرجال المتجمهرين. ألقى السلام عليهم، وسأل عن حضور رجال بأسمائهم، فأجابوه: «أَنْ نَعَمْ. فَكْ تدوير عمامته ذات اللونين الأزرق والأبيض وطواها ثم وضعها على منكبه الأيمن. انسدت لِمَتُّه الكثيفة الملساء على منكبيه العريضين كلبدة قَارِحِ أُسُودِ. مشى بين العيون الشاحصة، ووقف في الجهة الشمالية للخيمة. نظر

إليهم مُتَكَوِّمِينَ من شدة البرد. كانوا يجلسون متورِّكين ينظرون إليه بحيرة واندهاش، عيونهم وحدها هي ما يتحرك منهم في ذلك الوقت. كان الموقف مزيجاً من الهيبة والاستغراب.

بدا امهّادي في تلك اللحظة شخصاً آخر، كان غاضباً وحزيناً، أثار أحداثاً ومواقفَ سابقة، ثم سأل أكثر من مرة عما ينقمة الناس منه، وما إذا كان هناك من هو أحقّ أن يكون «شيخ عامّة»، ثم عرّض بالمغاضبين، وقال إنهم لن يكونوا إلا في ديوان قوم، وأن تكون في ديوان أهلك وأبناء عمك، خير لك من أن تكون في ديوان آخرين لا تربطك بهم أي علاقة سوى أنك لاجئ. لم يعط فرصة لأحد كي يعلق أو يستفسر، بل أنهى الاجتماع بقوله إن نَصْرَانِيَّ تَامَشِكْطُ يستدعي القبائل وشيوخها للقاءه شمال «لِفْدَه»، فقد قرّر هذه المرة، تعجيل موعد «الحَصْرَه» بثلاثة شهور، وإن أحد «كُومِيَات» سلّمه رسالة منه، تأمره هو شخصياً باعتباره «شيخ عامّة» أن يُخِضَرَ الحَيِّ الذي يتبعه في غضون يوم وليلة. انفضّ السامر، ورجع الرجال مأخوذِين بالدهشة والإثارة. لم يكن الوقت مناسباً للأحاديث الجانبية فالليل قد انصرم ثلثاً، والرحيل غدا يقتضي البدء في الاستعداد مبكراً. كان أخوان من رجال الحي يرفعان زوجين من الأسرّة الخشبية إلى ظهر الجمل المناخ أمام خيمتيهما، تبتأهُمَا بتوازن، بشكل لا يميل أحدهما بالآخر. وقفنا ليلتقطا نَفْسًا قبل مواصلة شدّ المتاع. التفت أحدهما فرأى الحركة الدائبة في الوادي، فزَمَّ شفّتيه استهزاء، وقال:

- ماذا يعنيه كل هذا الكلام الكبير الذي ألقى به امهّادي في وجوهنا البارحة من دون موجب ظاهر؟ ما الذي استشاره حتى ينبش في تاريخه وتاريخ كل أسرة في هذا الحي؟ لا بد أن هناك سُجْبًا

حافلةً وراء هذه الزوبعة العاصفة، ليس عاديا الأمر الذي يُنزَلُ
أمهَادِي عن وقاره وحلمه وأناته!

نظر الآخر حواليه مستوثقا أن لا أحد يسمع حديثهما، ثم وضع يده
على حاجبيه ليصدّ أشعة الشمس التي سقطت عمودية على عينيه من
خلال أغصان الأشجار، مُبْدِيَةً قُبْحَ تَغْضُنَاتِ خَدَّيْهِ، ثم قال بصوت
خفيض:

- هل سمعت بالإغماء المفاجئة التي حصلت لترّبه فأل أخت
أمهَادِي؟ إن الناس يتهامسون بأشياء كثيرة وخطيرة، خَطْرِي
زوجها اختفى منذ أسبوع، أخبرني أحد الثقات أنه لقيه على
مشارف الوادي، وهو عائد من رحلته في طلب ضوَّاله التي تبعت
مواشي أهل الجنوب أثناء مرورها من هنا، ولكنه لم يأت ولم يعرف
خبره بعد ذلك.

فغر مخاطبه فأه دهشة قبل أن تفاجئه رغبة في التثاؤب. قال وهو
يضع يده على فيه:

- من أنباك هذا؟ إن هذا لمن الغرائب!
- هذا ما أخبرني به أحمّدونا الإمام، ولكنّ أسرّتي أهل أمهَادِي
وأهل خَطْرِي معروفتان بكتمان ما يجري داخلهما، إنهما لا تزالان إلى
حد الساعة تشيعان أن خَطْرِي لا يزال في رحلته العادية.
- لم أفهمك بعد، ما الذي تقصده بالضبط، ما أعرفه أن ترّبه فأل
تنتابها منذ صغرها بين الحين والآخر إغماءة مُفاجئة، وهذه إحدى
نوباتها العادية، وخَطْرِي نَفَضَ يَدَيْهِ من طلب السيادة منذ منح
النصارى ثقتهم لامهَادِي.

- المهم أن تَوَثَّرَ أمهَادِي متعلق بهذا الأمر، وأن إغماءة تَرَبَّه فَالَ جزء من الخبر، وأن الأُسْرَتَيْنِ لا تزالان تستسّران على التفاصيل والخلفيات. لكنّ المتدثر بالأيام مكشوف العورة لا محالة.

هز الأخ الآخر رأسه بهدوء للأمام والخلف، وزَمَّ شَفْتَيْهِ مُطْلِقًا من خياشيمه صوتا يشبه الأنين، دليلا على استيعاب مرامي كلام أخيه. وأثناء كلامهما مرت فرسٌ يمتطيها أحد الرجال قريبا منها، فقطعا حديثهما واستأنفا التجهّز للرحيل.

استَبَقَتْ كل امرأة إحدى إمائها لإعداد هودجها وهوادج بناتها، بينما سمحت للأخريات بالمشاركة في الإعداد المشترك للرحلة. تتنافس النساء عادة في زينة مفارش هودجهن وأشكالها، وتبدلن غالي الثمن لأهل الصنعة كي يفرغوا في كل واحد قدراتهم الفنية. فالهودج بالنسبة إلى المرأة رمز الملك والسيادة، إنه تاجها الذي إذا تنازلت عنه فقدت سلطتها وهيبتها، وكما تمثّل الخيمة السلطة الثابتة للمرأة في حال المقام، فإن الهودج يمثل سلطتها المتحركة في حال السفر.

رأت «لِعُنَاد» أمّتها ذات الأصل البمباري الظاهر تمسح عيدان هودجها، وترش المهاد الذي ستجلس عليه بخلطة عطرية، فتلبّسها مشاعر أميرةٍ تحتفل دولة كاملة بذكرى قرانها. كان هودجا مصنوعا بعيدان الشَّفَلَحِ الملساء المستقيمة، وقد أفرغ فيه صانعه كل خبرة أهل أفلّه في صناعة الهوادج، بل أكثر من ذلك، لقد أسهم صنّاع لِعَصَابِه في إنشائه. لقد كان أول هودج يصمم بهذه الطريقة منذ اكتشاف العرب صناعة الهوادج.

قالت إحدى النساء بغبطة ظاهرة:

- هودجك هذا ليس له ثمن.

تظاهرت بعدم سماعها رغم اشتعال جوانحها بالغيظ، فهي تعرف ما ترمي إليه تلك المرأة الشيطانة بكلمتها، إنها تريد أن تقول إن جماها الباهت لا يستحق مثل هذا الهودج الثمين.

تعتبر لعناد هذا الهودج مهرها الثاني، إنه بعض المتاع الذي ترصاها به زوجها سلماتي أخو خطري قبل أشهر، بعدما ذهبت إلى بيت أبيها مغتظة من ترنمه بـ«گاف» كان تغزل فيه بإحدى بنات الحي أيام مراهقته. كانت ترضيتها قطعاً من البقر، يتقدمه ثور كقطعة جبل، وجمالان بازلان، ولكن زوجها زيادةً في تدليلها استقدم رجلاً خبيراً بصناعة الهودج من منطقة لعصابه كي يضع عليه بصمته الفريدة. كانت معه مفارشه وملابسه الزاهية الجميلة. تذكرت أن زوجها كان كلما رآه موضوعاً على ظهر الجمل أنشد بيت حميد بن ثور الهلالي:

فَلَوْ أَنَّ عُوْدًا كَانَ مِنْ حُسْنِ صُورَةٍ

يُكَلِّمُ أَوْ يَمْشِي مَشَى أَوْ تَكَلَّمَ

قالت إحدى النساء وهي تمر مستعجلة وقد سقط طرف ملحفتها فبدت إحدى صفحتي خدها وعنقها ومنكبها:

- لك أن تفخري بهذا الهودج.

أجابتها لعناد مازحة:

- باركيه حتى لا تصيبه عينك فإن أهلك معروفون بالعين.

- هل تعلمين أنه بعد هودجك لم تعد امرأة تقبل اقتناء الهودج القديمة، لقد ذاع صيته في طول أفلّه وعرضها، وصارت النساء تضربن به المثل فيقلن: أحسن من هودج لعناد. وقد بدأ الصنّاع في الأحياء المجاورة يجاولون صناعة الهودج على منواله.

ثم أضافت باسمة:

- كنا بحاجة إلى غيظك الذي جلب لنا هذه التحفة الفنية الرائعة، ولكن احذري من أن تظني أنه سَيَتَرَضَّاكِ مرة أخرى بهذه التحف الثمينة، المرة القادمة سَيُتَحَفِكِ بِطَلَّاقِ بَنَاتٍ. إن أم السارق قد تزغرد أياما، ولكنها يوما ما ستبكي عليه.

ابتسمت لعناد في بهجة ظاهرة وقالت:

- لا تنظقي بالمكروه، إن البلاء موكل بالمنطق.

- هل تعرفين الفرق بين هودجك وبين الهوادج التي كنا نعرف

قبله؟ إن ميزة هودجك هو أنه...

قطع حديثهما صوت رَجَّةٍ ثَقِيلَةٍ، هُرِعَ بعدها الرجال باتجاه البئر الوحيدة في الوادي، حيث كان العبيد يستقون. لقد انهارت صخرة من البئر تحت أرجل العبيد السقاة، وانطبقت على ثلاثة منهم.

وقف القوم حائرين لبعض الوقت، نظر بعض الرجال إلى بعض، وكان البعض الآخر لا يزال يسأل عن الثلاثة الذين ماتوا، بينما يشغل آخرون بتبادل المعلومات حول مسار الرحلة المرتقبة ومحطاتها المفترضة. كان امبيريك يروي لهم ما حصل وعيناه تغرورقان بالدمع، لم يكن يبكي زملاءه الذين ماتوا تحت الصخرة، وإنما كان يبكي لموت أحاسيس أولئك الرجال الذين لم يظهر على أحد منهم أي أسى حقيقي على نفوس بشرية ماتت بطريقة بشعة. تحيل نفسه في جوف بئر سحيقة وهو يحاول رفع صخرة مماثلة دون جدوى، وأولئك الرجال يقهقهون فوقه ببرودة أعصاب.

قال أحد العبيد:

- أَسْمَعُ صوتَ مسعود لولا أن نُفَنِّدُون. إنه يصرخ بتضرع.

سكت الجميع منصتين كي يتأكدوا من الصوت. اتفقوا جميعاً على سماع ذلك الصوت المكتوم، كما اتفقوا على السخرية من ذلك العبد الذي ادعى أنه مَيَّزَ صوت مسعودٍ بذاته. تبادلوا بعض النكات الساخرة من ضعف وثوقية كلام العبيد، ليس في الأمر ما يستدعي حزنهم، فموت عبد مثل نُفُوقِ دَابَّةٍ، بل إن نُفُوقَ الدابة أكثر أثراً في النفس من انطفاء روح عبدٍ لئيم. وقف رجل يلهث من شدة العدو، وقال بنبرة يُقَطِّعُهَا نَفْسُهُ المتتابع:

- امهَّادِي يأمر بدفن البئر فوراً، والانصراف لمتابعة أعمال الرحيل فالمسافة بعيدة جداً، والحاكم الفرنسي ينتظرنا شمال «لِفَدَه» بعد يوم وليلة فقط.

انصرف الرجال كما حضروا، وبدأ العبيد الناجون في دفن البئر كما أمر امهَّادِي. كانوا يهيلون التراب على زملائهم الذين ربما ما يزالون أحياء. دموع العبيد تختلط مع عرقهم المتصبَّب رغم برودة الجوِّ، وأيديهم تهيل التراب وقلوبهم تتقَطَّع كمداء وغيظاً. كانوا يُحَثُّون الرَّمْلَ موقنين أن زملاءهم ما يزالون على قيد الحياة، فالصخرة لم تنزل إلى قاع البئر. صحيح أنها نزلت مسافة مترين، ولكن عمق البئر أكثر من عشرة أمتار، متران منها فقط هما ارتفاع الماء. وبعملية حسابية عادية فإن المسافة بين الصخرة والماء الآن هي ستة أمتار.

قال امبِيرِيك:

- لو كان خَطْرِي موجوداً لما تركنا ندفنهم دون أي محاولة إنقاذ، ولما انصرف الرجال بهذه السرعة، وكأنهم كانوا يتفرون على موت ذئب في فلاة. أولسنا بشراً، وإن كانت الأقدار قد جعلت منا عبيداً! أفاق على زملائه يصبون الماء على رأسه، وأحد رجال الحي واقف

فوقه، وقد ملأ الغضبُ شِدْقَيْهِ رِيْقًا مُزِيدًا، وهو يَسُبُّهُ وَيَصْفُهُ بكل فاحش وبذيء، عرف أن الرجل ضربه على العنق بِمِدْقٍ كان في يده، غيظًا ممَّا قاله، فأغمي عليه. اكتمل وعيه فبدأ في تعبئة القِرْبِ وكأن شيئًا لم يكن.

تمشي العَالِيَه بنت خَطْرِي وسط غيضة صغيرة كثيفة، تحمل قَدْحًا خشبياً مملوءًا حليباً، متجهة به صوب إحدى الأسر الفقيرة. لمحها لِمَرْوَرِحٍ وهي تتهادى بأناة، رغم أن سِنَّهَا لم تتجاوز الخمسة عشر عاماً، ولكن تقاليد بنات الكرام علّمتها أن خفة الحركة مُثَلَبَةٌ. كَمَنَ على طريقها مستخفياً بِجِدْعِي شَجَرَتِي صَمَغٍ متقاربتين، وانتظر مرورها آيَةً.

تظاهر بأنه يحاول قَطْفَ عِلْكَةٍ خوفاً من أن يلحظه أحد. هذه أول مرة يتعمد لقاءها منذ وَقَرَّ حُبُّهَا في قلبه. مرت بنفس الطريق وهي تتغنّى بأحد «أَشْوَارِ الظِّلِّ»، وبين الحين والآخر تتكاثف الأغصان، وتمسك أشواكُ القِتَادِ طرف ملحفتها، فيلتمع بياض ذراعها الغض تحت ملحفتها السوداء، كما يلتمع البرق في ليل بهيم. كانت سارحةً في شَدْوَهَا، وصدى صوتها الرخيم ينقلها إلى عالمٍ أَخَذَ من المتعة والذكريات، فيخيل إليها أن حركة الأغصان تُراقصُ حنجرتها الشجية.

كان واقعا في مجال مغناطيسها الصوتي، يتردد صدها في جوانحه، ثم يتحول الصوت إلى صورتها المُخَزَّنَةَ في ذاكرته. بعض الكلمات كَعَيْنَيْهَا الواسعتين، وبعض المَدَّاتِ التنغيمية هي أنفُهَا الأَقْنَى، بينما تَمَّوجَاتِ الصوت هي نقطة الحَالِ السوداء المطبوعة على خدها الأيمن كذكري قُبْلَةٍ لن تتكرر. تتم في نفسه:

- «يَا جِبَالِ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ».

ثم أضاف:

- وأنا أيضا.

كان يصغي إلى ترانيمها بكيانه كله، بينما كانت عيناه تمسحان قامتها بهدوء. بدت أمامه حُورِيَّةً أُهْبِطَتْ من الجَنَّةِ كي تُزَهِّدَ الرجالَ في نساءِ الأرض. تأملها كما يتأمل ناسك معبوده المائل بين عينيه أو متصوِّفٌ في لحظةٍ وَجِدٍ. حرَّك أحد الأَغْصانِ بعنف، فالتفتت مذعورة. رأت ملامح وجهه من خلال الأَغْصانِ، فكاد قلبها يخرج من صدرها. ابتسمت بخجل، ورنأ إليها بعينين ذاهلتين. لم يستطع أحد منها فتح شفثيه بكلمة، ولَّت هاربةً وهي لا تَبَيِّنُ مواضع قدميها من الخجل المسرور.

تقف تَرْبَه فَالَ أمام خيمتها بجسمها الضخم وقامتها الفارعة وكأنها إحدى هضاب أَفَلَّه. كانت تراقب أُمَّتَيْهَا وهما تعانيان طِيَّ المتاع وَجَمْعِهِ، كما تقومان بين الحين والآخر بمراقبة قطعان البقر والغنم حتى لا تذهب بعيدا، قبل أن تساق مع الراحلين. وهناك حُمْرٌ مقرونةٌ بحبل واحد سيحمل عليها المتاع. كانت قد أرسلت عبيدها القويين الماهرين منذ أسبوع لتقضي أخبار زوجها، وأعطت كل واحد منهما جملا وزادا، وأمرته ألا يرجع حتى يأتيها بخبر عنه. ولما تقرر الرحيل بشكل مفاجئ، أرسل إليها أخوها امتهادي عبيدين وجمالا لمساعدتها في الرحيل، ولكنها ردَّت الجميع، وَحَمَلَتْ العَبْدَيْنِ كلمةً قاسيةً:

- قولاً له إني لا أبيع زوجي بالمتاع.

بدت الحيرة على وجهي العبيدين اللذين تفاجأ من كلامها القاسي لأخيها، وندمت هي على تفوُّهها بتلك الكلمات.

رأت جَارَتَهَا «لِعْنَاد» وهي تتهادى في دَلَالٍ نحو الجَمَلِ المناخ أمام

خيمتها، والعبيد يضغطون بأرجلهم على ساقيه المعقولتين، حتى لا يحاول النهوض أثناء ركوبها، بينما كان زوجها سَلَمًا تِي يساعدها بيديه إلى أن استوت على ظهر الجمل. جاء العبيد ووضعوا عليها الهودج، فَأَسِفَتْ تَرْبَهُ فَالٌ، لأن زوجها ليس موجودا اليوم ليحملها على جملة «لِمَوْنُكَ» كما اعتاد، ولن تسمع استحضراراته الممتعة لأشعار الغزل في كل حركة تقوم بها أثناء الركوب، بل سترحل على حُمُرٍ بَائِسَةٍ مثل سُوْقَةٍ الناس، وهي أخت أمهَادِي وزوجة خَطْرِي.

طافت بها خواطر حول مصيره، فهي لا تعرف الآن شيئا عنه، هل ما يزال حيا يرزق أم أصابه مكروه ما؟ تخيلته مقيد اليدين والرجلين وعيناه معصوبتان بجلد جيفة نَتْنَةٍ، وذلك الجندي الزنجي الأسود الطويل الذي يعمل مع النصارى يلهب ظهره بالسياط.

أغمضت عينها مستعيذة من المكروه. نظرت إلى أطفالها الصغار مضطجعين على السرير الخشبي، وقد تَلَفَّفُوا بِفِرَاءِ الجلود، وجوههم الشاحبة من البرد والغبار هي ما يظهر. تصورتهم أيتاما، وتصورت نفسها أرملة تنظر إليها العيون بشفقة ورحمة.

أصبح الممر واسعا وأكوام من جذوع الأشجار وأغصانها متراكمة على جنباته، يمكن أن تمر القافلة الآن بكل أريحية، فليلة وضحاها من العمل المتواصل كانتا كَأَفِيتَيْنِ لأن ينجح أولئك العبيد الأشداء في قطع عشرات الأشجار وكُنُسٍ مُتَسَاقِطٍ أغصانها وجذوعها. إنها أول مرة يقومون فيها بمثل هذا العمل الجبار، لم تكن الرحلات السابقة تستدعي كل هذا الجهد. بدأ العبيد يسوقون المواشي والجمال الموقرة بالمتاع والهوادج والنساء شرعن في النهوض.

يختلط رغاء الجمال بصهيل الخيل وخوار البقر وثغاء الشاء وتتداخل

نداءات الرجال وتوجيهاتهم:

- أَسْرِعُوا، يلزم أن نَصِلَ «كَلْبُ الحَوْلِيَّة» قبل الزوال.

يأتي صوت آخر:

- لا يبدو من تَبَاطُكُم أنكم تنوون ذلك.

يقول ثالث:

- انشغلوا بالمهم، سنصل في الوقت.

نُقِرَّ الطَّبْلُ ثلاثَ مراتٍ إيذاناً بانطلاق الرحلة، نهضت المراكب الجاهزة، وطفق الآخرون في إكمال تجهيز مراكبهم على وجه السرعة.

اصطف الجميع منتظرين مرور موكب امهّادي؛ عشرة جمال مثقلة متاعاً وهوادجٍ مكسوةً ملابس زاهية، هي موكب عائلته الكبيرة، يتقدمها «الصَّبَّار» بقامته الفارعة وكراديسه الضخمة وخطوه المهيب، إنه جمل امهّادي المفضّل، وعلى أنحائه أربعة أفراس مطهّمة يمتطيها «كُومِيَّاتٌ» الذين يرافقونه دائماً، بينما يمشي ثلاثة عبيد أشدّاء راجلين خلف موكب العائلة الأميرية. دخلت اثنتان من الخيل الممر وتبعهما جمل امهّادي، ثم تلت ذلك الفرسان المتبقيتان، وبعد ذلك بقية جمال العائلة وحراسها الثلاثة، ثم بدأت القافلة تتهادى بهوادجها سالكةً الممرَ الرسمي مُشكِّلةً قطاراً طويلاً.

فيما كانت بعض الخيول والحمير تجوس خلال الأشجار باحثة عن ممرات عادية، سُمِعَ ضجيجٌ وجلبّةٌ كبيرةٌ في مؤخرة القافلة، تَحَلَّلَهُ صراخ امرأة مذعورة، وتبعه صوت رجل يقول بصوت مرتفع:

- إن كان قُتِلَ فسنقتل به عشرةً.

بينما شَقَّتْ الصفوفَ فرسٌ كأنها البرقٌ وعليها رجل يكرر:

- أنزلوا المتاع، لا رحيل اليوم.
وتبعته أخرى ينادي فارسها بسجع حماسي:
- امهّادي اليوم أنّ، الموتُ ولا المَهانة.
اختلطت الأصوات والجمال والرجال والنساء، وتحول المشهد إلى
فوضى لا آخر لها، سمع صوت يقول:
- «من قتله؟»

الفصل الثالث

تنداح التراتيل المتداخلة صادحة طيلة النهار وآناءً من الليل على سفح تلك الهضاب الرملية المطلة على سهل واسع ينتهي في سلسلة جبلية صمّاء، تتناثر في حضانها بضعة أجمال منقطعة وتختفي أرضية السهل كلها تحت أشجار كثيرة متساوية الطول، يخيل للناظر أنها نبتت كلها في يوم واحد. أعرشة محظرة «الأنحاب» يلمحها الواقف على تلك الجبال، متناثرةً بفوضوية في تلك الهضاب الرملية، وتغيب عنه كلما انحدر موعلاً في السهل المرتدي تلك الغياض والغابات.

قرنٌ وبضعُ سنين هو عمُرُ تلك المحظرة التي ارتبط اسمها بتدريس القرآن والفقه، وتخرّج فيها كثير من علماء أفله وقضاتها، الجد الرابع لأسرة أهل أتلاميذ هو الذي بنى تلك المحظرة، واختار لها هذا المكان لا تبرحه على مدار الفصول الأربعة، رغم الطبيعة المتنقلة للحياة والمناخ. أخصاص الطلبة المبنية بعيدان شجرة المسيم، والمسقوفة بالحشيش تتناثر متصاعدة نحو قمة الهضبة الرملية، بينما تتجاوز أعرشة حي أهل أتلاميذ في أدنى السفح، مُشكّلةً قريةً صغيرةً غير قابلة للتمدد، وبين أعرشة الحي وأخصاص الطلاب ينتصب عريشان كبيران؛ أحدهما

مسكن شيخ المحظرة، والثاني عريشه الذي يُدرّس فيه طلابه.

اختار مؤسس المحظرة هذا المكان الذي لا يتيح تضاريسه إمكانيةً زيادة التقرّي كي يتفرغ الطلاب للدراسة بعيداً عن مجريات الحياة العادية في المجتمع، لذلك شكلت منذ نشأتها محضناً علمياً وتربوياً قاسياً لا يستطيع مواصلة الدراسة فيه إلا الناهبون أولوا الطموح والعزيمة. فطلبتها معروفون بقوة الحفظ وعمق التربية، لذلك فإن القضاة المتخرجين فيها هم وحدهم من استطاع أن يرغم أمراء حَسَّانٍ على الإذعان لحكمهم، وتنفيذه حتى ولو كان القصاص أو التغريم من الأمير نفسه.

وتداول الحكاية الشعبية قصة أحد العلماء المتخرجين فيها، والذي حَكَمَ على ابن أمير قبيلة حَسَّانِيَّةٍ معروفةٍ بأن يجلد عشرين سوطاً بيد ضحيتة «الزَّاوي» الذي اعتدى عليه ابن الأمير، عندما أمر مواليه بضربه دون سبب وجيه. يُسْنَدُ لِمَرْوَرِخٍ ظهره إلى جذع شجرة عرضيب عاتية، يمسك بيده اليمنى لَوْحَهُ الخشبيّ العريض بينما يعقد أنامل يسراه على مسبحة من مائة حَبَّةٍ، يعدد فيها مرات تكرار درسه في ذلك اليوم، لكن قلبه لا يزال مشغولاً بعشيقته العالِيَه بنت خَطْرِي. فمنذ ذلك اليوم الأخير الذي رآها فيه، وهي لا تبرح ذاكرته لحظة. ورغم مضي أكثر من أسبوع على تلك الرؤية، صدى أغنياها لا يزال يتردد في أذنيه، وملامح وجهها الطفولي المدعور شاخص بين عينيه. يستعيد بتقنية العرض البطيء لقاءهما الخاطف في تلك الغيضة يوم الرحيل، يتأمل كل ما حصل في تلك اللحظات اليسيرة، كيف كَسَرَ الغصنَ عَمْدًا لتنبئها، التفاتتها وبريق عَيْنَيْهَا الفَزَعَيْنِ كَطَبِيَّةٍ مرتاعة، وارتسام البسمة على محيّاها البريء بعد أن تبيّنت ملامحها ثم عدّوها

هاربة.

كل هذه الخواطر حالت بينه وبين حفظ «قِفِّ» مختصر خليل الذي كتبه صباح اليوم، فمنذ الصباح ولسانه يلهج به، ولكن قلبه لم يكن معه، لقد تركه في الوادي سَحَابَةً قَدْسِيَّةً تظلل معشوقته، ظلت الخواطر المرتبطة بها تحاصر قلبه الخفاق. تخيلها جالسةً في هودج جميل على ظهر جمل قَارِح حسن الطباع، يتهادى بها وسط موكب الرّاحلين، تمنى لو كان رفيقها في تلك الرحلة، وَحَزِنَ لأنه لم ينتظر حتى يودعهم ولو من بعيد. ترى هل وصلوا وجهتهم أم لا يزالون يتابعون السير؟

يا إلهي، في أي أودية الخيال تسبح تلك الحورية هذه اللحظات، هل تستعيد مثلي ذكريات اللقاء الخاطف أم نسيت الغريرة كل شيء؟

تتقاذف الأفكار المتناقضة في ذهنه مُحدثةً ضجيجا يشبه صرير الزوابع الليلية بين المقابر، مزيج من اليقين والشك، والتوتر والاطمئنان، مرة يحسبها عاشقةً تَتَلَوَّى من الوجود، فينبت قلبه كل بهيج، ولكنه ما إن يطمئن لذلك حتى تجتاحه عواصف الشك، فتحيل نُصْرَتَهُ ذبولا وربيعه المطري صيفا لا يرحم.

بدأ الظل يتقلص حتى ثنى رجليه عن حرارة الشمس التي أصبحت قاب قوس واحدة من كبد السماء، نظر إلى حبات المسبحة؛ خمس وأربعون حبة فقط هي ما أفرزته أنامله، رغم أنه جلس هنا في وقته المعتاد. في الحالة العادية ينبغي أن يكرر الدرس في هذا الوقت أكثر من مائتي مرة. ماذا سيعتذر به لشيخه حين يكتشف عند المساء أنه لم يحفظ «القِفِّ» جيدا؟ شعر ببعض الخجل والأسى. أخرج عود بشام غليظا من جيب فضفاضته المتسخة ودسه بين أسنانه، كَوَّرَ عما مته على رأسه ثم نهض متاقلا باتجاه أعرشة الطلاب، وكأن مشاعره تجسدت

صخورا ينوء بها كاهله، كان يخطو ببطء صاعدا الربوة مثل جمل ينوء بأحماله.

بدت الأخصاص في عينيه أكثر قبحا من ذي قبل، لمح الطلاب مزدحمين كعادتهم وقت الزوال، يخلط ضحكهم بأحاديثهم وتلاواتهم، يتكلمون في وقت واحد ويناقشون أكثر من موضوع، فتخلط إجاباتهم وأسئلتهم ونكاتهم. شعر بوخزة حجر مؤلمة على قافية رأسه، حكَّها ملتفتا، فلمح صديقه الحميم بُتَّارَ على مرمى خطوات، مُتَّابًا لَوْحَه ونسخةً من مُحْتَصِرِ خَلِيلٍ، رأى شجة جبهته تنعكس عليها أشعة الشمس فلم يستطع مقاومة الضحك. قال له بصوت ممزوج بضحكه الهستيري:

- لقد كان ثمن تلك اللقمة باهظا، لو كُنْتُ حاضرا لَبَعْتُكَ إياها بثمان أرخص؛ أسنانك المسوسة.

ضحكا معا، فقد كان لِمَرُورِحٍ يشير إلى قصة حصلت لِبُتَّارٍ عندما رماه أحد الطلاب بمرجل بعد شجارهما على لقمة. فاز بُتَّارٌ بِاللُّقْمَةِ، ولكنَّهُ دفع ثمنها جرحا غائرا في جبهته، أخبره بأن امرأبِطَ أتلاميذَ وافق على طلبهما بتجاوز بُتَّارٍ بعض «الأقفاف» والشروع مع لِمَرُورِحٍ في باب النكاح لِيَكُونَا «دَوْلَةً» في دراسة المختصر، وأنه حفظ «القِفَّ» الأول.

وضع كل منهما يده على منكب الآخر، وصعدا باتجاه أخصاص الطلبة، ناقشا مسائل فقهية، وتبادلا نِكَاتًا، ومَرًّا على ذكريات. كان بُتَّارٌ ينتقل بهلوانية من موضوع إلى آخر، ويجيب عن أسئلة لِمَرُورِحٍ أجوبة عامة، غير قادر على كبح جماح الرغبة التي تجتاحه في البوح بما سمع شيخه يهمس به قبل قليل.

كان الخبر يتكاثر بين ضلوعه مثل بكتيريا شرسية، كاد يقذف بها في جوفه من معلومات، لكنه أحجم لما تذكر أن لِمَرُورِخَ صديقه الحميم لم يخبره بشيء، رغم أنه قادمٌ من هناك منذ فترة قليلة، لا شك في أنه يعرف كل شيء، لكن لعل في الأمر حرجا يستدعي عدم بوجه به. أخيرا استسلم لشهوة البوح وإن بطريقة مواربة:

- لم تحدّثني عن أهل «وادي الحطب» منذ قدومك!

ابتسم لِمَرُورِخَ وقال ببرودة أعصاب مصطنعة:

- هم بخير، تركتهم يتجهزون لرحلة مفاجئة صوب منطقة «لِفْدَه» في أقصى شمال «أفله»، أعتقد أنها بطلب من كافر تَامَشِكُطْ، ولا أرى إلا أنها من أجل إعادة تنظيم دفع الضرائب على الماشية.

- لا أظنهم رحلوا، أخبار الأمس تقول إنهم لا يزالون مقيمين بوادي الحطب.

بدا لِمَرُورِخَ مُنْدَهَشًا، فأنزل ذراعه عن منكب صديقه، والتفت إليه قائلا:

- ما الذي تقوله يا بُتَّار؟ من أنبأك هذا؟

جمع بتار طرفي فضفاضته خلف ظهره وأمسكها بيسراه، بينما كانت يميناه تمسك بلوجه الخشبي، وبنسخة قديمة من كتاب مُحْتَصِرِ خَلِيلِ بْنِ إِسْحَاقَ، تتحنح كمن يُدَارِي غصبة مفاجئة، وقال بصوت مسترسل خفيض:

- صديقي الحميم لِمَرُورِخَ؛ تعرف أن لمرباط ولد أهل اتلاميذ جتمع أسرار وأخبار هذه المنطقة كلها، لعلمه وقوة شخصيته وحصافته، وما عزز مكانته لدى وجهاء وأعيان المنطقة كلها، قدرته

الفائقة على حفظ الأسرار والأمور المهمة. لكنه رغم كل ذلك لا يتحرج مني أنا وأنت من بين كل الطلبة في هذه المحاضرة، فيتحدث عن أسراره وأموره المهمة بحضورنا ثقةً منه فينا، وإن المجالس بالأمانات كما قال صلى الله عليه وسلم.

كان لَمُرُورِحَ متظاهراً بالإنصات، رغم أنه في الحقيقة مشغولٌ بقمع فضولِهِ الذي يكاد يصرخ في وجه صديقه قائلاً: «ماذا بعد؟ دعني من هذه المقدمات.»

واصل بُتَارَ حديثه:

- ورغم أن الأمر يهمني وإياك بدرجة أولى، لأنه متعلق بأهلنا، إلا أنني لا أحب أن أفشي سِرَّ الشيخي، وقد وثق فيّ، وتحدث ببعض الأمور التي قد لا تكون سِرّاً في حدّ ذاتها، ولكنه بالتأكيد لا يجب أن يشاع أنه مصدرها.

قال لَمُرُورِحَ مبتسماً بدهاء:

- ولكنك قتلتني بالانتظار.

- حينما كان الحي يستعدّ للخروج من وادي الحطب باتجاه منطقة «لِفْدَه» جاء خبر بأن «الْمَرْوَزَه» فرس خَطْرِي وجدت ميتة وإزاءها سلاحه.

عثر لَمُرُورِحَ بغصن من شجرة العُشْر حتى كاد يسقط من شدة الدهول. قال بصوت يمتزج فيه الحزن والغضب:

- أحقاً قُتِلَ خَطْرِي! من ذا الذي قتله يا ترى؟

- رَكَّزَ قليلاً يا لَمُرُورِحَ، لم أقل إنه قُتِلَ، قلت إن شيخنا لِمَرَابِطُ قال إن فرسه وجدت ميتة وإزاءها سلاحه.

وضع لِمَرُورِح يديه على خديه، وبدأ يُحَوِّقِلُ وَيَسْتَرَجِعُ، ثم قال:

- كنت أعرف أنهم لن يمهلوه؟

أَلْحَ عليه بُتَّارٌ يسأله عن الذين يعينهم بقوله إنهم لم يكونوا ليمهلوا خَطْرِي، فندم على تفوهه بتلك الكلمة، وقال محاولاً استغفالَ صديقه عنها:

- من أخبر شيخنا لمرابط بهذه المستجدات؟

- إن سَيِّئَ الأخبار - كما تقول العجائز - سريعُ الذبوع، مع أن شيخنا لا يفوته خبر حتى ولو كان نُفُوقَ بَوْمَةٍ في ظلمات كهف، ولكنك تخفي أشياء في ما يظهر من كلامك!

استرسلا في الحديث عن الخبر الجديد، ولم يمهلها صَهْدُ الظهيرة كي يمشيا بِبُطْءٍ، رغم أن الفصل شتاء، وصلا إلى أخصاص الطلبة، وانحرفا باتجاه خُصِّهَمَا. لم يستطيعا مواصلة حديثهما لِتَقَارُبِ الأعرشة، خوفا من أن يسمعها أحد الطلبة، فاتفقا على أن يُحْلُوا بعد العشاء على ربوة بعيدة من حي المحظرة كي يواصلوا حديثهما عن خَطْرِي وخبر فرسه الميتة، وسلاحه المرمي إلى جانبها.

تحت شجرة الطلح الكبيرة التي يمتد ظلها الوارف عصرا جهة الغرب، جلس الشيخ لِمَرَابِطٌ وَكَدَ أَهْلٌ ائْتَلَمِيدُ كعادته بعد صلاة العصر، مُسْتَقْبِلًا طلبته الذين كان يؤمهم مع بضعة من رجال حي «الأنحاب»، في تلك البقعة التي اتخذها مصلى منذ أكثر من ثلاثة عقود، مفترشا سجاداته الجلدية العريضة ذات الغطاء الشَّعْرِيَّ الأبيض الناعم، ومرتديا فضفاضةً قصيرة ذات لون أزرق فاتح، ورداءً أبيض يلف منكبيه وظهره.

كان ما يزال يعقد التسبيح في يمناه، فهو يقول بأفضلية التسبيح بعد الصلاة بالأنامل، وبدعية السبحة فيها، ويرى أن السبحة جائزة فقط للأذكار المطلقة، وهي إحدى غرائب فتاواه التي طالما أثارت نقاشات بينه وبين علماء «أفله». أجاب عن بعض الأسئلة الواردة من رجال الحي بسرعة واقتضاب، فهو يريد التفرغ لتلميذه النجيين بُتَّارٌ ولِمَرْوَرِحٌ، اللذين سيدرسان اليوم القفَّ الأول من باب النكاح.

ذهب المصلون واحدا واحدا، فيما بقي الشيخ وتلميذاه. بقيا مُتَسَمَّرَيْنِ في مكانهما هيبَةً له، بينما ظل هو جالسا في خشوع، عيناه مصوبتان إلى الأرض، لا يتحرك منه سوى شفتيه وأنامل يمناه.

- أَيُوهُ.

قالها وهو يُعَدِّلُ جلسته.

سارع الفتیان لجلب الوسادة الجلدية الكبيرة المسندة إلى جذع الشجرة، حملها لِمَرْوَرِحٌ ووضعها بين يدي شيخه، انحنى واضعا عليها ذراعيه، بينما ظل مفترشا فخذه، حتى صار نصف منبطح.

اقترب منه بُتَّارٌ حاملا الدواة والأقلام وكُوَحَهُ الخشبيَّ ونسخته القديمة من متن مختصر خليل، وجلس لِمَرْوَرِحٍ عند قدميه يَعِصِرُهُمَا بيده اليمنى إكرامًا له، بينما أمسك لوجه بيسراه.

قال الشيخ بصوت مُتَهَدِّجٍ خاشعٍ، يوحي بأن صاحبه كان سَارِحًا في مواعظ الآخرة.

- بُتَّارُ، مَشِّي.

استعاذ بُتَّارٌ من الشيطان الرجيم، وسَمَّى الله، ثم جعل وجهه اللوح المكتوب فيه قُبَالَةَ شيخه، بينما كان وجهه الممسوح قُبَالَتَهُ هو،

ثم بدأ يسرد «القِفَّ» من ذاكرته باسترسال فصيح، وكأنه يقرأ سورة الفاتحة حتى جاء على آخره. وما إن نطق آخر كلمة من «القِفَّ» حتى بدأ لِمَرْوَرِح يسرده من ذاكرته بصوته الأصحل السريع، كان يتعثر أحيانا، ويقف عاجزا عن المتابعة على غير عادته. لم تَفْتُ الشيخ كبوة تلميذه النجيب، الذي يجله من بين كل طلابه لنباهته وعقله، ولا اهتمامه بالشأن العام وكرهه للفرنسيين الكفار. وببصيرته النافذة ومِرَاسِهِ الطويل لطلابه، عرف أن لا شيء يمكنه أن يُشَوِّش ذاكرةَ الفتى النَّابِهِ إِلَّا سَوْرَةُ الْحُبِّ، وأن لا شيء يَعُوْقُ الحَافِظَةَ مثل أحابيل رَبَّاتِ الْحِجَالِ. كان يصحح له كلما أخطأ ويفتح له كلما توقّف عاجزا عن مواصلة الاستظهار، ولما أكمل «القِفَّ» أشار الشيخ لِبُتَّاز أن يبدأ عرض الدرس جُمْلَةً جُمْلَةً:

- «بَابٌ: نُدَبَ لِمُحْتَاكِ ذِي أُهْبَةِ نِكَاحٍ بِكُرٍ وَنَظَرٌ وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا فَفَقَطَ بِعِلْمٍ وَحَلَّ لَهَا...»
 تنحج الشيخ هازا رأسه، ثم قال:

- (بَابٌ): الباب معروف، وقد شرحنا وجه المجاز فيه مرّات سابقة. ثم أردف: كان شيخنا أبي رحمه الله إذا درّس هذا «القِفَّ» استأنفه بأبيات من قصيدة أحد علماء «الكِبْلَةَ». ثم بدأ ينشدها بترتيل، يَمَطِّطُ حركاتها، ويسكت هنيهة بعد كل كلمة:

فَمَا أَفْسَدَ الْأَلْوَاخَ وَالْهَمَّ وَالتُّقَى

كَبِيضِ التَّرَاقِي مُشْرِفَاتِ الْحَقَائِبِ

مِرَاضِ الْعَيُونِ النَّجْلِ حُوِّ شِفَاهُهَا

رِقَاقِ الثَّنَائِيَا حَالِكَاتِ الدَّوَائِبِ

وقد صدق والله، وطالب العلم إن عاش فسيلبغ مُنَاهُ في الكواعب
على حال عِزَّةٍ ومجد، وإن مات ففي الجنة المبتغى، فالصبر الصبر، فإنكم
لا تزالون فتيانا، والأحسن بكم الطلب إلا لِخَاتِيبي عَنْتِ.

ثم استأنف يشرح القِفَّ، بطريقته المتدفقة التي لا تترك شاردةً ولا
واردةً إلا جاء عليها، فقد حباه الله بذاكرة لا يُفْلِتُ منها شيء. كان
يحفظ أغلب شروح المختصر بإتقان مدهش، كما كان يستعيد شروح
مشايخه بحروفها وبتنغييمهم الصوتية خفصًا ورفعًا، كما لو أنها مُسَجَّلَةٌ
في شريط عالي الدقة.

كانت أقلام الفتيان تُخْفِقُ بين الدواة واللوح والورق الأصفر
الموضوع بين أيديهما، مُسَجَّلَةٌ جميع ما تنفرج عنه شفتا ذلك الشيخ
الخمسيني، الذي يهدر كشلالات سيل «العَاكِرُ»، وكلما أنهى شرح
مسألة ختمها بلازمة: (ذَا ادْخَلْكُمْ؟) بمعنى: (هل فهمتم؟)، فيهبز
الفتيان رأسيهما؛ أن نَعَمْ، أو يستفسران عما أشكل عليهما.

وصل لمرباط في شرحه قول خليل: «وَجَبَرَ الْمَالِكُ أُمَّةً وَعَبْدًا بِلَا
إِضْرَارٍ لَا عَكْسَهُ»، فتنهَّد لِمَرْوَرِح تنهيدةً فهمها الشيخ. لقد خَبَرَ
تلميذه عدة سنوات، وعرف ما يجوس في جمجمته الكبيرة من أفكار
مثالية، تحاول قياس ما يجري في الواقع على ما هو مُدَوَّنٌ في الكتب، كما
يعرف جُرْأَتُهُ على نقد عادات المجتمع، وخاصة ما يتعلق منها بمعاملة
العبيد.

- مالك تَتَنَهَّدُ أيها المشاغب؟

برقت عينا لِمَرْوَرِح وَعَلَّتْ محياه مسحة جِدِّ ظاهر، وهي حالة تقع
له كلما ناقش مسألة علمية، أو أراد التعبير عن موقف جريء، ثم قال:

- تَذَكَّرْتُ فَاطِمَةَ الْحَادِمِ وكيف زُفَّتْ رِغْمَ قلبها النافر وعينيها

الدامعتين إلى «امْسِيعِيدُ الْمَجْنُونُ»، وكيف أن رجال الحي كانوا يَمْنُونُ عليها بأن منحوها عقدا شرعيا، ولم يتركوها مثل بقية العبيد لداعي الغريزة تنجب من دون شرع ولا نظام. فقد عقدها مالكةا ودعا رجال الحي كلهم ليشهدوا عقد إكراهها على الزواج بـ«امْسِيعِيدُ» الْمَجْنُونُ، بعدما تواطأ الأطباء التقليديون والدجالون المشعوذون أن شفاءه في الزواج. «امْسِيعِيدُ» المسيحي الكافر الذي لا يفيق من جنونه، ستزف له فَاطِمَةُ الْحَادِمِ بعقلها وظرافتها وطهارتها وصلاتها.

كان وجه لمرابط يتغضن، وهو يغالب دموعه، أما بُتَّازُ فقد سيطرت عليه الدهشة، وتسمّر حائرا واضعا عَقَبَ الْقَلَمِ في فمه، بينما انفجر لَمُرُورِحَ بالبكاء، وبدأ يتدفق كمحام بارع أمام محكمة جائرة:

- كنت حينها ابن خمس عشرة سنة، وقد سمعت نحيبها وتوسلاتها التي ضاعت في فجاج الأودية، دون أن تلامس قلبا رحيما، ومهما بليت الأحداث في ذاكرتي، فإن صراخها ليلة زفافها له، وهو يضربها بما تيسر له من حطب وحبال لايزال كوابيس توظني كل ليلة، فأبكي وأحزن لأني لا أملك أي حيلة لإنقاذها. قد تقول لي يا شيخني المبجل إن إنقاذ «امْسِيعِيدُ» من الجنون اقتضى ذلك، وبه أشار الأطباء والرقاة، وهو عبد فهو أنفع لمالكة إذا شفي من أمة. ولكن هل يجوز شرعا إنقاذ نفس يهاك أخرى؟ وإذا حصل الأمر بدافع الرحمة والشفقة على رجل مجنون فهل الرحمة تتجزأ بهذه الطريقة الفجّة؟ ثم لم لم يمنحوه إحدى بناتهم؟ فهن والله أشفى له وأطيب لنفسه من أمة أنهكها السير حافية بين الجبال والأودية، وحوّلت لوافح الحر والبرد جسدها الغض إلى جلد يابس لا نضرة

فيه ولا حياة. إن السبب الحقيقي لجنون «أمسيعيد» - كما تعلمون - هو اختطافه من بين أهله وبيعه عبداً في أسواق النخاسة الجنوبية. لم يستطع تحمّل الصدمة التي عاشها، كان في أيامها الأولى، قبل أن يطبق جنونه، يقصّ أخبار اختطافه، وكيف أنه ابن أمير زنجي، له زوجتان جميلتان لست أذكر اسميهما، وله أبناء وماشية وأموال وعبيد. من يريد أن يرجع إلى «أمسيعيد» عقله عليه أن يرجعه إلى أهله حيث مكانته وسؤدده. لقد فكرت - يا شيخي - أكثر من مرة - وأنا الفتى الصغير - أيام زفاف فاطمة الخادم الظالم أن أختطفها، وأعود بها إلى بلادها، كي أنقذها من هذا الجحيم، بل لكي أنقذ قلبي الذي أصبح على حافة الجنون، كلما خطرت به توسلاتها وبكاؤها، وهي تُزفُّ عروساً لمجنون، بل أفشي لكم الآن سرا، أنني أخذت فرس أبي وربطتها خارج الحي، وتسلفت إلى تلك المسكينة وهي في عَيْصَةِ «الخُرُوف» ترعى غنم أسياها. كانت ساجدة تحت شجرة قتاد تصليّ الضحى، فلما سلّمت ورأيتني، ذعرت خوفاً من أن أخبر أسياها أنها منشغلة بالصلاة عن رعاية الغنم، طمأنتها وعرضت عليها أن تركب خلفي وأوصلها إلى أرض السودان، لعلها تجد من تعرفه، أو من يوصلها إلى مكان أهلها. لا أنسى دموعها وهي تحضني، وتقول بلكنتها البمبارية: «أنا كائفة» (تعني خائفة)، ثم أشارت بيدها نحو السماء، وقالت كلمات لم أفهم منها إلا اسم الجلالة «الله»، أظنها كانت تشكو إليه.

كانت إحدى اللحظات التي لا يمكن بعدها مواصلة الحديث. بعض المواقف يستدعي أن يذهب كل أحد بعده في سبيله، كأنّ نظر وجوه بعض الحاضرين فيه إلى بعض وقاحة غير ضرورية. مسح لم رابط

الدمع بطرف عمامته، ثم نهض دون أن يرفع بصره عن الأرض. وضع يده على منكب لِمَرْوَرِح وقال:

- لقد أيقظتني بكلماتك، أستغفر الله العظيم، سنكمل تدريس «القَفِّ» في الحصة القادمة.

وضعا الدواة والأقلام في حفرتهما المعهودة في أعلى جذع الشجرة. حمل لِمَرْوَرِح سجادة الشيخ الجلدية، بينما حمل بُنَّارُ إبريق وضوئه. سارا خلفه باتجاه المنزل. أَسْرَّ إِلَيْهِمَا بأنه مسافر فجر غد إلى وادي الحطب لأن هناك مشكلة طارئة يلزمه السعي في تسويتها، قبل أن يرتكب رجال القبيلة حماقة غير محسوبة. سَبَّ الحاكم الفرنسي ولعنه، وقال إنه أفسد ما بين قلوب الأشقاء بسياسته التفريقية المجرمة. أثنى كثيرا على خَطْرِي، وأثنى على الرجال الذين لا يزالون يسكنون الجبال رافضين حكم النصارى، وسأهم مجاهدين. أوصاهما بصغار الطلبة خيرا، ثم دعا وأدِنَ لهما بالانصراف.

سارا صامتين، لا تزال أجواء مرافعة لِمَرْوَرِح تُحِيْمُ على نفسيهما، كان الأفق مضرجا بدماء الشمس المذبوحة بسكاكين الليل، وقد بدأت دياجيرهُ تُلْفُ ذلك السهل من أطرافه، النيران تلتمع بين أخصاص الطلبة منذرة بليلة دهماء حالكة، وأسراب الطيور تنفض أجنحتها محلقة إلى أوكارها في انتظام وتناسق عجيبين، قطعان الأبقار تمشي على مهلها صوب الخيام المضروبة في سفح ذلك المرتفع الرملي الذي يسمونه «امَهْدُ أُنْدَرْنَايَة»، تتقدمها الحِلْفَاتُ، وبين الحين والآخر يثور غبار معركة بين ثورين. ينتهي العراك بسرعة فالشتاء قد بسط خموله حتى على البهائم.

- لقد جنت هذا المساء يا لِمَرْوَرِح، كيف تكلم لمرباط بهذه

الطريقة القاسية، من أجل الدفاع عن أمة تافهة!

- دعني من فضلك، فنفسي مُحَطَّمَةٌ. يكفيني تأنيب الضمير.

قالها بنبرة تغلق في ذهن سامعها منافذ القول، ثم أضاف بنفس

النبرة:

- أودّ أن أخلو بنفسي. موعدنا بعد صلاة العشاء على ربوة

«أودأش».

رفع لِمُرُورِخَ بصره ذات اليمين فترأى أمامه جبل «التِيدَاتِن» بشكله الهندسي الباهر. لا ينقطع ولعه بذلك الجبل، إنه جبل يحبه ويشتاق إليه منذ الصغر، فقد كانت خيامهم تنصب حوله أغلب فصول العام، وكم مرّة رعى الأغنام حوله، وتسلقه في المساء ليقطف ثمار الشَّقْلِح اللذيذة، أو ليكسر مساويك نضرة من بشامه، يتحف بها أمه عند عودته، فيستمع بأدعيتها له بالسلامة وطول العمر والعلم والمال. أمّا هذه الأيام فإنه يمر به ذاهبا وآيبا من وادي الحطب حيث تُعَطَّرُ الفضاء أنفاسُ تلك الحُورِية الهاربة.

يعني جبل «التِيدَاتِن» اليوم بالنسبة إلى لِمُرُورِخَ القرب والبعد والوصل والبيّن. وقوعه في منتصف الطريق بين المحطرة ووادي الحطب أعطاه رمزية خاصة؛ إذا عَبَرَهُ شمالا تنفس الصعداء فرحا بقرب الحبيبة، وإذا عَبَرَهُ جنوبا أيقن أن البيّن قد قُدِرَ. إنه رأس الزاوية الحادة لقلبه المتأرجح بين الوصال والفراق.

كان مزاجه مختلطا كسما شهر أغسطس، يجتاحه ندمٌ قاسٍ على فعلته هذا المساء، ثم لا يلبث أن يستحيل نشوة فخر، فقد وقف إلى جانب الإنسانية المُعَدَّبَةِ في قصص هؤلاء البشر المُعَبِّدين، تُزاحِمُ هذه الخواطر صورة العالِيّة بنت خَطْرِي وهي تغرز ابتسامتها في قلبه ثم تولي

هاربة. صار معتادا على العبور من لَدَّةٍ تَدَّكَّرَهَا إلى ألم مصير أبيها الذي بدأت تفاصيل قصة اختفائه تكبُّر بعد العثور على فرسه وسلاحه. وإذا صحَّ ما أخبره به بُتَّازُ فَإِنَّ الأيامَ المقبلة لا تبشِّرُ بخير.

تذكَّر أن لديه رسالةً أعطهاها له رجل لا يعرفه، كان لَفِيئُهُ في شِعْبِ «صِيْرَاطَه» قبل أسابيع، كان ذاهبا إلى وادي الحطب في إجازة، فطلب منه الرجل أن يعطيها لَخَطْرِي، واشترط عليه كي يسلمها له أن يعاهده، بأنه إذا لم يجده فسيحتفظ بها دون أن يحدث أحدا بشأنها. عاهده فسلمها له. هي مربع جلدي صغير على شكل تميمة، قال الرجل إن وسطه قصاصة، وهي ليست سحرا ولا تعويذة، وطلب منه ألا يفتحها أبدا، وإذا سمع بموت خَطْرِي أن يحرقها، كانت تلك الإجازة التي ستشهد أول اختفاء خَطْرِي. لم يجده فظلَّ محتفظا بها. لقد زادت تلك الرسالة الأمر تعقيدا في ذهنه الشاب. من أين جاء ذلك الرجل؟ ملاحظه لا توحى بأنه مشعوذ أو دجال، بل عكس ذلك، يبرق في عينيه الصدق والرجولة. لكن ما علاقته بَخَطْرِي؟ ولماذا يحتمل أني قد لا أجده رغم أني ذاهب إلى حي يقيم فيه؟ بل لماذا يطرح احتمال موته قبل أن يتسلم الرسالة!

كان ذهنه الوقاد يستعيد شريط يوميات خَطْرِي، بل يوميات القبيلة، لعله يجد فيها خيطا يفسر له ما تشاجر في ذهنه من ألغاز. تذكَّر أن خَطْرِي قال له قبل عشر سنين، وهو مراهق في ربيع الختامس عشر، حينما كان يردفه على فرسه: «لَمَرُورِح، هل سمعت بالشهيد بكار ولد اسويد أحمد؟ لقد قتله البيضان إرضاء للنصارى قبل أكثر من ثلاثين سنة.»

شق الفضاء صوت المؤذن لصلاة المغرب: الله أكبر، الله أكبر. فانعطف راجعا إلى الحي مسابقا للإقامة بالوضوء.

الفصل الرابع

روائح التَّهْم تفوح في أرجاء المنطقة كلّها. لم يسلم أحد من تهمة الضَّلوع في الجريمة أو التَّسَرُّ على الفاعلين. أصبح خَطْرِي حديث المجالس كلها، وبُسط تاريخ صداقاته وعداواته، ووضعت أقواله وتصرّفاتة السابقة كلّها على مشرحة التَّحليل، لعلَّ خيطا يدلُّ على الجناة يبرز من خلال ذلك التَّداول المنفلت للحقائق والشَّائعات على حدِّ سواء.

منذ العثور على فرسه مَيْتَةً وإلى جنبها سلاحه - بعد أربعة أشهر على اختفائه المريب - والناس في أمر مريب. عدم العثور على خَطْرِي حياً أو ميتا يجعل المسألة معقّدة أكثر. كانت هناك قصة آخذة طريقها للذبيوع في المجالس: «خَطْرِي قَتَلَهُ بعض قطع الطَّرق، وذلك بعدما وجد بقراته الضَّالة ضمن قطعانهم، وهي في مسارحها فاستاقها، وبعد أيام من افتقادهم لها فهموا الأمر فتبعوه وأدركوه على هضبة «تِنكَارَه»، واقتتلوا معه فقتلوه.» تبين لاحقا أن امهّادي هو مصدر هذه القصة، ما منحها مصداقية لدى كثيرين، فمكانته كزعيم للمجموعة، وعلاقاته الواسعة بالنَّاس وارتباطه بأعوان النَّصارى تمنحه ثقة عالية.

تبدو القصة متماسكة الأركان في الظاهر، إلا أن أسئلة كثيرة بقيت مشرعة في وجهها مشكّلةً معاول لهدم بنائها الشكلي، ما جعلها تنهار كقصر من ورق. إذا كان خَطْرِي قد قُتِلَ فَأَيْنَ جُثَّتُهُ؟ أم أخفى الجناة جُثَّتَهُ؟ وإذا كان الجناة قد قرّروا إخفاء جثته فلماذا لا يخفون سلاحه معها؟ لماذا تربط فرسه بهذه الطريقة الغريبة؟ ثم متى كان الطوارق يوغلون شمالاً؟ إن وجهتهم جنوبية دائماً.

أظهر امهّادي اهتماماً غير معهود وإصراراً عجبياً على متابعة الموضوع حتى الوصول إلى الحوّة كما يسمّيه، كان حماساً مفاجئاً للكثيرين، فخطري غريمه ومنافسه الشرس. فسّر البعض ذلك الحماس، بأن امهّادي ينتهز هذه الفرصة لردم بعض حُفَرِ الشقاق المستحکم بينه وبين عائلة أهل خطري وأقاربه وأنصاره.

استدعى رجال الحيّ على وجه السرعة لاجتماع طارئ، استمر يوماً وليلة دون انقطاع، قلبوا فيه كل الاحتمالات ظهراً لبطن، وأثاروا قصص اختفاء غابرة لبعض رجال القبائل، وكيف كشفت خيوطها، ثم استعرضوا تاريخ علاقاتهم بالقبائل المجاورة واحدةً واحدةً، فلم يجدوا فيه ما يبعث على الرّيبة، فعلاقتهم بالجوار مسألة غالباً. حاول أن يقنعهم بأن الطّوارق هم من قتله، ولكن الرّجال لم يقتنعوا بروايته، وبقي مجرد احتمال بعيد.

شكّل في نهاية الاجتماع خلية أزمة لمتابعة الموضوع، على أن يذهب هو بنفسه إلى حاكم تامشكط من أجل أن يبلغه بالخبر وأساء أبرز المتهمين، ويطلب منه التدخل لكشف الجناة ومعاقبتهم، ويعتذر إليه عن تأخر حضوره عن الموعد الذي ضربه له بسبب هذه الأزمة الطارئة. تألّفت خلية الأزمة من عشرة رجال عرفوا بالشجاعة ورجاحة

العقل والرأي، كان منهم سلماتي أخو خطري، وآخرون من خيرة رجال المجموعة. قرروا أن يرسلوا أحدهم نحو منطقة «تأمورت لِكُور»، فقد تناهت الأخبار أن خطري وصلها بعد أربعة أيام من سفره الذي لم يعد بعده. قرروا ذلك رغم أن جثة فرسه وسلاحه وُجدا على ظهر هضبة «تِنكَّارَه» غير بعيد من منازل الحي في وادي الحطب، أرادوا بذلك أن يستقصوا كل صغيرة وكبيرة عنه. انتدبوا لتلك المهمة سلماتي الأخ الوحيد لخطري، فهو خريّت بالأرض ونسابة لتلك المجتمعات، كما أن له موهبة فذة في ضبط أسماء الأماكن والناس، بينما تقرّر أن يذهب بقيّة الرجال إلى الأحياء المجاورة، خصوصاً تلك التي حُدد في الاجتماع أن من بينها متهمين.

أعيد الاستماع إلى كلّ الروايات والأخبار التي شكّلت لوثاً، وضعت على إثره قائمة المتهمين، وتمّ استبعاد كل خبر لم يوجد له مصدر محدد، بعد غرلة الشائعات والأخبار وتدقيقها، تمّ حذف بعض الأسماء من لائحة الاتهام، وأضيفت أسماء أخرى، كانت عملية دقيقة وشاقّة، إلا أنّها ستقتد القوم من الإحراج، وهم يواجهون رجال القبائل والأحياء المجاورة بتهم لأفراد منها دون دليل ملموس.

لكن الأهم في هذه الغرلة أنها كشفت ملابسات أخرى، قد تقلب الأمر رأساً على عقب، منها قول امرأة في الحيّ إنّ أحد أطفال أهل «النكرائي» أخبرها أنّه بينما كان يطارد قُمريّة مُصَّابةً، إذ دخلت بين أشجار متواشجة، فدخل بحثاً عنها، فتفاجأ بمهادي وزنجي أسود يلبس قبعة أعوان النصارى يجلسان بين تلك الأشجار، وأن أمهادي كان يقول له: «إذا كان الرجل قد صدقني فإن صاحبك سيصل قبل غروب الشمس»، وأتتها لم يتفطننا له فهرب، وأنه رأى خطري في

غروب ذلك اليوم مع الزنجي المذكور راكبا جملا طويلا ضخما.
تداول الرجال الخبر، لكنهم لم يمنحوه اهتماما أكبر، فأمهادي كان
في تلك الأشهر هو الدلّكّه²، وأعوان النصارى يفدون إليه بين الحين
والآخر لتسليمه تعليمات الحاكم الفرنسي وأوامره في تامشكط، وهو
بدوره يقوم بتوزيعها على شيوخ المنطقة حسب الاختصاص.

عاد أحمّدوناً وبعض رجال الحيّ من معابنتهم مسرح الجريمة، كان
الوقت زوالا، توجهوا نحو خيمة أمهادي لإعطائه تفاصيل المشهد،
بعد لحظات تجمهر كثير من الرجال، وحضر أمهادي معتجرا عمامته،
كانت قسّات وجهه تشبه الموت. كثيرون ظنّوا أنّه يأسف على مصير
خَطْرِي، حتّى إن أحد الرجال اقترب منه ليخفّف عنه، وقال له: «هوّنْ
عليك، فخطري سوف يعود سالما غاننا». أمّن على رجائه ثم التفت إلى
الرجال كي يفرغوا ما في جعبتهم من أخبار.

بدأ أحدهم يصف المشهد ويحلّله كأنه خبير تحقيق دولّي: «كانت
مُروزة أفلّه مشدودة الرجلين بقوة إلى جذع شجرة بشام، الحبل الذي
استخدم في تقييد أرجلها الأربع ليس من الحبال المتداولة في هذه
المنطقة».

رفع الحبل بيده فراّه الجميع. قال سدّوموالد أهل النكرائي، وكان
الكلمة انفلتت من بين شفّتيه عنوة:

- هذا الحبل يشبه الحبال التي يشدّها الحاكم الفرنسي جماله.

لم ينتبه أحد لقوله. فتابع الرجل: «ثم إنّ سلاح خطري ليس عليه
أي أثر دم، ما يدلّ على أنّه لم يدافع عن نفسه، وبناء على معرفتي به، فلا
بدّ أنّ الجنّاة غافلوه عن سلاحه. ثم إنّ ربط الفرس بهذه الطريقة يدلّ

délagué - 2

على أن الجناة كانوا يخافون أن تصل الحي في وقت قصير، يُمكن من تعقبهم قبل أن يتعدوا عن المنطقة».

نهض أحمدوناً من وسط المجلس، فقال له امهادي مازحا:
- إلى أين يا إمام؟ هذا وقت صلاة سحالي «جهلبه».
أجابه بقسوة:

- السحالي تعرف أوقات بعضها بعضا.

تنهّد بعض الرجال من قسوة الجواب. قال أحمدوناً:

- رصدت قرب فرس خطري أثر إنسان رأيت من قبل، وقصصته حتى أصبح على مقربة من الوادي، ولكن أحاديث القوم أغفلتني عن متابعته.

قال أجمله بصوته الحشن، وهو يجلس متربعا في طرف الخيمة، ويده عود ينكت به الأرض، وكأنه غير مهتم:

- أحمدون عسك. (أي احذر)

حملق الرجال بعضهم في بعض، مع ضحكات مكتومة قمعها تنحج امهادي الذي فهم مغزى كلام أجمله، ولكنه اختار تجاهله، فقال معلقا على كلام أحمدوناً بنبرة ظاهرها المزح وحققتها التسفيه:

- إن فراسة تقصي الأثر ليست دليلا شرعيا، ثم إنك يا أحمدوناً أصبحت تُخرف، وتريدنا أن نقتنع بخرافاتك، كيف تقصُّ أثرا على جبل أصلع! ستقول لي إنك تشمُّ الأثر حين تختفي عنك ملاحه، ولكن من سيصدقك!

- أوووه.

تنهيدة اعتاد أجمله أن يطلقها بتمطيط مقصود كلما سمع ما يعتقده

كذبا أو مراوغة، لم يُنْهَها حَتَّى كان امْهَادِي قد صَفَّ واقفا ينثر حمم
غضبه:

- اجْمَلَه، ليس الوقت مناسباً لكلامك العاثر.

لم يبد اجْمَلَه كعادته أي اهتمام لكلام امْهَادِي، تملل في مكانه، ومسح
يده بقمه مواصلاً نكَّت الأرض بالعود الذي يمسكه بأطراف أصابع
يده الأخرى.

اجْمَلَه رجل طَوَّالٌ، ضخَم الجثَّة، داكن العينين، عظيم الشفتين، ما
يجعل نطقه للحروف الشفوية غير فصيح، كل ما يخطر على باله يقذفه
لسانه، دون مبالاة بمشاعر الآخرين أو مواقفهم منه، لذلك أطلق
الناس عليه هذا اللقب، وصار معروفاً به، حَتَّى نسي اسمه الحقيقي
«أباه ولد أحمد بونا».

تعني اجْمَلَه في الحكايات الشعبية ذلك الإنسان الذي لا يلوي على
شيء، مثل الجمل الهائج. لم يكن اجْمَلَه مخبولاً، ولكنه لا يعرف المجاملة
ولا الكتمان، معروف بالصدق والصراحة، وقد وهبه الله قوةً بدنيةً
خارقةً يخافها الجميع، لذلك يكتفي الذين تشوهم كلماته بالصمت، وهو
إلى كل ذلك وسيط في قومه، وصاحب مال وعشيرة. ولصراحته أصبح
الناس يتخذونه مطيةً لإيصال رسائلهم التي لا يريدون الإفصاح عنها
بشكل شخصي، خصوصاً ما يجدونه في أنفسهم على امْهَادِي وزملائه
شيوخ القبائل، وما ينتقدونه عليهم من تجسس لصالح الفرنسيين، وقد
شجعهم على ذلك أنه لا يكشف مصادر معلوماته تحت أي ظرف.

انفض المجتمعون وفي جوانحهم كثير من الحيرة والغیظ والغضب،
كيف يجروء أحد في هذه المنطقة على قتل خطري الرجل المحبوب، وابن
القبيلة المهيبة!

في علم الاجتماع القبلي لا تأخذ هذه الحوادث أهميتها من طبيعة الضحية أو نوع الجريمة، بل بما تمثله من خرقٍ لنمط العلاقات الودية التعاضدية القائمة بين تلك القبائل، وهي حوادث لا يتم التسامح فيها تحت أي ظرف، سداً لذريعة التكرار المحتملة بحكم الجوار الدائم، لذلك كثيراً ما يقتتل حيّان بسبب حادثة بسيطة، قد تكون طرّد بعض الضوّال عن مشرع ماء.

من الأفضل أن يكون غرباء عابرون هم من دبرّ الجريمة، وكثيراً ما يقع ذلك، خصوصاً من بعض القبائل الشمالية المحاربة، صحيح أن تلك الغارات أصبحت نادرة، بعد سيطرة الفرنسيين على المنطقة، أو على الأصح أصبح الفرنسيون وأعدائهم يتولّون المناوشات مع أولئك القوم القادمين من الشمال، وخصوصاً في التّخوم الغربية لأفّله حيث يلامس منطقة لعصابه.

أرسل كل رجل عبده كي يجلب مرْكوبه جملاً أو فرساً، استعداداً للخروج في رحلة التحقق من مصير خطري. في الحالات العادية، وفي سنوات الخصب تترك الجمال والخيول ترعى في ضواحي الأحياء، ويكتفى بما يورده الرعاة عنها في عارض أحاديثهم، فيتذكرون كل ليلة ما لمحت عيونهم من الدّواب والوحوش. وفي حالة مضي أسبوع أو أكثر ولم يسمع المالك حديثاً عن مركوبه؛ فإنه يرسل عبده كي يعرف مكانه ويعيده إلى الضواحي القريبة.

كان سلماتي قد أرسل أمبيريك العبد الأثير لشقيقه خطري، كي يجلب له جملين من جماله، ويعدّ راحلتيهما وزادهما الكافي للرحلة نحو «تأمورث لِكوز»، عاد أمبيريك بعد صلاة العصر يقود الجمالين البازلين، وضع على كل واحد منهما رَحلاً وفراشاً مناسباً لراكبه المحتمل.

وضع على الجمل الذي سيركبه سلماتي رَحْلاً خشبياً مُعْطَى بلحاف جلدِيّ مطرز بأصباغ ذات خطوط ودوائر حمراء وسوداء وصفراء، ومهاداً أيقاً من فروة جلد غزال، مصنوعاً بمهارة، تُعْطِيهِ لِبُدَّةُ شعر أبيض ناعم، بينما وضع وسادة جلديّة بالية، محشوة بالحشيش على الجمل الذي سيركبه هو، فعل ذلك بتلقائيّة سلسلة.

إنّه يعرف بدقّة المسافة التي يلزم أن تظّل بينه وبين أسياده، تلك المسافة التي يجب احترامها ولو في طبيعة المهاد الذي سيوضع على ظهر جمل، محاولة تقليص تلك المسافة أو عبورها قد يكلفه ما لا طاقة له به، وفي الحقيقة لا يدور ذلك بِخَلْدِهِ أبداً، فخمسة عشرة سنة كافية لأن يستوعب الطفل الغريب نظام العلاقات والطبقات في هذا الحيّ.

امْبِيرِيك شاب أسود، أقرب للقصر وإن كانت قامته تظهر متوسطة، لاعتدال بنيته واستواء قوامه، وسيم تشي ملامحه الهادئة ونظراته الواثقة أنه كان ابن عائلة كبيرة، وصل إلى هذا الحيّ بعد أن صار على شفا موتٍ مُحَقَّقٍ، كان حينها ابن ثماني سنوات، طفلاً لا يزال في براءته الفطرية، عرضه الخاطفون للبيع بثمان بخس، بعدما أصابته حُمَّى الملاريا وحولته إلى هيكل عظمي بَالٍ، فخافوا أن يموت بين أيديهم قبل أن يربحوا منه شيئاً ولو زهيداً، اشتراه خَطْرِي بعدما رأى ملامح الذكاء والفطنة في بريق عينيه الغائرتين، بفعل فتك أنثى بعوضة الأنوفلوس به طيلة أسبوعين.

ذكاؤه الحادّ جعله يعرف تفاصيل كل ما يدور في جنبات هذا الحي من أخبار وعلاقات، بل يعرف ما يجوس بذات صدورهم بدقّة، خبرة جعلته يستطيع الجمع بين متناقض الأحداث ومتطابقها، ليستخرج ما ستمخض عنه حبل الليلي، بل إن ثقافته الاجتماعية تتجاوز ذلك إلى

معرفة أخبار من يجاورهم من أحياء وقبائل.

وهو إلى ذلك ماهر في كل الأعمال التي توكل إلى أمثاله من العبيد، لذلك كان خَطْرِي يكل إليه كل شؤون عائلته ومواشيه، بل ويستكتمه على أموره الخاصة ثقةً فيه، كان عبده وابنه في نفس الوقت، لدرجة أن الناس يمازحون سيّدته تَرْبَه فَالُ بأن الله وَهَبَهَا امْبِيرِيك بعدما وضعت بِنْتَهَا العَالِيَه في أوّل حَمْلٍ، وكان مولدها متزامنا مع قدوم خَطْرِي ومعه امْبِيرِيك.

أنهى إعداد الرّاحلتين ثم دخل الخيمة، كانت الوقت بعد العصر، وقد جاوز ظل كل شيء مثليه، ولكن فحیح السّموم اللّافح يزيد من وقع حرارة الشمس، جلس يتصبّب عرفا في طرف الخيمة الذي تُكثّفُ ظلّاله شجرة العرضيب المضطجعة عند مدخلها بوقار.

كان سلماتي مستلقيا على قفاه، مغطيا وجهه بكم فضفاضته الزرقاء، وأربعة أطفال في سن الثامنة والعاشره يمسكون ألواحهم بأيديهم الصغيرة، يجلسون عند رأسه ميمّمين وجوههم شطر المسجد الحرام، تخلط أصواتهم بأي القرآن، وبين الحين والآخر يتنهد سلماتي، أو ينطق كلمة منبها أحد الأطفال على خطأ ارتكبه، لا يمكن الجزم في هذه الحالة بأنّه نائم أو مستيقظ، فحفظه الأسطوري للقرآن، وتاريخه الطويل مع تدريسه منحه ذاكرة عضليّة، جعلته ينتبه ولو كان يغط في نومه كلّما سمع قارئاً يخطئ في نطق كلمة أو يتجاوز أخرى، ثم يعود لغطيطه وكأنّ الأمر غير إرادي.

ظل امْبِيرِيك جالسا في مكانه ذلك، ينتظر نهوض سلماتي، بدأ يتأمل تقليعات الخلاقة الغريبة في رؤوس الصّبية الأربعة، أحدهم قَسَمَ رأسه إلى سبعة أجزاء، شبيهة بأنهار سُودٍ تفصل بينها اليابسة، رتبت تلك

الأجزاء بشكل تصطفّ فيه خمسة منها مع طول رأسه بدءاً من الجبهة باتجاه القافية، فيما تنطبع اثنتان عن اليمين وعن الشمال، الثاني حلق شعر رأسه كله إلا مقدمة تطل على جبهته، ويمتدّ منها خيط شعر باتجاه القافية، فبدأ أشبه شيء بالهدهد. أما الآخران فقد قرع رأسهما، إذ حلق نصف الشعر وترك النصف الآخر. تذكّر أنه لم يحظ في طفولته بهذا النمط من الحلاقة أيام كان في حي أهله قبل أن يختطفه البيض، وتمنّى لو عاد إلى أهله حتى يعرف هل وصلتهم هذه التقلّيعات الغريبة.

يعرف أمبيريك أن وراء كل نمط من الحلاقة قصة دينية، وأن لكل واحدة من تلك التقلّيعات دَوْرٌ غَيْبِيٌّ في حفظ الطفل من العين أو الحسد أو الجنّ، خطر بباله أنه سمع أكثر من مرة أسماء أولئك الرجال السبعة، الذين يُرَضَّى كل واحد منهم بإبقاء دائرة صغيرة من شعر الطفل حتى تحفظه - بإذن الله - من كل سوء.

عزم على أن ينتهز فرصة سفره المرتقب مع سَلْمَاتِي كي يحدّثه أكثر عن الخلفيات الغيبية لهذه الأمور ولغيرها، فهو مولع بتعلّم القصص والأساطير الشعبية ولَعَهُ بحفظ القرآن، الذي استطاع أن يحفظ عَشْرَةَ أَجْزَاءٍ منه سماعاً، رغم حصار خَطْرِي له منذ استقدامه، ومنعه إياه من أن يتعلّم مثل الأطفال.

كان خَطْرِي يعامله في كلّ شيء كما لو كان ابنه الأكبر، وقد حفظ أمبيريك بقلبه الطيب له ذلك الإحسان والتّكريم، فبوّأه مكانة الأب في قلبه، نسي في ظلّ إحسانه أبوّيه وإخوته الذين حرم منهم عنوة، وهو ابن ثماني سنين في ذلك المساء الحزين.

شيء واحد لم يستطع خَطْرِي أن يقبله لمبيريك، إنّه تعلم الحروف الهجائية رغم حرصه الشديد، منذ قدومه إلى ذلك الحيّ، على أن يجلس

إلى جانب الأطفال حاملا قطعة من لوح مكسور. لا يبرح ذاكرته مشهد انتزاع تلك القطعة الخشبية المكسورة من بين يديه، وهو متشبث بها يذرف الدمع، وعدم اكتراث خَطْرِي بدموعه الصغيرة وهي تتحدر على وجنتيه الطريتين. لكنّه رغم كل ذلك لم يحمل في قلبه أي حقد على سيده خَطْرِي، ولا على سيده تَرْبَه فَالَ اللذين حرماه أن يتعلم فك الحرف مثل غيره من أبناء الحي، بل كان يحمل في قلبه الكبير لهما ما يحمله ابن لأبويه.

عرف امْبَيْرِيك بعدما أصبح شابا بالغا أن الأسطورة الشعبية تقول بأن العبد إذا عرف القراءة والكتابة تحول ساحرا لا يستطيع إبطال سحره، ففهم كيف يجمع بين رحمة خَطْرِي به، وعطفه الظاهر عليه، وبين منعه من تعلم الكتابة، إنه يشفق عليه من أن تجتاحه إغراءات الشياطين فيذعن لِفَنِّ هاروتَ وماروتَ.

تَرْبَه فَالَ مُضْطَجِعَةٌ بَيْنَ صبيتها الصغار، تحت خيمتها الفسيحة تقلب فكرها في مصير زوجها، الذي مضى على اختفائه بضعة شهور، عاشتها بقلب يعتصره الحزن والغضب، شاردةً تلوك الخواطر الحزينة التي استوطنت مخيلتها منذ اختفاء زوجها، وقد ضاعف من حزنها ما أخذت به نفسها من كتمان ما تعرف من علاقة أخيها امْهَادِي باختفائه وعلاقة النصارى بذلك.

كانت كلما سمعت أخاه سَلْمَاتِي، أو غيره من رجال الحي يتحدثون عن جهودهم في البحث عنه اجتاحتها الأسى الرُّعَاق، كما شَحَدَتْ تلك المعلومات التي تطوي عليها جوانحها خيالها المشوب. تتصوره تارةً مَرْمِيًّا في بئر عميقة من آبار قلعة تَامَشِكْطُ، مقيدَ اليدين والرجلين، لا يستطيع دفع لدغات العقارب والأفاعي، ولا يخرج إلا لتلهب ظهره

السَّيِّاط، أو ليتعرَّض للسَّبِّ والشَّتْم، وتتمنَّى لو ترك عناده وكبرياءه حتَّى يرحمه أولئك الزَّبانية الأندال. وتارةً تصوِّره في سجن موحش بمركز نُواكشوط الَّذي تسمع عنه، وتخيِّله في أقصى مناكب الأرض، يتناوب على تعذيبه زبانية الزوج السَّود والنَّصارى البيض، وهو بينهم لا يملك سوى الأنين المرّ. والدم يتقاطر من مواضع القيود في يديه ورجليه، وأحيانا توغل في أودية التشاؤم فترى جثته مرميةً في فلاة، تتناهبها وحوش الأرض. وأحيانا أخرى تَنَدَسُّ إلى مخيلته، فتنبُّسُ خواطره الَّتِي تطوف به، فيسحقه الشُّوق والحنين إلى أبنائه الصغار، وإلى بنته العالِيَّة، وإليها هي الَّتِي يحمل بين جوانحه لها أعظم حب.

كل هذه الخواطر والخيالات جعلتها كثيرا ما تغيب بروحها عن المجلس، ولا ينبههم إلا دموعها الساخنة، أو تهيدة مفاجئة تند من صدرها دون وعي.

زريدها تحرّكات أخيها الماكرة واجتماعاته العبيّنة برجال الحيّ في شأن زوجها غضبا على غضب، احتقرتهم جميعا في نفسها، كيف يستطيع إنسان واحد أن يُعرِّرَ بمجتمع كامل؟ لماذا انطلت لعبة امهّادي على الجميع! أم أنهم منافقون يعرفون الحقيقة ويتغاضون عنها خوفا على وهم علاقاتهم الودية، يتهامسون في ما بينهم بالحقائق ويقررون في مجالسهم الأكاذيب، أو ليس منهم رجل رشيد!

«الرجال يمنهم الجبن من إعلان الحقيقة، وأنا تمنعني العادات، هل سيموت زوجي بين جبن الرجال وحياء النساء؟ أين أخلاؤه الذين كانوا يشحذون غيظه على امهّادي، ويقفون وراءه في الظل كي يعلن معارضةً تنصّيه زعيما للقبيلة، لماذا يتراخون في قضية اختفائه بهذه الدرجة!» تمت لو أكفأت مهراسها الكبير، ووقفت فوقه بقامتها

الفارعة، ونادت بأعلى صوتها: «أيها المنافقون، لا تتبعوا أنفسكم، إن أخي يعرف كل شيء، وأظنكم تعرفون ذلك».

كانت تلك لحظة الذروة التي وصلتها مشاعرها، وهي مضطجعة تغطي وجهها بطرف ثوبها عن لافح السموم، التي ترسل فحيحها القتال كأفاعي الجبال.

تتناهى إلى سمعها من حين لآخر ألحانٌ عذبةٌ، العالِيه تلعب «كُرورٌ» مع إحدى زميلاتهما، وبين الفينة والأخرى تترنمان بأغان ريفية ساحرة، تتخللها كلمات شِعْرٍ شِعْبِيٍّ كانت قرضتها في التوسل لله أن يعيد أباهما الذي لا تفهم لِعَرَارَتِهَا سبب اختفائه.

تصهر تلك الترانيم أحزانها فتسيل دموعاً غزيرةً وأسى وضع ميسمه على محياها الفاتن، فبدا ذابلاً كثيباً. تكفكف دموعها بطرف ثوبها خشية أن يفطن لها أبنائها، وخصوصاً بنتها العالِيه، التي بدأ شعورها يزداد بالحزن المسيطر على أمها منذ فترة، ما جعلها تسألها بين الفترة والفترة عن أسبابه، فتردها أحياناً بالتغافل، وأحياناً أخرى باختلاق قصص عن خصومات صغيرة بينها وبين بعض نساء الحي.

انتبهت على رُغَاءٍ جَمَلٍ يقترب من خيمتها، فاطمأنت على أن حركة جلوسها لن يترتب عليها انكشاف أي شيء من جسدها، ورفعت طرف الثوب عن وجهها متطلعة بعينيها نحو الصوت.

امرأبُطُ أتلاميدٌ ينيخُ جَمَلُهُ عند مدخل خيمتها، جلست مُرْخِيَةً طرف الثوب من جديد على وجهها، بينما قفزت العالِيه وزميلتها مذعورتين، كغزالتين أبصرتا فجأةً صائداً يخاتلهما، جلست العالِيه غير بعيد من أمها، بينما هربت الأخرى نحو أهلها في الخيمة المجاورة.

لم يكمل الجمل بُرُوكَهُ حتى كان أمبِيرِيكٍ ممسكا بغرْضَةِ الرَّحْلِ

مستغرقا في حلّه وإنزال المتاع، وكانت إحدى الإماء قد وصلت إلى الخيمة، وطفقت تهزّ شكوّتها كي تحضر الشراب للضيف الجديد، بينما كانت تَرَبّه فَالٌ وبنيتها متلفّتين بملحفتيهما منحيتين تحت ذراعي الرجل الذي هو مُحْرَمٌ لهما، فقد أَرْضَعته وتَرَبّه فَالٌ امرأة واحدة.

دلفوا جميعا إلى الخيمة، وأخذ امْبِيرِيكُ بخطام الجمل كي يقيده خارج الحي، ثم رجع يحمل حفنة من الجمر، وضع عليها قُمْمًا مليئا بالماء استعدادا لتجهيز الشاي، تمت له تَرَبّه فَالٌ بكلمات، خرج على إثرها ثم عاد يحمل إناء خشبيا كبيرا مملوءا شِوَاءً.

جلس قبالة لِمَرَابِطٍ وبدأ يناوله قطع اللحم المشوي، بعد هنيهة مد الرجل رجله اليمنى، واستل سكيننا حادا من جراب الجلد الصغير المستطيل المتدلي جهة جيب سراويله، ثم بدأ يقطع اللحم بنفسه.

كان منهمكا في اعتبار قطع الشواء، والحديث إلى امْبِيرِيكُ عن مشاهدات الطريق، وسؤاله عن مستجدات الحي، أخيرا التفت إلى تَرَبّه فَالٌ سائلا عن آخر أخبار خَطْرِي، يعرف امْبِيرِيكُ أن تَرَبّه فَالٌ لا تستطيع ردّ جواب سؤال المَرَابِطِ، فالعادات السائدة هنا تقتضي ألا تتحدث النساء عن أخبار أزواجهن بحضرة كبار السن، لذلك أجاب نيابة عنها، واكتفى لِمَرَابِطٍ بإجابته فهو أيضا يعرف أنها لن تجيبه بنفسها. أخبره امْبِيرِيكُ أن سَلْمَاتِي وامْهَادِي يتجهّزان للسفر في ذلك المساء إلى وجهتين مختلفتين، كجزء من خطة التّحريات والتقصّي التي وضعها امْهَادِي بعد التطور الأخير، سأله عن وجهتيهما، فأخبره بذلك. وعندما علم أن امْهَادِي ذاهب إلى تَامُشْكُطُ للقاء الحاكم الفرنسي كي يطرح عليه القضية، تَنَهَّدَ بعمق وحوَقَلَ وحَسَبَلَ، ثم مَدَّ شَفْتَه السفلى في حركة تعبّر عن الأسى والاستهزاء.

يعرف امْبِيرِيك أن امْرَابِطُ اتْلَامِيدُ يكره الفرنسيين كما يكره أن يُلقَى في النار، ويحتقرهم كما يُحتَقَرُ كَلْبٌ يسرق متاع مالكة، ولكرهمه إيّاهم صار يحتقر كل من يتعاون أو يتعامل معهم، ولا يرى في زعماء القبائل سوى أظافر ينهش بها الفرنسيون معارضيهم ومن لا يرضون عنهم.

دخل خَطَّارِي وَأَحْمَدُونَا وبدأوا يديرون الحديث، ذكروا زعماء القبائل وعلاقتهم بالفرنسيين، وتحدث أَحْمَدُونَا بحذر حول موضوع اختفاء خَطَّارِي. يعرف امْرَابِطُ اتْلَامِيدُ دوافع حذره، فخطَّارِي أحد أقارب امْهَادِي، والموالين له بشدة، قال خَطَّارِي وقد فهم بعض الإشارات في كلام جليسيه:

- ليس امْهَادِي بِمُتَّهَمٍ على مصير مسلم، أحرى مصير رجل صهره وابن عمه.

مَرَّرَ لِمْرَابِطُ يده على لحيته، وقال مطمئناً الرجل الذي بدا متوتراً:
- نَعَمْ الرجل امْهَادِي، ولكنَّ هؤلاء الكفار مَكْرَةٌ.

أجابه خَطَّارِي وقد فهم مغزى كلامه:

- يا امْرَابِطُنَا، لولا مجيء هؤلاء الكفار إلى هذه الأرض لما كنا آمنين على إنسان ولا دابة.

- عجيب أمركم، وهل يأتي الأمن مع الكافرين! لم يأت معهم إلا الضرائب المجحفة والنزاعات بين المسلمين.

قال خَطَّارِي، وكأنه يريد أن يفحم حجة لمرابط:

- هذا يا امْرَابِطُنَا هو رأي كثير من علماء هذه الأرض، أنت وحدك من لا يوافق هذه الرأي.

جلس لِمْرَابِطُ وأخرج صُرَّةَ الشُّوق من جيب فضفاضته، نَشَقَّ

منها حتى تغرغرت عيناه، ثم قال:

- ذلك يا ابني ترديد غَيْبِي لمقولة قادمة من منطقة أخرى كانت تعيش حالة من النهب والسلب لم يسبق لها مثيل، أراد المستفيدون من قدوم النصارى في منطقتنا ترويحها، لم تكن أرض أَفَلَّه ولا لعصابة ولا غيرهما من بلاد الشرق الصحراوي مناطق سائبة بالمعنى الذي تعنيه السَّيْبَةُ في تلك المنطقة.

فقد كانت العلاقة بين إمارات «لِعَرَبْ» التي حكمت المنطقة، وبين الزوايا علاقة احترام وتبادل أدوار وظيفية، بل إن القبائل الزاوية في هذه المنطقة كانت مُسَلَّحَةً ومُحَارِبَةً، ولم تكن إمارات «لِعَرَبْ» في هذه المنطقة تُغَيِّرُ على أحياء الزوايا، لم يريقوا لهم قذح لبن، ولم يسيلوا قطرة دم.

أفزع مقتلة شعبية تلك التي حصلت بعد مجيء النصارى، هل استطاع النصارى إيقاف الدم البشري المتدفق في أيام «اعْظِيمِ اطَّاحِينْ» و«بُومَلَانَه»، إلا بسفكهم دم مسلمين آخرين في «كَفْل».

الواقع أن النصارى استطاعوا أن يجعلوا بعض الطامعين في الجاه والمكانة سيوفا مُصَلَّتَةً في وجه محاربيهم، ألم يقتل بكار بن اسويد أحمد بندقية رجل أبيض جاء من شواطئ المحيط مجتازا جبال «تَكَّانَتْ» و«لِعَصَابَه» كي يسفك الدم الحرام!

أنهى كلامه الغاضب، لم يتحدث أحد بعد ذلك، طلب من امْبَيْرِيك تعجيل كؤوس الشاي كي يتمكن من الذهاب إلى امْهَادِي وَسَلْمَاتِي قبل أن يغادرا، فهو قد جاء من محضرته من أجل لقاء امْهَادِي، ونقاش أمور هامة معه، قال كمن يحدّث نفسه بصوت مرتفع:

- لقد تركت المحظرة وليس لطلابها من يُدْرِسُهُمْ، وجئت

مستعجلا كي أعرف حقيقة اختفاء حَظْرِي، صحيح تركت فيها الشابين النجيين بُتَارَ ولَمْرُورَ ح، ولكنهما لا يزالان حديثي السن. قرع اسم لَمْرُورَ ح سَمَعَ الْعَالِيَةَ التي تجلس في طرف الخيمة، وبين يديها قَدَح خشبي ممتلئ من اللَّبَن المخيض، رفرت في قلبها الصغير أجنحة مُبْهَمَةٌ الكُنْه، خواطر يَختلط فيها الحب والشوق والخجل والدهشة، لم تستطع تمييز أمشاج بعضها عن بعض، لكنها رغم ذلك نقلتها إلى تلك اللحظات السعيدة، التي رأتها فيها يكسر مسواكا غير بعيد من مكان مرورها بين الخيام، وما إن تقابلت أعينهما حتى ولت هاربة.

استغربت لماذا تهرب من ذلك الفتى في الواقع، وتأوي إليه في تهاويم الخيال، ولماذا أصبحت تَعَارُ عليه وهي لا تملكه. تذكرت الحزن الذي استبد بها أياما، حين سمعت أمَّهُ تهمس لِتَرْبِهِ فَالَ بِحديث فهمت منه أنها ستخطب له إحدى بنات الحي، ارتبكت ذلك اليوم لدرجة أنها أراقت كل لبنها خطأ، وتعثرت في خطوها فأكفأت قِدْرَ الطعام.

أمضت ثلاثة أيام منطوية على نفسها الكئيبة، ترى من تكون سعيدة اللحظة التي خطبتها أُمُّ لَمْرُورَ ح، استعرضت بنات الحي واحدةً واحدةً، أيهن تستحق ذلك الشَّاب الفقيه الفارس الوسيم، أي بنات الحي يمكنها أن تستبد بقلبه دونها! أخيرا استقر رأيها على إحدى بنات أَحْمَدُونَا إمام المسجد، رَيْبَعَه صديقتها الحميمة، والله هل ستفوز تلك البنت الخجولة في مسابقة اختيار خطيبة لَمْرُورَ ح.

شعرت بالغيرة تجتاحها حَدَّ تَقْصِدِ جبينها عرقاً، تخيلت لَمْرُورَ ح جالسا أمام خيمته بوجهه الصبوح، وأنفه الأفتى الطويل، وشعره المنسدل على كتفيه كَلْبِدَةَ أسد، وتخيلت رَيْبَعَه بنت أَحْمَدُونَا متربعةً

في أحضان الخيمة، كأنها أميرة على منصة احتفال بذكري زفافها لولي عهد. تخيلتها تفرك أثر أصباغ النيلة عن ذراعيها الناعمين، وأساور الذهب تلتمع على بياضهما كأنها القناديل المعلقة، لفرط حزنها وخوفها من فوات لمروّح قررت أن تسأل تَرْبَه فَالَ عن حقيقة القصة، التي توهمت أنها سمعت المرأة تهمس بها، ولكن كيف ذلك؟

إنها تكتم مشاعرها تجاهه حتى عن صديقاتها اللواتي يتحدثن عن حبه لها، فكيف ستَجْرُؤُ على سؤال أمها المرأة العاقلة، إنها تخشى أن يوصلها حدسها الدقيق إلى معرفة ما يضطرم بين جوانحها من حبه.

قَصّت أسبوعا وهي تقدم رجلا وتؤخر أخرى، تجلس وحدها وترتب الكلمات التي تستأنف بها الحديث مع أمها، ولكنها ما إن تجلس إلى جنبها حتى يتلبسها الخجل فتفتح موضوعا آخر.

أخيرا صدق ظن البنت في حدس أمها، فاكتشفت تَرْبَه فَالَ بذكائها أن لدى بنتها ما تريد قوله وتخجل منه، كما فطنت لانطوائها طيلة تلك الأيام، وأن لديها أمرا ما يعتلج في جوانحها.

استعادت لحظة خجلها الممزوج بالدهشة عندما أخبرتها ذات ضحى وهي تغالب البسمة أن أمَّ لمروّح كَلَمَتْها في أمر مهم، تورّد خذاها النضران، ولمعت في عينيها بارقة لم تخف على المرأة المجربة، ولكنها قابلت كل ذلك ببسمة مبهمّة، زادت تلك البسمة حيرتها.

ما أقسى الشك في عالم الحب، إنها الآن لا تدري أتفرح أم تحزن، لقد أشعلت تَرْبَه فَالَ فتيل قلبها بذلك الخبر المبهم، وبذلك البسمة الغامضة، تارة يسمو بها الخيال، فتتصور أن ما ظنته خطبة لأخرى في كلام المرأتين هو خطبتها هي، فتسرح في عالم فردوسيّ ناعم، لا يلبث أن تجتاحه ريح الشك العاصفة فتلقي بها في قاع جحيم من العذاب

الذهني الأليم.

بسمة أمها المبهمة جعلتها أكثر حياء من ذي قبل، فقررت إلغاء فكرة سؤالها عما كانت تهمس به إليها أم لمروّح، وأمها لن تقص عليها مضمون ذلك الخبر المبهم، لأنها لا تريد لبنتها الصغيرة أن تعتاد أحاديث الرجال والزواج، محافظّةً على فطرة البراءة في نفس غزاها الصغير، ثم إن ذهنها منذ فترة تسيطر عليه أخبار اختفاء زوجها والد العالِيه.

قطع شريط الذكريات في ذهنها الصغير نداء تَرْبَه فَالَ باسمها، التفتت إليها بوجه مذعور ظنا منها أنها كانت تتجسس على خواطرها، أمرتها بتغيير مكانها، والجلوس في الطرف الآخر من ظل الخيمة حتى لا تضربها الشمس.

هرعت إحدى الإماء إلى القدح الخشبي المملوء مخيضاً وحملته إلى حيث ستجلس العالِيه، التي وقفت برشاقة، وسارت نحو الجانب الشمالي الشرقي من الخيمة.

الفصل الخامس

في منتهى الممر الواسع الذي صنعه العبيد لمرور القافلة التي تأجلت قبل حوالي شهر كان امهّادي ولمرابط ولد أهل اتلاميذ يسيران بتؤدة صامتين، تاركين الوادي خلفهما يعج بالغضب والتهديد، وتفوح في أرجائه روائح الوشايات وحكايات الأخذ بالثأر، فمنذ العثور على سلاح خَطْرِي وفرسه الميتة والناس في أمر مريع.

لقد أفسدت تلك الأخبار سكينه ذلك الحي، وخلطت الأوراق، وشرطته إلى فريقين متقاطعين بل إنهما كادا يقتتلان، لولا الحضور المبكر لِمَرَابِطِ اتلاميذ الذي يحظى باحترام كبير لدى الجميع.

وإضافة إلى مكانته العلمية، فإنه صديق طفولة لامهّادي، ثم إن محافظته على علاقته بالجميع بطريقة إيجابية؛ جعلته حكماً مقبولاً، يُلجأ إليه في النزاعات التي تقع في ذلك الحي، الذي لا يحسم فيه نزاع إلا نَجْمَ قرنٍ آخرٍ أشد منه.

هدأت الأمور نسبياً في أرجاء الحي بعد قدوم لِمَرَابِطِ، الذي بادر عند مجيئه بلقاء سلماتي أخي خَطْرِي، وأحواله الذي كانوا على أهبة مباحثة امهّادي، والاعتداء الجسدي عليه، بل إن أحدهم هدد بقتله،

طلب منهم لِمُرَابِطٍ أن يمنحوه أسبوعاً ليتحقق من الأمر، ويكشف ملابسات القضية حتى يعرف الضالع فيها على وجه اليقين.

أصابع الاتهام تمتدّ منذ أوّل وهلة نحو امهّادِي، وفي الحقيقة لم يكن لدى أي أحد في الحيّ خيط مادّي لذلك الاتهام، سوى تاريخ الصراع المحتدم بين الرجلين، صحيح أن هناك كثيراً من الشائعات وأنصاف وأرباع الحقائق التي لاكتها الألسن همسا وجهرا، كما أن انقطاع خبر خَطْرِي صنع قصة تبدو متماسكة، لكن ما إن يحاول المدقق الاقتراب منها حتى تتلاشى كأنهار السراب.

أربعة أشخاص فقط في ذلك الحي جعلتهم الأقدار مُسْتَوْدَعَ الخيط الأبرز في القضية؛ تَرْبَه فَالٌ زوجة خَطْرِي وبتتها العالِيه وإمام المسجد أَحْمَدُونَا والعبد امبِيرِيك. وحدهم من يعرفون على وجه اليقين أن خَطْرِي اختفى بعد أن كان قاب قوسين من دخول الوادي في ذلك المساء الغريب، لكن أي واحد منهم لا يريد أن يقول ذلك، ولكل منهم سببه في الكتان.

امبِيرِيك يخاف أن يتحول إلى كبش فداء في قضية لا تعنيه، خاصة أن أمثاله من أبناء الطبقات الدنيا كثيرا ما قُدُّمُوا قرايين في قضايا مماثلة، ثم إن سيده تَرْبَه فَالٌ استكتمته بنبرة التهديد، لما أخبرها عن لقائه بزوجها مع ذلك الزنجي طويل القامة، كما استكتمت بتتها العالِيه بنفس النبرة. تَرْبَه فَالٌ امرأة ذكية وماكرة، فرغم أنها عرفت ما وراء اختفاء زوجها من أول يوم إلا أنها لاتزال عازفة عن كشف أي ملابسات أو خيوط تربط أخواها بالقضية، هي في الحقيقة مُقَسِّمَةٌ القلب محطمة، بين خيارين أحلاهما مر، الصراع ناشب بين أخيها وزوجها، ولا بد أن تنحاز يوما ما إلى أحدهما، ولكنها قبل أن يأتي اليوم الذي سيلزمها فيه

حسم الموقف قررت الصمت.

أما أحمدونا إمام المسجد فإنه قرر الصمت منذ بدت تلمع داخل
خيوط القصة إشارات توحى بدور الفرنسيين. إنه مصاب بمرض
نفسي جعله يصاب بالدُّوَار، وأحيانا تنهكه الحُمَّى أسبوعا كلَّما سمع
أمرا يتعلق بالنصارى وأعوانهم. يعود أمر خوفه المرضى من النصارى
إلى قصة موجعة، حدثت له قبل عشر سنين، كان حينها رجلا يربو على
الأربعين بأقل من عدد أصابع اليد الواحدة، قوي البنية جريء القلب،
يملك قطعانا كثيرة من البقر والغنم، ورثها عن والده الذي لم يكن له
سواه. حفظ القرآن في سنينه العشر الأولى، وبدت مخايل القيادة تبرز في
فعلاته الكبيرة ومواقفه النبيلة. كان زوجا لإحدى بنات شيخ القبيلة
السابق، وقد أنجبت له عدة بنات وابنا واحدا يرفل في ربيع العاشر.

لما طلب النصارى من شيخ القبيلة أن يعطيهم ثلاثة أطفال من أبنائه
وأبناء الأعيان، ليرسلوا اثنين منهم إلى مدرسة تَبْدَعَه، بينما سيرسلون
أذكاهم إلى مدرسة أبناء الشيوخ والمترجمين في سِينلُوي بالسنغال، كان
الطلب ثقيلًا. لذلك ما إن سمع الناس الخبر حتى أخفوا أبناءهم في
الكهوف والغابات البعيدة، فقد كان تسليم الابن لمدارس النصارى
- كما يسمونها - خيانة للدين وثلمة عار في المجتمع لا تغسلها السنين،
كما أن المجتمع اعتاد أن يعطيهم أبناء العبيد والصناع واللحمة فداء
لأبنائه.

جاء شيخ أهل بُوَطْرُومَه حينها بثلاثة أطفال من أبناء العبيد
والصناع، وسلّمهم للحاكم الفرنسي على أنهم أبنائه وأبناء إخوته
وأخواته، لكن الحاكم كان ذا فِراسَة في القافة فعرف عن طريق ملاحظتهم
أنهم ليسوا من عائلة الزعيم.

غضب النصراني وهدده إن لم يأتيه بأبناء من العائلة ليفعلنّ به الأفاعيل، بل إنه أمر أعرانه بجلده عشرين سوطا عقوبة على التحايل، ولكنه أوصاهم بأن يجلدوه بعيدا عن أعين الناس.

لم يعد أمام الشيخ سوى أن يفعل ما أمره به الحاكم الفرنسي، فقرر تسليم أطفال من أبناء الحي، اثنين من أبنائه والثالث كان الابن الوحيد لأحمدونا، وقع الخبر كالصاعقة على أمّ الطفل وأبيه، فقرر أن يخفيه لكن اثنين من أعران الحاكم الفرنسي كانا قد حضرا التسلم الأطفال، ولم تعد هناك فرصة للهرب.

ركب أحمدونا غضبه، ودخل على الشيخ في خيمته، ومعه الرجلان الزنيجان المبعوثان من الحاكم الفرنسي، وبين أيديهما الأطفال الثلاثة، ومن بينهم ابنه الوحيد الذي تقرر بموجب المقابلة الشخصية أن يتبعث إلى سينلوي لالتحاق بمدرسة الشيوخ والأعيان.

دخل كسبغ يهاجم فريسة، وأمسك بيد ابنه، ولما حاول أحد المبعوثين أن يعترضه صفعه فخرّ على الأرض، وشلال من الدم يتعب من منخريه، ما جعل المبعوث الآخر يهاب التعرض له.

أخذ أحمدونا ابنه وركب فرسه ويمم وجهه شطر الجنوب، هائما يبحث عن أرض تنجي ابنه من الذهاب إلى سينلوي، علم الحاكم الفرنسي بالحادثة فوبخ مبعوثيه على انهزامهما أمام رجل أعزل، وبعث في طلب أحمدونا الذي تعاون الشيخ سرا مع النصاري على البحث عنه. وبعد أسبوع أمسكوا بهما محبّبتين في كهف على ظهر هضبة «تنگاره»، انعددت في تامشكط محكمة عسكرية صورية لم يحضرها إلا الادعاء، ورجل من أقارب أحمدونا يسكن قرب تامشكط، أرغم على أن يكون محاميا عنه.

صدر الحكم بجلده خمسمائة سوط متفاوتة، ومنعه من الطعام، وربطه أسبوعين تحت شجرة في وسط الحي الذي ارتكب فيه ما سمّوه «إهانة سيادة الجمهورية الفرنسية والاعتداء الجسدي على عون أثناء أداء مهمته، والامتناع من تنفيذ أوامر الإدارة».

جاءوا به عند الضحى مربوط الرجلين مُجْرَه فرس، كانت تركض متعبة، بينما كان جسمه العاري يتدحرج خلفها في حركات غير منتظمة، وآثار كدمات جذوع الأشجار وناتئ الصخور تقطر دما من جسده كله، وشعر رأسه الكثيف مُلَبَّدٌ بالدم والجراح. حَلَّ الأعوان رباطه من الفرس، ثم ربطوا يديه بعد جعلها تحت ركبتيه، شدوا الوثاق حتى لامست ركبته لحيته المضرجة دما وترابا، ثم ربطوه مُكَوِّمًا إلى جذع شجرة طلح كبيرة وسط الحي.

كان الحاكم الفرنسي يريد أن يجعل منه عبرةً لأهل المنطقة كلها، في مصير من يخالف أوامر الإدارة الفرنسية، أو يعتدي على أحد أعوانها، وإمعانا في إذلاله حضر بنفسه محاطا ببعض أعوانه من الرماة الزوج، واستدعى أهل الحي رجاله ونساءه، ثم أمر شيخ القبيلة أن يُنْفَذَ الجُلْدَ على ابن عمه.

لم يحضر أي أحد من الحي مسرح تنفيذ العقوبة، بل إن كل أهل الحي وضعوا ستور خيامهم على الأرض، ووضعوا الكتان والأصابع في آذانهم حتى لا يسمعون لدغ الشياطين التي يلهب بها الشيخ جسد ابن عمه، كان المشهد أقسى من الفُرْجَةِ.

صبر أحمَدُونَا طويلا رغم قسوة الموقف وألم الضرب، ثم انهارت تحت لسعات السوط الجلدي المفتول، أَسْقَطَتْ في ذلك اليوم عدة نساء حملهنّ، وبكى الرجال بصوت مرتفع، عندما سمعوا صراخ أحمَدُونَا،

الذي كان مضرب المثل في الصبر والمروءة، بل إن زوجته جُنَّتْ وخرجت عارية تصرخ وتسب أباهما ببذء القول، عاد لها عقلها بعد رحلة طويلة من الرقية والعلاج النفسي.

طلب الشيخ من الحاكم الفرنسي أن يخفف العقوبة عن أَحْمَدُونَا فرفض بشدة، لكنه قَبِلَ أخيراً أن يقضي بقية محكوميته في سجن الدائرة الفرنسية بتَامَشِكْطُ، رجع أَحْمَدُونَا بعد أسبوعين كالخارج من قبره بعد سنين، لقد أنهكه ذانك الأسبوعان اللذان قضاهما في تَامَشِكْطُ على مائدة الشمس والجوع والضرب.

لكن ما هَدَّ كِيَانَهُ النفسي هو ألم ضرب ابن عمه شيخ القبيلة له بيده، خرج بمرض نفسي لازمه حتى اليوم، ولولا قرآنه الذي ظل يلهج به لَجُنَّ جنونا مطبقاً، خضع لعلاج نفسي، ونظام غذائي استعاد معه عافيته، ولكن عقدة الخوف من الفرنسيين ظلت ملازمة له. أصبح رجلاً بشخصيتين، فهو رجل يسري القرآن في عروقه لدرجة أنه ينتبه لأخطاء طلابه وهو نائم، رخيم الصوت خاصة حينما يقف في هزيع الليل ثانياً صُلْبُهُ بمثاني القرآن، يستيقظ الحي كله لجمال تراتيله وهي تنساب معطرة نسائم الليل، منفق معطاء وصاحب رأي حصيف. كل ذلك مع فراسة لا تخطئ في تقفي آثار الإنسان والحيوان والجماد. لكنه يصاب بما يشبه الصرع كلما سمع أمراً يتعلق بالفرنسيين، لذلك فقد لاحظ أهل الحي تَغَيَّرَ مزاجه وطول صمته لما بدأت الشائعات تتحدث عن حاكم تَامَشِكْطُ، واحتمال أن تكون له علاقة باختفاء خَطْرِي.

لقد كان الكل يعرف أن امهَادِي وخَطْرِي ليسا على قلب رجل واحد، ولكن لم يكن أحد يتوقع أن يصل الأمر بينهما إلى هذا الحد، فتاريخ المنافسة الشرسة بين العائلتين على سيادة القبيلة وصل إلى أعلى

درجات التوتر، لكن لم تسكب فيه قطرة دم. ظلَّ الرجلان الأكثر دهاء في ذلك الحيّ يسيران صامتين، وكأتهما خرجا للتوّ من خيمة عزاء، يصخب رأس كل واحد منهما بأسئلة وأفكار لا متناهية، كلاهما غارق في عالمه الخاص ذاهل عن صاحبه الذي يلامس منكبُه منكبَه.

كان لِمَرَابِطُ مشغولاً بأمر الفتنة المطلّة على الحي، بسبب قضية اختفاء حَطْرِي، تجربته الطويلة كَعَالِمٍ وَقَاضٍ عُرْفِيٍّ في المنطقة، جعلته يعرف مآلات هذا النوع من النزاعات، فقد رأى لَوْنَ الدَمِ والقطيعه بادياً على الوجوه، ومعرفته بطباع المجتمع الذي يعيش فيه تجعله يتوقع خبر عملية قتل أو جَرْحٍ كُلِّ حِينٍ. كان يرتب في ذهنه الأسئلة والأجوبة، ويختار المدخل الأنسب لكسر جدار الصّمت الذي طال وقته بينه وبين رفيقه الذي يعرف دهاءه وعناده وقدرته على المراوغة.

لكن امهّادي في الحقيقة كان يشغل باله أمر آخر، فرغم أنه يعرف أن لِمَرَابِطُ يود الحديث معه في قضية أزمة اختفاء حَطْرِي، إلا أن أمرًا تأخر رحيل الحي إلى مكان «الحَصْرَه» كان أكثر شغلا لباله، فتأخرهم يحطّ من مكانته لدى ذلك الفرنسي العنيد. خصوصا أنه تسلّم منذ شهرين فقط منصب «الدّلّكّه»، وعليه مسؤولية الإشراف على حضور شيوخ كل القبائل ومن يتبعهم من العامة. فماذا لو فشل هو نفسه في إحضار مجموعته الصغيرة، إن ذلك سيكون إعلان نهاية لمشواره السياسي، الذي يبدو أمامه مبشرا بمستقبل زاهر لدى حاكم تَامَشِكُطْ، خصوصا أنه أخلف موعدهم السابق بسبب تطورات قضية حَطْرِي، التي أجلت الرحلة بعد أن تحرك موكبها خارجا من الوادي.

لقد مضى لحد الساعة نصف شهر من «الحَصْرَه»، ذلك الاجتماع الحاشد الذي يرصده الفرنسيون سنويا لمتابعة جباية الضرائب

والإتاوات على الناس والدواب في تلك المنطقة، يستمر عادة مدة شهر كامل، يعلن الفرنسيون في نهايته تاريخ «الحَصْرَه» القادمة، ولكنهم كثيرا ما لا يلتزمون بذلك التاريخ، أما مكائها فيبلغونه في وقته عن طريق شيوخ القبائل.

يبدأ شيوخ البطون والقبائل في حشد من يتبعهم، يجمعون من عندهم الإتاوات التي يضرها النصارى على كل ذي أذن إنسانا أو دابة، يقول الفرنسيون إنهم يأخذونها مقابل الحماية من الغارات والاقتيال والفوضى، يسميها الناس محليا بـ«العُشْر».

عند انتهاء الحشد يأتي أعوان الفرنسيين «كُومِيَات»، ويقومون بتعداد شامل للناس والدواب، ويقارنون بين المبلغ المدفوع والقيمة المقابلة في عملية حسابية دقيقة، بعد الفراغ من كل التفاصيل المتعلقة بالتعداد والدفع، تظل الناس مقيمة في منازلها تلك حتى يأتي الإداري الفرنسي، الذي يتأخر غالبا مدة أسبوع وأسبوعين، نظرا لكثافة برنامجها خلال فترة الحملة السنوية هذه.

أخيرا يأتي ليعطي تعليماته الجديدة التي غالبا ما تكون من فقرتين: إعلان الزيادات المستحدثة على الضرائب، والتي سيتم العمل بها في السنة القادمة، والتحذيرات المؤكدة من التمرد أو معاونة أعداء فرنسا أو التستر عليهم، ثم يعلن نهاية «الحَصْرَه» بالنسبة إلى هذا الحي أو تلك القبيلة، حينها يكون لها الحق في القفول إلى مضارها الأولى.

يحرص الشيوخ عادة على ترتيب البيت الداخلي لمجموعاتهم قبل الذهاب إلى مكان «الحَصْرَه»، فيسوّون النزاعات الداخلية، ويترضون المغاضيين، وأحيانا يدفعون عن بعض مانعي الضرائب، حرصا منهم على الظهور أمام الفرنسيين بأكبر قدر من الإجماع على زعامتهم لتلك

المجموعات.

وبما أن الفرنسيين حريصون على بقاء المجتمع في روح من الانسجام والرضى بحكمهم، ولخوفهم من نشوب صراعات داخلية قد تؤدي إلى خروج المنطقة عن السيطرة، فإن بنود شبكة تنقيط «الشيوخ» تركز أساساً على ذلك البعد، إضافة إلى التعاون الأمني مع الإدارة الفرنسية في التبليغ عن المتمردين من الأتباع أو من المحاربين الذين تلاحقهم الإدارة الفرنسية إذا مروا بالمنطقة.

وقد تمكن امهّادي من كسب ثقة الفرنسيين خلال أربع سنوات فقط، منذ تم تنصيبه شيخاً على مجموعة أهل بوطرومه، واستطاع بما قدمه من خدمات للإدارة الفرنسية أن يصبح «شيخ عامّة»، يحكم على بقية شيوخ بطون القبيلة الستة، بل أكثر من ذلك فإن الضباط الفرنسيين يجلسون حوله وكأهم حراسه وخدمه، لا يردون له شفاعة ولا يرفضون له طلباً.

تعزو الرواية الشعبية ذلك إلى خبرته بالطلاسم وأسرار الحروف، وأنه قهر أرواح الفرنسيين كما يقهر أرواح مرّدة الجن الذين يجلبون له ما يريده من حاجات في لمح البصر. لكن العارفين به يتهامون في ما بينهم برواية أخرى، وهي أن سرّ ثقة الفرنسيين فيه، ترجع إلى خدماته السخية لهم، منذ كان تاجراً يُدمنُ السفر بين مناطق حايّ وأفله وباسكنو، وأنه استطاع خلال رحلاته التجارية تلك أن يزود الفرنسيين بكثير من المعلومات الدقيقة عن مقاومين وناهبي قوافل، ومتمردين على الإدارة الفرنسية، وأن معلوماته تلك قادت إلى اعتقال كثير منهم.

بل يذهب هؤلاء إلى أن الفرنسيين زودوه ببندقية رصاص حي، وبعض القيود الحديدية، وأنه كان مخلولاً باعتقال المشتبه بهم والمطلوبين

كلما تمكن من ذلك. ويستدل هؤلاء على ذلك بأنه كان خلال أسفاره التجارية تلك، يسير وحده صحبة عبديه القويين النَّامِي وَاثْوَيْدِيمَه، اللذين يمثلان حارسين شخصيين له، ولا يقبل رفقة القوافل، رغم أن الطريق مخوفة وموحشة.

لكن الحقيقة أن امهَّادِي كان مزيجاً من ذلك، صاحب شخصية جامعة وغامضة، كريم حدَّ الإسراف، وداهية لا تخيب له خطة، وقد ملك قلوب أقاربه وجيرانه ومعارفه بما يغدق عليهم من عطايا، ثم هو أكبر مُحدِّمٍ للجنِّ في منطقة أفَلَه، يخلط بين الطلاس السواد والبيضاء في آن واحد، وهو إلى ذلك كله ميكافيلي النزعة، لاهث وراء طموحه ومصالحه بأي ثمن، ولو كان رأس أب أو أخ شقيق.

إنه رجل مثير غريب الأطوار، متديّن وابن كرام في تصنيف المجتمع، ومُخبرٌ برتبة ضابط في كشوف الدوائر الفرنسية، وذلك سرّ ثقة الفرنسيين فيه واعتمادهم عليه، فهو يحقق لهم نموذج رجل المهات الصعبة، الذي ينتسب لعمق المجتمع وثقافته، ويتفهم مطالب الإدارة الفرنسية، وينفّذ أوامرهما.

فَكَ لِمَرَابِطُ تكويرِ عمامته، وجعلها ثلاث طاقات، ووضعها على منكبه الأيمن، ثم جمع أكام فضفاضته، وأمسكها بيسراه من وراء ظهره، رافعا لهما فبدت ساقاه النحيفتان ونعله الجلدي البُنِّي، بينما كان امهَّادِي مرتديا لباس «شِيَاخَه» فضفاضتين إحدهما زرقاء والأخرى بيضاء، وعمامة بيضاء كبيرة، ونعلان عريضتان من جلود بقر الوحش الإفريقي ذو القرون المتعددة.

كان كل واحد منهما يغالب صبره طمعاً في أن يستأنف صاحبه الحديث، فحساسية الوضع، وأهمية المعلومة تجعل المجيب يربح أكثر

من السائل، لأنه لا أحد في هذه الحالة يريد أن يحدد الموضوع الذي يَشغُلُ بآله، لكأنها معركة أعصاب ذهنية بين رئيسين لأعتى أجهزة المخابرات الدولية.

يملك لمرباط القبلة التي سيفجئ بها امهادي حتى يستطيع معرفة الغائب من قصة اختفاء خَطْرِي، ولكنه أراد أن يُمهِّدَ له حتى يَسْبِرَ عَوْرَهُ، سَعَلَ ومسح المَحَاطَ بطرف لثامه، كَفَنَانِ رِيفِيٍّ يُمَهِّدُ حبال حنجرته للإنشاد، ثم نطق اسم امهادي وكأنه يُنبِهُهُ، التفت إليه امهادي في برودة مصطنعة قائلاً:

- ذاك اسمي، يا عالِمَنَا.

- أنت شيخ هذه القبيلة، وأنا وأنت أصدقاء طفولة، وخطري زوج أختك، والأمر وصل إلى ما ترى، وقد تركت طلاب المحظرة دون شيخ يدرسه خوفاً من وقوع كارثة في هذا الحي، فأعني على حل هذه المشكلة.

كان امهادي ينصت بإمعان، وذهنه الذكي يُقَلِّبُ في لحظة عشرات الأجوبة، وينتقي من بينها ما يراه مناسباً، ويقمع كل خواطر الغضب والتوتر، حتى يحافظ على هدوئه، قال بمكر ظاهر مُتَحَاشِياً الوقوع في فخ الحديث عن موضوع غير محدد:

- لم أفهم، قل ما تريده بصراحة يا عالِمَنَا

عرف لِمَرَابِطُ أن امهادي لم يقع في فخه الأول، فقرر أن يرفع سقف الحديث:

- الأخبار المتداولة تقول إنك وراء اختفاء خَطْرِي، والناس في وادي الحطب تتداول كثيراً من الملابس، ليس ضرورياً - بالنسبة إليّ - سردها لك.

ظن امهّادي أن مُحَدَّثَهُ ليست لديه معلومات خاصة تمكنه من إفحامه ما زاد معنوياته، فقال بثقة ظاهرة:

- تلك شائعات ينشرها خصومي عارية عن الحقيقة، يا امرأطي، أين ذهبت أنأتك في جمع الأخبار وتدقيق الروايات، كيف تصدّق وأنت العالم الورع كلام الخصم عن خصمه، ثم إني قررت الذهاب بنفسني إلى حاكم تَامَشِكْطُ، وإخباره بالقضية حتى يحقق فيها. قرر لمرباط أن يربك مزاج مُحَدَّثِهِ فلسعه بالخبر الصاعق:

- في طريقي إلى الوادي قادمًا من المحظرة التقيت رجلا كان مرافقا لَحَطْرِي في رحلة بحثه عن بقراته، قال إن خَطْرِي أخبره أنه سيقطع رحلته راجعا إلى الوادي بعد أن وصلتته رسالة منك تستعجله بالمجيء، لماذا استعجلته؟

وقف امهّادي فجأة كمن صعقه تيار كهربائي، وبدأ يكرر في توتر قوي، وصوته يمزج بين الغضب والتوسّل:

- أنا! أنا! أنا!

- نعم، أنت من استعجله للرجوع إلى الوادي، وقد اختفى بعد أن صار على مرمى حجر من الحيّ، وأحمدونًا والعبدُ الصّدوقُ امبيريّك التقيا به قبل الغروب، عند مدخل الوادي مع زنجي غريب طويل القامة، يركب جملا غريب الوسم، صفات الزنجي المذكور تقول إنه أمادو سيّلا، المعروف لدى العامة بـ«سانقو».

أدرك امهّادي أن صندوق سرّه موجود الآن عند لمرباط، لقد كان في ما فات يتجاهل ما يسمع من أخبار تتهمه بالضلوع في عملية اختفاء خَطْرِي، ويجب كل من سأله بأنها تلفيقات ينسجها خصومه، وأنها

محض خيال مريض، لأنه لا أحد يعرف السبب الذي جعل حَطْرِي يرجع من رحلة بحثه عن بقراته قبل الوقت المتوقع له بأسبوع، بل إن أَمْحُدُونَا وَاْمُبَيْرِيكُ وُحْدَهُمَا مِنْ يَقُولَانِ إِنَّمَا أَبْصَرَاهُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْوَادِي غُرُوبَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهِيَ رَوَايَةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّكْذِيبِ.

أما وقد حصل لِمَرْبِطُ عَلَى هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ، فَإِنَّهُ صَارَ فِي وَرْطَةٍ، وَقَدْ زَادَ مَخَافَهُ مَعْرِفَتَهُ بِهِ، فَهُوَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ النَّمْطِ الَّذِي يَتَّقَنَ فَنًّا اسْتِغْلَالَ الْمَعْلُومَةَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ، إِنَّهُ لَا يَكْشِفُ كُلَّ مَعْلُومَاتِهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، فَكُنَّ يَكُونُ حَصْلُ عَلَى تَفَاصِيلِ أَكْثَرِ، وَلَكِنَّهُ يَدْخُرُهَا لَوْ قَدْ آخَرَ، ثُمَّ إِنَّهُ يَمْتَلِكُ مَوْهَبَةَ خَارِقَةَ فِي جَمْعِ الْأَخْبَارِ جَلِيلَهَا وَحَقِيرَهَا، لِدَرَجَةِ أَنَّ أَهْلَ الْحَيِّ يَتَنَدَّرُونَ بِأَنَّهُ يَعْرِفُ كَمْ تَحْبِزُ كُلَّ أُسْرَةٍ مِنَ الدَّقِيقِ يَوْمِيَا.

بَدَأَ أَنْ اْمَهَادِي لَا يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا، ظَلَّ بِرَاعَةِ يَحُومِ حَوْلَ الْجَوَابِ دُونَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، مَوْحِيًا بِأَنَّ الْأَمْرَ فِي النِّهَايَةِ أَكْبَرَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعِيدَ اللَّبْنَ إِلَى الضَّرْعِ، وَمَلُوحًا بِالدُّورِ الَّذِي فِي طَوْقِ لِمَرْبِطُ أَنْ يَضْطَلَعَ بِهِ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ. أَشَارَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَزْمَاتِ الدَّاخِلِيَّةَ لَنْ تَضْعَفَ سُلْطَتَهُ وَمَكَانَتَهُ هُوَ عِنْدَ النَّصَارَى فَقَطْ، بَلْ سَتَحْطُ مِنْ قِيَمَةِ الْمَجْمُوعَةِ كُلِّهَا بَيْنَ نَظِيرَاتِهَا، وَأَنَّ مَا يَحْصُلُ الْآنَ فِي الْحَيِّ مِنَ التَّوْتَرِ هُوَ بِسَبَبِ رَجُلٍ أَوْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَبْنَاءِ عَائِلَةٍ وَاحِدَةٍ، أَمَا بَقِيَّةُ الْحَيِّ فِغَاضِبُونَ لِعُضْبِ ذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ فَقَطْ، وَحِينَ يَتَدَخَّلُ أَمْثَالُ لِمَرْبِطُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَكَانَةِ وَالْجَاهِ فَسَوْفَ تَعُودُ الْأُمُورُ إِلَى سَكِينَتِهَا. ثُمَّ رَمَّ شَفْتَيْهِ فِي تَهْدِيدِ نَاعِمٍ وَقَالَ:

- إِنْ حَاكَمَا فَرَنْسِيَا عَاقِبَ قَبِيلَةَ تَنْغَارِيمَ لَمَّا اقْتَتَلَتْ فِي مَا بَيْنَهُمَا، بِأَنَّ سَيِّبَهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَسَجَنَ رَجَالًا مِنْ بَيْنِهِمْ عَالِمَهُمُ الْمَشْهُورَ.

ثم استدرك كمن يحاول أن يضعف وقع الكلمات التي تَفَوَّهَ بها:
- لكنني أنا لن أقبل ذلك منه، ولو كَلَّفَنِي ذلك ذبحي من الرقبة.
فهم لمرباط مقاصد كلام امهّادي وما فيه من تهديد، واستنبط كل ما يدور في ذهنه رغم محاولته ألا يسقط منه خبر صريح، لكنه حافظ على اعتدال مزاجه، فلا يزال لديه أمل في أن يصرح له امهّادي بمزيد معلومات تساعد في إخماد نائرة الفتنة التي تلتهم في أعين الساكنة، قال محاولاً تهدئة روح الغضب التي اجتاحت امهّادي قبل لحظات:

- لا تذهب بعيداً، فالأمر لا يزال ممكن التلافي، لكنه في الحقيقة مرتبط بك، فأنت من بيديه الماء والزيت، وفي وسعه أن يطفئ اللهب أو يزيد ضرّامه. ثم إن خَطْرِي ليس خشبة مَقْدُودَةٍ من شجرة يابسة، إن له في كل أسرة من هذا الحي قرابة نسب أو بادرة معروف، فلا تحسبن الأمر مرتبطاً به وبأخيه فقط.

عاد الصمت إليهما برهة، وظلا يسيران بين ظلال الأشجار التي بدت واضحة طويلة تحت ضوء القمر المنفلت من بين شعاب تلك الجبال، لم يلفت جمال تلك الأشعة الفضية، والظلال الوارفة انتباههما، كانت غُلاةً من غموض المستقبل تحجب رويهما عن التفاعل مع مشهد الطبيعة الفاتن.

حينما أصبحا وسط قيعه جرداء خارج الوادي؛ جلسا على أطراف أصابعهما متقابلين، أخذ لِمَرَابِطُ عود بشام يابس، وخط به خطين متوازيين، ثم رفع بصره مُحَدِّقاً في امهّادي، تقابلت عيناهما الساجيتان المغممتان بالحيرة والارتياب المتبادل، قرأ كل واحد منهما في خطفة بصر ما يدور في خيلة الآخر، مستعينا بتاريخ صداقتها الممتد منذ الطفولة وقد تجاوزا الخمسين.

استأنف لمرباط الحديث مينا خطر الفرقة والشقاق على مستقبل الحي الذي تربط أهله أواصر قرابات متداخلة، وأن الساعي فيها سيخسر مكانته بين أهله، وعند الإدارة الفرنسية أيضا، التي لا تريد إلا من يحظى بإجماع شامل أو اتفاق أغلبي، لأنها تريد في هذه المرحلة تسيير المجتمع بهدوء، يجعلها تتفرغ لحيوب المقاومة التي بدأت تتفاقم في الأطراف الغربية لأفله.

أحس امهادي في نبرة لمرباط نوعا من التهديد، والتلويح بأن قضية خَطْرِي قد تؤدي إلى فقدانه منصب شيخ القبيلة، لكن ماذا سيفعله وليس بيده حيلة لتفادي ما يحدق به، وبالحي الذي يتأمر عليه. سعل محاولا إخراج ما تسرب إلى حلقه من قشور مسواك البشام الذي كان يلوكه، أخرج مندبلا من القطن ومسح به البصاق المتطاير على شفثيه ولحيته، كأن كلمات لمرباط أصابته بغصة. اضطرت بين جوانحه في آن واحد عاصفة من الخواطر المتناقضة، أحس بالحنق على ذلك الفرنسي الذي ورطه في أزمة قد يذهب منصبه وحتى حياته جراءها، خاصة أنه يحفظ كثيرا من قصص شيوخ القبائل الذين ورطهم الفرنسيون في قضايا مشابهة ثم تركوهم في نهاية المطاف منبوذين في مجتمعاتهم يلاحقهم عار العمل مع الفرنسيين لملاحقة أبناء عموماتهم.

اخترقه شعور آخر بالغيظ من خَطْرِي، الذي دفعه تهوره وطموحه إلى أن صنّفه الفرنسيون أحد أخطر ثلاثة رجال على وجودهم في أفله، بل في الحوضين ولعصابه جميعا، ورأى في نفسه أنه مدفوع في كل تحركاته بروح الصراع معه على قيادة فصيلهما القبلي، لم يرد أن ييوح بهذه المعلومات للمرباط، فهو يعرف أن أي معلومة يدلي بها عن خَطْرِي ستكون حجة عليه.

أعاد التأكيد على أنه لا يمتلك أي معلومة عنه، وأنه لا يعرف سر اختفائه، ولا الأمر الذي أصابه، واستطرد ملقيا اللوم على أهالي الحي، وعلى لِمَرَابِطُ شخصيا، معتبرا أن الجميع ضايقه منذ تنصيبه شيخا، ولم يمنحه من المكانة ما منحه بطون القبيلة الأخرى لزعمائها. وقال إن ذلك أَثَّرَ في موقعه عند الإدارة الفرنسية، التي تغيرت نظرتها له كثيرا بسبب ذلك، وستنحط مكانته أكثر بعد عجزه عن إحضار حيه لـ«الْحَصْرَه» في الوقت المناسب، بعدما ألغيت الرحلة الماضية بسبب تطورات أخبار خَطْرِي، وإن الحي إذا لم يصل منطقة «لِفْدَه» في غضون أسبوعين، فإن البعثة الإدارية المكلفة بجمع الضرائب سترجع إلى تَامَشِكُطْ بتقريرها العام، وسيعاقب الفرنسيون كل الغائبين شيوخا وعامة.

كان لِمَرَابِطُ يصدر صوتا مبهما مُمَطَّطًا إعرابا عن إنصاته، وفهمه لمرامي كلام أمهَادِي، الذي أحس كأن كلامه بدأ يقنعه، اقتحمت ذهنه الوقاد خاطرة سريعة، لماذا لا ينتهز الفرصة كي يقنع لمرابط بالرحيل إلى مكان «الْحَصْرَه»، وحينها سيتولى الفرنسيون إعلان موضوع «خَطْرِي» وملابساته، ثم سيحذرون أهله من أي احتجاج على اعتقاله، فيكون بذلك قد ضرب عدة عصافير بحجر واحد.

وضع يده على منكب لِمَرَابِطُ مواصلا حديثه بنبرة استعطافية ماكرة هذه المرة:

- يا عَالِمِنَا الجليل، عليك أن تسعى معي من أجل إقناع الحي بضرورة الرحيل نحو «لِفْدَه»، فكما تعرف فإن هذا شهر «الْحَصْرَه»، حينها سيمكننا الالتقاء مع مختلف قبائل المنطقة لتتصق من عندهم أخبار خَطْرِي، فلعلنا نجد من لقيه، أو نكشف خيطا يمكن تتبعه

لمعرفة قضيته، وحينها سيمكنني شخصيا الالتقاء بكَزَأْفِيَّه حاكم مركز تَامْشِكْطُ، والحديث معه في الموضوع، أما تبادل التهم والإقامة في وادي الحطب، فإننا لن نجني منها إلا التعرض لعقوبات القانون الفرنسي الخاص بالمستعمرات، الذي يجعل التخلف الجماعي عن دفع الضرائب بمثابة تمرد، يستحق أهله أقصى العقوبات بما فيها «التَّسْيِب».

أهاجت كلمة «التَّسْيِب» نوازع الحمية في نفس لمرباط، خاصة أن امهَادِي ينطقها للمرة الثانية، ثار الدم في عروقه، وامتقع وجهه وانتفشت كل شعرة في جسده، ف«التَّسْيِب» عقوبة لم يمارسها الفرنسيون في هذه المنطقة، وإنما كانوا يسمعون عنها ضمن الفظائع التي ارتكبتها الفرنسيون بداية عبورهم نحو الصحراء. لكنهم عرفوا منذ أول وهلة خطر الضغط القوي على هذا المجتمع الوداع نسبيا، وأنه لا شيء يثير حفيظته كانتهاك الأعراض، إذ يمكن أن يفجر ثورة أقسى من ثورة الجزائر، فلماذا يلوح امهَادِي بإمكانيتها هذه المرة!

استعرضت ذاكرته الحديدية كل ما سمعه من فظائع ترتكب تحت طائلة «التَّسْيِب»، تخيل رجال قومه يرسفون في القيود، ونساءهم يغتصبن باكيات على مرأى ومسمع منهم، وأطفال الحي يتضاغون فزعا محصورين تحت خيمة يجرسها جندي وضيع، والفرنسيون يستعرضون فتيات الحي كي يخترن من بينهن الأجل والأعرق حسباً ونسباً، إيغالا في تحطيم نفسية المعاقبين، والمواشي تساق وتوزع على أعوان الفرنسيين، والنار تلتهم الخيام في مشهد بالغ القسوة والمهانة.

نهض مُغْضَبَا، ثم كَوَّرَ عمامته، وضعها على رأسه الأصلع وأحكم وضع كُمِّي فضفاضته على منكبيه، ثم قال في نبرة قاسية هادئة

مسترسلة، وكان صاحبها يلقي خطاب الفراق الأبدي:

- امهّادي هل تنصت إلي؟!!

قال امهّادي بنبرة تحمل يأس المقبل على الموت:

- نعم!

- أراك ستدفع بنفسك وببني عمومتك إلى ما لا تحمد عقباه، اسمع يا امهّادي، أنا كما تعلم هو من وقف خلف تنصيبك شيخاً على هذه المجموعة، ورغم أنني أعرفك منذ الصِّبَا، وأعرف حبك للاستثمار، ونفسك التي لا ترى غيرها، ولا تعبأ بالآخرين في سبيل تحقيق هواها ورغباتها، إلا أنني كنت أظن أن الأيام علّمتك، وأن التجربة محصّتك، ولكن يبدو أنك لا تزال كما أنت، لم يتغير من شخصيتك شيء سوى أنك أصبحت عبداً للنصارى، بعثهم دينك، واليوم تريد أن تبعهم أهلّك، لكن لتعلم أنك لن تصل إلى بُغيتك في خطري، ولا في هذا الحي، الذي أصبحت مستعداً لهتك أعراضه، ونهب أمواله من أجل بقائك في منصب أخذته بالخداع والكذب.

ظل امهّادي مطرقاً طيلة كلام لمرابط، بدا كطفل ينصت لحديث أبٍ تجتاحه ثورة غضب، قرر في تلك اللحظات أن يقول شيئاً يتلافى به الموقف الذي انزلق كصخرة يدفعها السيل من قنّة جبل، لا أمل في إيقافها قبل أن تصل إلى مستقر السفح، لكن لمرابط لم ينتظره لحظة واحدة:

- هل رأيت هذين الخطّين المتوازيين اللذين خططتهما بهذا العود.

هز امهّادي رأسه: أن نعم.

- هذا خط خَطْرِي وقضِيَّتِه، والحي واحترامه، وعلاقتنا، وهذا الثاني خط المفاصلة بيني وبينك، فاختر لنفسك واحدا منهما. أنهى كلامه، ثم انحرف جهة الحي تاركاً امْهَادِي مشبكا أصابع يديه في حيرة.

الفصل السادس

الآن أصبحت جبال «أَكْرَيْسِلْ» في مرمى الناظر، ليست هي الأرض الموعودة التي خرجا إليها يبحثان عن السر المحير، أو على الأصح عن تلميح كلمة السر، هي في الحقيقة نصف المسافة بين وادي الخطب و«تَامُورْتْ لِكُورْ»؛ الوجهة المقصودة.

تظهر ملامح وجه سَلْمَاتِي الشاحبة كثيرا من الحزن والإرهاق، «كَلْبُ الْعَيْشِ» و«كَلْبُ الْعَبْدِ»، وسلسلة الجبال الصغيرة المتناثرة في ذلك السهل المنبسط، تحجبها غُلاَلَةٌ خفيفة من انعكاس لون السماء الشهباء على تلك الأرض، التي تكون في أشهر الصيف على درجة عالية من الجذب والحرارة، مع ما تزهبه في فصل الخريف الماطر من خضرة وجمال يحولانها إلى جنة أرضية، لكأن الله يضرب بها في تعاقب الفصلين مثلا فصيحاً لجنته وناره.

يشعر سَلْمَاتِي بالحياد لأول مرة، تجاه تلك الربوع التي أودع كل شجرة وصخرة فيها ذكريات تستحق الإشادة، أو على الأقل التذكار، لكن الأسى الذي يجيم عليه منذ فترة أفقده الرغبة في تذوق الحياة. خريطة مشاعره بلا ملامح الآن، مثل تطريز وسادة جلدية بَلَلَهَا المطر،

إن نفسه بلون واحد هو اللون الأحمر الحزين، موضوع أخيه خَطْرِي يستبد بتفكيره كله، ولا يسمح للفرح أن يتسلل ولو خلسة إلى روحه المجهدة.

لاحظ امْبَيْرِيك شرود سيده الذي يرافقه، من خلال نظراته الزائغة، التي تلتمع بين الحين والآخر، وكأنها شاشة عرض تنعكس عليها الخواطر المتناقضة التي تتقاذف بين جوانحه. طوال الرحلة وسَلَمَاتِي لا يمازحه، ولا يترنم بالأشعار، شيء يدعو للاستغراب حقاً، فسَلَمَاتِي لا يشتهر بشيء شهرته بحلاوة المعشر، وبشاشة الوجه، والقدرة على استلال النكتة المبهجة من عجيب التباريح.

ذلك الرجل الضحوك جَفَّتْ في قسامته نداوة البهجة، لكأن نفسه الأريحية اجتثت وزرعت مكانها نفس عابس قمطير، منذ أن اختفى أخوه خَطْرِي في ظروف غامضة، أصبحت البسمة تنفلت بصعوبة من خلال تجاعيده، وكأنها عبء ثقيل يجهد طاقته، رغم سعيه الدائب لإخفاء الهم، ففلسفته الخاصة ترى أن صَدَرَ الرجل أوسع من أن تضيِّقه الأحداث.

زوجته لِعِنَاذْ لم تلاحظ شيئاً من الهم الجاثم عليه، سوى أنه أصبح قليل الترنم بأشعار غِيلَانَ مِيَّةَ وَحُمَيْدِ بْنِ ثَوْرِ الْهَلَالِي، اللذين يحفظ ديوانيهما حفظه لكتاب الله، سألته مرة عن ذلك فأعطاهما إجابة مواربة:

- يكفيني من الترنم مطالعة وجنتيك.

أرضهاها الجواب الذي أراده هو دثاراً يحجب عنها الهم الذي يساوره. تتلبسه الحيرة القاتلة، خبرته بالصراعات الكيدية بين رجال المنطقة، وخصوصاً بين الشيوخ ومنافسيهم تجعله يوقن بضلوع امهَادِي، وعدم حصوله على دليل مادي تمسكه اليد، يجعله يحجم عن

إلقاء التهم جزافا.

لم يفظن للهم الذي يطوي عليه سَلْمَاتِي جوانحه سوى امْبِيرِيك وحده، فرغم أن خَطْرِي أخاه الوحيد الشقيق، ورغم أن مسؤولية امْهَادِي عما حدث أصبحت شبه مؤكدة، إلا أنه لم ينبس بكلمة يمكن أن يفهم منها أي شيء. لقد ظل يغالب غضبه وحزنه، ويتابع قضية أخيه مع أقاربه دون أن يكون له مزيد غضب، ما جعل مجالس الحي تتهامس بضعفه، وخوفه من امْهَادِي، وعدم اهتمامه بمصير أخيه الشاب النابه، الذي تكتنف قضيته ملابسات مثيرة.

لكن امْبِيرِيك بفظنته الحادة لم يخف عليه من أول يوم تَغْيِير مزاج سَلْمَاتِي، ولا الهم الذي يراكمه يوما بعد يوم في صدره الواسع الرحيب، حتى امْهَادِي لم يستطع معرفة حقيقة موقف سلماتي من اختفاء أخيه. هدوؤه المشهود جعله لا يستطيع الجزم بشيء عنه، أحيانا تركز نفسه إلى ظاهر تصرفاته الباردة المحايدة، فيمنحه ذلك مزيدا الثقة والاطمئنان على مصير منصبه، وزعامته لهذا الحي، ما دامت عصبه خَطْرِي لا تقف موقفا موحدا من قضية اختفائه، ويسعده أكثر أن رجلا في وزن سَلْمَاتِي لا يعبأ بالامر كثيرا.

ثم لا يلبث أن تجتاحه عواصف الشك والريبة فيرى وراء ذلك عالما مجهولا، لا يدري ما الذي يجتبه صمت سَلْمَاتِي من بوائق لا يمكن التكهّن بطبيعتها، ويرجح ذلك عنده أن سَلْمَاتِي ليس ذلك الرجل الخائر الجبان. بل إن تاريخ حضوره المشرف في كل المناسبات التي تمر بها القبيلة سلما أو حربا جعله أحد أعيان الحي الذين لا يمكن تجاوزهم في أي أمر، ولا يستطيع أحد حسم أي قضية في ذلك الحي دون موافقتهم أو تحييدهم بما يرضي على الأقل، لكنه مع ذلك رجل

منصرف في الحالات العادية إلى شؤون أهله ومواشيهِ مع عشقه الجنوني للتَّيْدِينِيتْ ومعرفته الأسطورية بها.

تقررت رحلتها هذه بعد الاجتماع الأخير الذي دعا إليه امهَّادِي لمناقشة موضوع اختفاء «خَطْرِي»، والذي قضى بأن يذهب سَلْمَاتِي إلى «تَامُورْتْ لِكُورْ» فقد تأكد أن خَطْرِي وصلها، وتقصى أخباره من هناك، وجمع كل المعلومات المتوفرة. سلكا طريقا متعرجا جدا، فقد كانا حريصين على المرور إزاء مختلف التجمعات السكنية المتناثرة بشكل فوضوي بين وادي الحطب وكَرْيَسْلْ، وخصوصا هضبة «جَهْلَبَه»، التي كانت سفوحها الشرقية مكتظة بالأحياء من مختلف قبائل المنطقة.

مر يوم وليلة من السير المتواصل دون تَوَقُّفٍ ذي بال، إلا ما كان من توقفها لصلاة المغرب عند حي أهل النَّاْگُورَه، حيث التقى سَلْمَاتِي بأحد رجالهم، وتحدثا همسا لبعض الوقت، كل الأحياء الأخرى كانا يمران إزاءها، ويتحدث سَلْمَاتِي مع من يلتقي به من رجالها في شأن خَطْرِي، لكنه لا ينزل عن جملة بل يتحدث إلى من لقيه عابرا فقط.

بينما كانا ينزلمان من مضيق «الدِّيْگْدِيْگْ» وجملاهما يغالبان تسارع خطو الانحدار نحو السفح، حيث تغوص أخفافهما في الرمل المتسلق مع ترقوة الجبل مثيرة بعض الغبار الخفيف، تنهد سَلْمَاتِي ثم نفخ شديقه، وزم شفثيه تاركا الهواء يتسرب من بينهما، وكأنه يخفف عن نفسه ما جثم عليها من هموم. تتخاطف الخواطر في ذهنه كما تتخاطف البروق في ليلة ظلام ماطرة، ما أشعل الهم في نفسه تلك اللحظة هو استرجاعه الذهني لما أخبره به الرجل الذي لقيه في حي أهل النَّاْگُورَه ليلة أمس، استقرت في نفسه قناعة أن أمر خَطْرِي هو بين امهَّادِي والنصارى.

بدأ يتفوه بكلمات كأنها ندت عن ذهنه، أو هي تفكير بصوت مرتفع:

- يخطر ببالي أن الحي سيرحل بعدنا باتجاه «لِفْدَه»، أمهَادِي لا يستطيع أن يتأخر عن موعد «الحَصْرَه»، أظنه ضالعا في موضوع اختفاء أخي، لماذا كل هذه المجاملة لامهَادِي، وهو يتمنى لو اختفيت أنا وأخي إلى الأبد.

تنهد مرة أخرى تنهيدة طويلة، ثم هز رأسه وقال:

- الآن فهمت ما قاله لي أحد رجال أهل النَّاْغُورَه الذين صلينا معهم المغرب أمس، لقد ترددت أول الأمر في تصديقه، لكنني الآن أصبحت مؤمنا بما قاله لي إيمان العجائز والفلاسفة والموحدين.

أخبره الرجل أمس، أن زنجيا طويلا من أعوان النصارى بات عندهم، قبل ليلة واحدة من ليلة اختفاء خَطْرِي، وعرفوا منه أنه متجه نحو وادي الخطب، كما سأل عن خَطْرِي هل ما يزال معارضا للنصارى. ربط بين هذه المعلومة وبين ملاحظة سَدُومَ ولد النُّكْرَائِي، التي قالها في الاجتماع الأخير، وهي أن الجبال التي ربطت بها فرس خَطْرِي ممَّا يستورده النصارى وحدهم.

هز رأسه مخرجا صوتا مطاطا، يشبه أنينه حينما يلتذ بسماع نغمة عود أسرة، ثم قال:

- إن فكرة الذهاب إلى «تَامُورْت لِكُورَ» هي فح آخر نصبه أمهَادِي كي يرحل بالحي نحو «الحَصْرَه»، والله لن تنعم بعده بالحياة يا عَبْدَ الكفار.

تظاهر امبَرِيك بعدم الاكتراث لما يقوله سَلْمَاتِي، مع أن معرفته العميقة بالرجل جعلته يدرك أن الهموم المتراكمة فاقت طاقته، فأفاضت الكأس بهذه الطريقة الغريبة. أحس في نفسه بالشفقة عليه، فما كان لسَلْمَاتِي الرجل المعروف بالرزانة والكتمان أن يفيض بهذا السيل

من المعلومات والنيات الخطرة في قضية تكاد تعصف بمستقبل قبيلة كاملة، تمنى لو يستطيع أن يدلي له بما لديه من معلومات عن اختفاء حَظْرِي، وهي معلومات تؤكد كل الذي قاله قبل لحظات بطريقة يقينية. لكنه يخاف أن يكون كبش فداء، فهؤلاء البيض لا تؤمن بوائقهم، ثم إنهم لا يتورعون عن اقتحام المحرم خوف العار، يعللون ذلك بأن الله غفور رحيم وأن المجتمع لئيم لا يرحم.

حاول أن يشغله بموضوع آخر فسأله عن سبب تسمية هذه المنطقة بـ«كَرْيَسَل»، لكن سَلَمَاتِي لم يعلق على سؤاله بأي كلمة، وبدل أن أن يجيبه ناداه بصوت مرتفع، رغم أن جنبي جمليهما يحتكان بين الفينة والفينة، بدا في عينيه كما لو كان مجنوناً، أجابه على الفور:

- أمرك يا سيدي.

أخرج سلماتي حزمة صغيرة من القماش كان قد لفها على بعض الشقوق، حل عقدها ثم وضعها في يسراه، قبض أصابع يمينه ثم أخذ منها حصيات، واستنشقتها محدثاً صوتاً مطاطاً يشبه خروج الروح، اغرورقت عيناه وعطس ثلاثاً. لفّها من جديد ثم رمى بها في جيب فضفاضته، اخترقت ذهنه فكرة شريرة خاطفة، اطمأنت إليها نفسه كما لو أنه قلبّ النظر فيها مئات المرات.

قال مخاطباً امْبَرِيك بصرامة غير معهودة فيه:

- يجب أن نستريح قليلاً في أول كهف ظليل، عندها سأصلي الضحى وأستخير لأعرف هل سواصل باتجاه «تَامُورِتْ لِكُورْ» أم أننا سننقل راجعين إلى وادي الخطب، ثم إنني سأطلب منك مهمة خاصة.

كانت الشمس قد أصبحت في ارتفاع عمودي يجعل أشعتها لا

تحتمل، إنها شمس مايو التي لا ترحم، ورغم أنها يسيران جنوباً إلا أن وقع الشمس على خديهما كان مزعجاً، لحد أنها أصيبتا معا بالصداع. نزلا في بهو كهف واسع، منحتهما أرضيته الباردة الظليلة شعوراً بالاسترخاء، ما جعل سَلْمَاتِي يأخذ غفوة، تاركا امْبِيرِيك يوقد النار لإعداد الشاي.

فتح امْبِيرِيك جِرَاباً جلدياً به قطع من الكتان، وأخذ أعواداً من البشام والشَفَلَح وبدأ يَحْكُ برأس أحدهما في جنب الآخر، كان يستشيق رائحة عود البشام، وقد بدأ يحترق رغم أنه لم ينبعث منه أي دخان، لكن تلك الرائحة تؤذن بقرب الانقذاح. إنها طريقة لإذكاء النار يمارسها يومياً، فجأة رأى خيوط الدخان تتصاعد من قلب عود البشام، فبادر بوضع الكتان المنفوش على مكان انبعاث الشرر، فالتهمت النار في أطرافه.

اطمأن إلى أن النار قد اتقدت بشكل نهائي، فتح جِرَاباً آخر به مواعين الشاي، إبريق حديدي قديم، وكؤوس زجاجية صغيرة الحجم، ضرب بمطرقة حديدية صخرة سكر وهَرَانِيٍّ، ملفوفة في حافظة جلدية، فانفلقت منها ثلاث قطع متوسطة. كان الإبريق قد بدأ في الغليان، غطاءه يرتعد كرجل ريفي يجتاحه الغضب في قضية متعلقة بالشرف، وفوهته تنفث البخار كسفينة تمخر عباب الأطلسي.

أمسك مقبض الإبريق الفائر، ووضع على طست نحاسية صفراء، ثم أخذ حَفْنَةً من شاي الصين الأخضر، ورمى بها في جوفه، فأزبد مُلْقِيّاً برغوتها خارجه، لولا أن امْبِيرِيك كتم أنفاسه حين أعاد غطاءه بسرعة احترافية، منتظراً تَفْتُحَ وريقات الشاي، وسريان عصيرها وسط الماء الحار، كَسَرَ أغصانا مورقة من شجرة المَحِيص المنتصبه حارساً عند مدخل الكهف، ووضع عليها بعضاً من القديد والتمر، اقترب من

سَلَمَاتِي الذي كان يشخر بعنف.

بيدو أن ليلة ونصفا من اهتزاز الرجل قد بلغت منه الجهد، ما إن لامست كَفُّهُ رِجْلَهُ حتى قفز صارخا، وبدأ يحوقل ويسترجع، تسمَّر امْبِيرِيك ذعرا من المشهد الذي رأى فيه الرجل، متأكدا أن ثعبانا جبليا لدغه، أو أنه أصيب بمس من الجن.

مد سَلَمَاتِي يده إلى شَنْ ماء صغير هو ما لدهيها من ماء بارد، غسل يديه ووجهه وتمضمض ثم ازدرد جرعات منه، عدَّل من جلسته حتى أصبح متربعا، ثم أخذ قطعة قَدِيدٍ وبدأ يلوكها في فمه وعيناه ساجيتان، بينما كان ذهنه يضح ببقايا الحلم الذي أزعجه قبل لحظات.

لم يستطع امْبِيرِيك أن يسأله عن سبب ما حصل له، ولا أن يخبره عنه، فقد يكون لا علم له بالقفزة التي قفزها، ولا بالصرخة التي انطلقت من بين فكليه، ربما يكون فعلها قبل أن يكتمل وعيه، إن مثل هذه التصرفات كثيرا ما تكون جزءًا من الحلم الذي سَبَّبَهَا، أي أنها حدثت أثناء النوم.

وضع قطعة من السكر في فم الإبريق، ثم أعاد الغطاء ريثما تتمرج بطعم الشاي، ثم وضع الإبريق على كومة الجمر الهادئة عن يمينه، ولكي يكسر سكينته الصمت المخيم عليهما، سأله هل منحتة الإغفاءة القصيرة قسطا من الراحة بعد تعب المسير. فلم يزد سَلَمَاتِي في إجابته على قول (الحمد لله)، ثم عاد لصمته، كما أن عينيه لا تزالان ساجيتين لا يطرف لهما جفن، ولا تتحرك فيهما حدقة، أترع امْبِيرِيك كأسين من الشاي، رفعهما على طست النحاس الأصفر نحو سلماتي ليختار منهما، أخذ أحدهما وأفرغه في جوفه دفعة واحدة.

أخرج خنجرا مُسَنَّئًا من جِرَابِهِ وغرزها بينه وبين القِبْلَةِ، ثم صلى

ركعتين خفيفتين، جلس بعدهما طويلاً، وهو يهتمهم ويدير في يمينه حبات المسبحة الطويلة، وبين الفينة والأخرى يضرب مِقْبَضَ الخنجر بالسبحة فَتَلْتَفُّ عليه، ورغم أنه لم يكن أمامه إلا الفضاء المفتوح من فوهة الكهف، فقد كان يهز رأسه، وَيُقَلِّبُ كفيه كمن يحدث أحداً.

ظل امْبِيرِيك يتملى في دهشة بالغة تلك الطقوس التي يقوم بها سَلْمَاتِي، إنها أول مرة يراه على تلك الحال، لم يكن يمتهن الكهانة، وإن كان كل من في الحي يتحدث عن معرفته الكبيرة بأسرار الحروف، وقدرته الخارقة على تسخير الجن. لكن ذلك في الحقيقة لم يكن صفة مُمَيِّزَةً في تلك المنطقة، التي تتداخل فيها أجنحة الملائكة ورؤوس الشياطين، ويتجاور فيها القرآن وطلاسم الشعوذة.

بعد لحظات ناوله كأساً أخرى، أفرغها في جوفه دفعة واحدة كما الأولى، ثم تَمَطَّقَ بعدها، وامتخط خيوط القات الذي شحن به منخره قبل ساعة، وأوماً له بالجلوس قبالتة، ثم مد يده إليه، حين تصافحت يميناهما هَزَّةً بعنف، ثم كَبَّرَ ثلاثاً وأمره أن يفعل مثله.

كان امْبِيرِيك مشدوهاً، فهو لم يمارس مثل هذه الطقوس الغربية في حياته، الدهشة التي ملأت جوانحه ترجمها جسده ارتجافاً شديدة، أَحَسَّ كل شعرة فيه نافرة لشدة الخوف، بينما كان امْبِيرِيك يرتجف هلعاً، كان سلماتي يواصل تمتاته محققاً بعنف في وجهه، فما كان منه إلا أن طأطأ رأسه وأطرق بنظره نحو الأرض.

قاله سلماتي وهو يمسحه بنظراته الحادة: «إني أرى أمك الآن وحوها أبوك وإخوتك، إنها تبكي شوقاً إليك، لا تزال ذكراك تذبح خاطرها الحزين كُلَّ وقت، يداها المتغصّنتان تمسحان وجهها المُشْرَبَ دموعاً، أهلك يحاولون تهدئة نفسها المفعمة حنيناً وذكري، إنها تتوسل إلى الله

أن يكشف لها عن مصيرك حيا أو ميتا، وقد جاءني بذلك خاطر روحاني البارحة».

ثم استرسل وكأنه يقرأ سطورا من الغيب: «يا أمة الله الحزينة، هوني عليك، إن ابنك يأسو (تحريف يسوع) معي الآن في أحد مناكب الأرض، لقد أصبح اسمه امبيريك، هي كلمة عندنا تعني الفأل بالخير والبركة، كما حرصت أنت على تسميته بياسو (يسوع) من أجل ذلك الفأل الحسن، لا يختلف الاسمان كثيرا، إن يسوع هو البركة التي حلت بأهل الأرض، هنا يلتقي معنى كلمتي يسوع وامبيريك كما نسميه هنا، أعرف أنك كنت تحلمين به قسيسا في إحدى الكنائس. لكن أرض السودان التي حلت بها لعنة الرب سَلَّمَتُهُ في يوم مشؤوم إلى وحوش آدمية، الله لم يَحِبِّ صلواتك من أجل ابنك المحبوب، إنه الآن بخير، لقد تحول ذلك الفتى النحيل رجلا جلدا صبورا، إن الله اختصه بعنايته فجعله في خدمة أسرة موصولة بالسماء، إنه بذكائه وطاعته لي ولسيده المخطوف سيرجعه الله إليك بعد إكمال المهمة النبيلة التي سيكلف بها، هذا خبره، فماذا تريدين قوله له؟»

رفع سلماتي بصره ويديه نحو السماء، صمت بعض الوقت ثم قال:

- يا امبيريك، لقد طلبت مني أمك أن أرسلك إليها، وأوصتني أن أوصلك بنفسني، حتى لا يخطفك تجار البشر الذين أخذوك أول مرة، فهل أنت راغب في العودة إليها يا امبيريك؟

كان امبيريك قد غرق في دموعه، ودخل في نوبة بكاء حاد، خصوصا بعد سماع كلمات سلماتي الأخيرة، التي كان يقولها بنبرة هادئة حزينة، لقد شَفَّتْ روحه البريئة في تلك اللحظات، لدرجة تخيل أنه يسمع نحيب أمه شوقا إليه، بل جَزَمَ بعد ذلك بأنه سمع كلامها بطريقة متقطعة.

ناوله سلماتي قطعة قماش أبيض رسمت عليها بعض الجداول والحروف والأرقام، وأمره أن يجعلها في حافظة جلدية، إنها تيممة مزدوجة الدور، فهي لحفظه من شر الجن والإنس والسباع، والأفاعي والعقارب وغير ذلك من هوام الأرض، ثم هي وسيلته التي ستسهل التقاء بأمه حين يأتي وقت عودته.

لم يستطع إخفاء مشاعره فانكبَّ يُقَبِّلُ رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ، وَيُقْسِمُ له بكل معظم لديه؛ أنه يفضل على أبويه وإخوته، بل ونفسه، التي يمكنه تقديمها فداء له، لم يضع سلماتي فرصة هذا الدفق العاطفي الذي يحتاج أمبيريك، إنها اللحظة التي كانت كل تلك الطقوس تُمهِّدُ لها، وقد جاءت كما خطط لها تماما، أمره بالرجوع إلى جلسته بين يديه، ثم قال له:

- هل تعرف المهمة التي سأكلفك بها يا أمبيريك، والتي بعد تنفيذها سأخذك بنفسي، وأوصلك إلى أمك المشتاقة إليك؟
- لا، ولكنني مستعد لتنفيذ كل مهمة تكلفني بها كما كنت، فأنا عبدكم المطيع.

- خذ هذه الخنجر!

مدَّ أمبيريك يده المرتجفة إلى الخنجر، وقد أثختته الدهشة والخوف، أي مهمة سيكلفني بها سلماتي، هل جُنَّ الرجل، هل سيأمرني بأن أقتل نفسي؟ أي ذنب اقترفته حتى أُقتل؟ هل يعقل أن أموت بيدي، في هذه اللحظات التي طمعت فيها بانتهاء معاناة هذه السنين الطويلة؟

بعد تقلب النظر سريعا في احتمالات أخرى كثيرة للمهمة الغريبة؛ تأكد في قرارة نفسه أن سلماتي سيأمره بأن يُقتلَهُ، ورجح هذا الاحتمال عنده ما يراه يجيم على نفسه من أحزان، منذ انحدرا من جبال «الديكديغ» باتجاه «كريسيل»، لكن هليستطيع أن يُقتله، ولو كان ذلك

طلبه وأوامره؟

ظل يرتجف مُحَدَّقًا في عينيه، متمنياً أن يكون هذا حلم نائم سيستيقظ منه، وتنتهي كوابيسه المفزعة.

قال له سَلْمَاتِي، وقد جَفَّ حَلْقُهُ وَشَفَتَاهُ، وبدا وجهه وكأنه طالع من الموت.

- هل عرفت المهمة؟

قالها امْبِيْرِيك وأسنانه تَصْطَكُّ من الخوف:

- لا.

لمعت بشاشة كالبرق في تغضنات وجه سَلْمَاتِي، لم يسمح لها بأن تصبح ابتسامة كاملة، لكنها كانت بردا وسلاما على امْبِيْرِيك، الذي كاد قلبه أن يتوقف عن النبض، من شدة الهلع، ظل ممسكا بالخنجر، ومحذقا في عيني سلماتي، وكأنه يستجدي رحمته أن ينقذه من هذا الموقف المروع، قال له بنبرة صارمة:

- إياك أن تخاطر بنفسك فتخبر أحدا بما فعلته معك الآن، أو بما سأخبرك به، ولتعلم أنني أعرف كل ما تفعله أو تقوله، حتى ولو كنت بعيدا عن عيني.

نهض متثاقلا كمن يحمل كوكب الأرض على منكبيه، وأوماً إلى امْبِيْرِيك الذي خانته رجلاه مرات وهو يحاول أن يقف، كأن خدرا سرى في جسمه فَحَوَّلَهُ إلى كومة لحم مرتجفة، جلس أخيرا حول مواعين الشاي، والخنجر المريبة مغروزة إلى جنبه في التراب، صب كأسا رابعا أمره سَلْمَاتِي بعدها بتفقد الجمال، وإحضارها فقد حان وقت السير من جديد.

رغم طول المسافة بين «اَكْرِيْسِل» و«تَامُوْرْت لِكُوْر»، فهي لم تكن

كافية، كي يتخلص امبيريك من آثار التجربة الروحية التي خاضها في تلك الظهيرة المحيرة. الغريب أنه استطاع أن يعيد رسم ملامح أمه، التي فارقتها وهو ابن سبع سنين، لكأنها الآن جالسة أمامه، لكن ما يؤرقه حقا هو طبيعة المهمة التي قال سلماتي إنه سيكلفه بها.

شعور مزدوج من الفضول والرغبة، عبد لا عَصَبَة له يحمل في جرابه خنجرا لا يدري لحد الساعة ما الذي سيأمر أن يفعله به، في مجتمع تعلق وتهبط إنسانية المرء فيه حسب قوة عصبته وتاريخ قبيلته، لذلك هو وغيره من العبيد مدرجون في الدرك الأسفل من الإنسانية. هل سيكون ذلك الخنجر طريقه إلى الحرية أم سيكون طريقه إلى الموت؟ أسئلة كثيرة كانت تتقاذف في مخيلته، وكأنها ضفادع في أَصَاةٍ على وَشَكِ النَّصُوبِ.

صادف وصولهما إلى الأحياء النازلين في منطقة «تَامُورْت لِكُورَ» يوم عرس ابن أحد السادة، وبالتحديد يوم وصول العروس إلى منزل أهل زوجها، وهو يوم ينظم فيه أرقاء أصهارها حفلة فلكلورية احتفاء بالسيدة الجديدة. كان الوقت عصرا، وأصوات الدفوف والنايات ترد إلى امبيريك متقطعة من أقاصي الحي، تتخلل ذلك ألحان الإماء، وَهِنَّ مُتَمَطِّطْنَ أصواتهن بكلمات الأغنية الأثرية، التي اعتدن تلحينها في مزارعهن، على وقع حركة أيدي الرجال بالمحارث والمناجل:

مَجْرِيثُ لُودِي يَدْنُكَ تَنْجَبَايِ
أَلَّ بَوَا جِيلُ وَّلَّ بَجَبَّايِ

كانت النيات تُرَدُّ وراء الإماء المغنيات نفس الكلمات، فلا يُدْرَى أيهما الأفصح، تنساب أصداء النغمات الملتاعة في أثير القرية، فَيَخِفُّ له كل شيء. النَّايُّ هبةُ القدر لأولئك المطحونين، ينفثون فيه الشجن

والأسى الذي سكنهم منذ لحظة الرعب الأولى، عندما استوى أحدهم
فجأة على ظهر فرسٍ لَصٍّ متوحشٍ، وأوغل به شمالاً معصوب العينين،
وباعه عبداً في أسواق النخاسة.

تذكر أمبيريك لحظته الأولى تلك وابتسم عجباً، إذ كان يتشبث
فيها بثياب مُحْتَطِفِهِ، خوف السقوط من على صهوة الفرس التي تسابق
الريح، هل يصح أن يتحول العدوُّ في لحظاتٍ إلى مثابة للأمان!

تقول الحكاية الشعبية: إن العبد كلما كان أكثر حزناً، أبدع في إنطاق
النَّاي، لذلك يعمد بعض المَلَّاك إلى ضرب عبده ضرباً مبرحاً، قبل
كل حفلة سيشارك فيها بنائه. لا شك في أن أثر السياط سيكون بادياً
على ظهور أولئك العبيد العازفين، الذين يُسَكِرُونَ القرية الآن، بنفائهم
في تجاوزيف تلك القطع الخشبية.

روعة ولوعة أصوات الناي القادمة إليه ممزوجةً بزغاريد الإماء
الراقصات طرباً وفرحاً واحتفاءً بزوجة سيدهم الصغير، جعلته ينسى
سَلْمَاتِي والخنجر المجهولة، ولحظات الوجد الروحي السابقة.

أنهى مهماته الروتينية بسرعة، قيّد الجمال وتركها ترعى حول الحي،
ثم وضع المتاع الخفيف الذي كان عليها في حوض شجرة العرضيب
الوارفة أمام الخيمة التي نزلا عندها، عندما اكتملت حلقة أعيان القرية
حول سَلْمَاتِي، أنسلَّ من بينهم كأى شيء تافه. وانطلق باتجاه الحفل
مهتدياً بصوت النَّاي، الذي يصير أكثر شَجِيَّ كلما اقترب منه، قلبه
يضرب بشدة خشية أن تنتهي تلك الأغنية الساحرة قبل وصوله، كانت
خطواته رقصاً داخلية، يضع رجليه ويرفعهما في انتظام محسوب الزمن
والمسافة، لا يدري في الحقيقة هل كان يخطو وفقاً لرفع وطرق ضاربة
الدَّفِّ، أم وفقاً لضربات قلبه، المهم أنه يرقص في مشيته تلك أو هكذا

يُخِيلُ إِلَيْهِ.

شد سيور الحِرَقِ المشققة التي يستر بها عورته المغلظة، ثم قفز إلى الأعلى مترين ونصف، كبطل ألومبياد، متجاوزا الجماهير المتزاحمة حول حلبة الرقص، كان دخوله مُشَرَّفًا ومفاجئًا في نفس الوقت، تبادت الإماء في التصفيق والزغاريد، إعجابا بحركاته الرشيقة والبديعة، فالتهبت جوانحه زهوا، استخرج كل خبرته في الرقص الفلكلوري.

رمته إحداهن بمنجَلٍ تعبيرا عن إعجابها برقصه، أمسكه عَاصًا عليه بين أسنانه، في احترافيةٍ سحرية لا تصدق، كان يرميه إلى الأعلى ثم يتلقفه بفمه، واثقا أنه لن يُحْطِئَهُ، يقف على يديه ويرقص برجليه، دون أن يرتبك خطوه الموسيقي. جُنَّ العازف باحترافية امْبِيرِيك، فأفرغ جنونه في تجاوزيف نَائِيهِ، الذي كاد ينطق بلسان فصيح، لقد جُنَّ النَّايُ أيضا، وجُنَّ الجمهور الذي نسي كل شيء أمام هذا العبد المجهول، الذي يرقص كَأَمِيرٍ جِنِّي. كانت لحظة من الطرب والشجن والوجد والجنون، أبدع فيها امْبِيرِيك حركات لم يكن يعرفها من قبل، أصبحت بعد ذلك رقصة معروفة باسمه في عموم الحَوَاضِينِ.

حينما خرج من حلبة الرقص كان مُسْتَحِمًّا بالعرق، مُنْهَكًا حَدًّا الإجهاد، بعض الفتيات السود بادرن بصب الماء على رأسه ورجليه، نظر إليهن فَلَفَّتَتْ إحداهن انْتِيَاهَهُ. لم تكن الأجل، ولكن سُحْنَةَ صوتها وملامح وجهها البسيط ذَكَرَهُ بِنَاتِ عموته من الماندينغو، وجد نفسه مُنْجَذَبًا إِلَيْهَا، كما لم يحدث له من قبل، وكانت في ما يبدو تبادلها نفس المشاعر. التَّقَّتْ خواطرها فترجما ذلك ابتسامات متبادلة، لم يسألها عن شيء، رغم أن حالتها تنبئ بأنها قدمت منذ فترة قليلة، لم تَمْتَصَّ الشمس بعدُ رحيق الحياة في وجنتيها، ولم تبرز عروق ذراعيها بالأعمال الشاقة،

من شدَّ الحبالَ وحَمَلَ الخرافَ المُجَهَّدةَ، كما أن جهلها بلغة البيض يؤكد حداثةَ عهدها بهذه الأرض.

من خلال حديثها مع صاحباتها سمعتها نطقت اسم قرية أمِّه، إنها ضمن الأسماء القليلة التي لا تزال ذاكرته محتفظةً بها، لقد صدقت فراسته، إنها إحدى بنات الماندينغو اللواتي يُجَبِّنُ الجمال في عيونهن، فلا يَطَّلِعُ عليه إلا من أردنه، لكأن جماهن محفوظٌ بكلمة سر.

كانت أول مرة يخفق فيها قلبه لامرأة، حتى بنات البيض لم يكن يعبأ بهن رغم عشقهن الظاهر له، فحياة الشظف والازدراء لم تستطع أن تخفي وسامته وظرافته، لكن هذه الأمة بذرت في قلبه شعورا بالحب، لا يدري متى سيصبح نخلةً باسقةً. إنه يهوى حبها ويخافه في نفس الوقت، فهو عبْدٌ لا يملك سوى مشاعره، لكن جسمه وخيارات حياته ليست ملكا له، إنها لسيده الذي يسكن بعيدا عن مكان تلك المانديغية الفاتنة.

تذكر أن سلّمتي أمره بالحضور بعد المغرب مباشرة، كي يستأنفا رحلة الأوبة إلى وادي الحطب، سلّمتي أصبح مرتبطا في مخيلته بالخنجر وانتظار الأمر المجهول، ربط بين ما حدثه به في كهف «الدَيْكْدِيْغْ»، وبين ذكر تلك الفتاة لاسم قرية أمِّه، زاده ذلك تصديقا بما كان يقول له عن دُنُوِّ موعد لقائه بأمه. لعل هذه أول خطوة في طريق الأمل المستحيل. خرج من بين الجموع، تاركا قلبه حبة نَبَقٍ نَاصِجَةً تُفَتِّتُهَا تلك المانديغية في أناملها التي لم يחדشها بعدُ تَقْشِيرُ الزَّرْعِ، ولا سَنُو الماء من الآبار السحيقة.

كان سلّمتي عائدا للتو من صلاة المغرب، وكأنه بدأ يستبطئ امْبَيْرِيك الذي يسير خلفه على بعد خطوتين فقط، لما أحس به خلفه قال له دون أن يلتفت:

- أَحْضِرُ الْجَمَالَ.

قالها وغرق في ورده المسائي الذي لا يسمع منه إلا طقطقات حبات المسبحة الألفية، التي يُكْوَمُهَا في يديه أو حركة شفثيه.

حينما أصبحنا خارج الحي، قافلين نحو وادي الحطب، بدا سَلْمَاتِي أكثر أريحية، كان الظلام دامسا جدا، والقمر لن يبرز إلا عند منتصف الليل، أراد أن يؤنس مسيرهما في ذلك الظلام المدهم، فحدثه عن قصصه ومغامراته مع الأسود الإفريقية الشرسة، أيام كان شَابًّا يسافر مع القوافل الموغلة في أقاصي أرض السودان. واستطرد أن أهل الحي أخبروه بأن حَظْرِي بات عندهم ليلة، ثم رجع فجأة إلى وادي الحطب، وأنهم استغربوا ذلك، ولكنه أخبرهم بأن أمرا ما يتطلب رجوعه من حيث جاء.

بزغ القمر وتحركت نسائم منتصف الليل مُلَطَّفَةً الأجواء والأرواح، حينما تعالى القمر كانت أمامهما ربوة ناصعة، تضيء حصارها حين تلمسها أشعته الفضية، نزلا فوقها بعض الوقت. صلى سَلْمَاتِي ركعتين طويلتين، كان قلب امْبِيرِيك أثناءهما يكاد يخرج من صدره، بفعل الخواطر التي تجتاحه حول ما سيأمره به. الفضول والخوف يتنازعا قلبه البريء، تمنى لو استمر الرجل في صلاته طيلة حياته وَجَلًّا من تلك اللحظة التي لا يريد أن تأتي.

فجأة ناداه وجلس قبالته، أمره بإخراج الخنجر وحدّته من جديد عن أمِّه وشوقها إليه، أمره أن يمسك الخنجر بيمينه، أمسكها وهو يرتجف، أمره أن يقف رافعا يده التي فيها الخنجر، وكأنه سيضرب به شيئا ما، فعلها وهو يكاد يسقط من الخوف.

- هل تعرف ماذا ستفعل بهذه الخنجر؟

قال وقد أصبح حلقة خاليا من أي رطوبة:

- لا.

- هل أنت شجاع؟

كان ينطق الحروف مُمَطَّطَةً ومتفاوتة كأسطوانة مجروحة، مرتجفا كأنه عصفور بلله قطر غيمة ثلجية:

- أنا.. شو.. شو.. جاع، وأنت.. ت.. عرِفْ ذَلِكَ.

- نجاحك في هذه المهمة هو ثمن حريرتك، وطريق عودتك لعناق أمك، التي ينهك جسمها المهترئ الحينُ إليك.

بينما كان سلماتي يمسح بعينه قامة العبد المنتصب أمامه، كان أمبيريك يراوح بين الإطراق نحو الأرض، والتطويح بعينه الزائعتين في ذلك الفضاء الخالي إلا من صفير بعض الحشرات والطيور، قلبه يضرب بشدة لدرجة أنه تماسك أكثر من مرة خشية أن يسقط.

مرت لحظات من الصمت القاتل، سلماتي نفسه خجل من أن يتفوه بالكلمة الحاسمة، أما أمبيريك فبدا مثل سجينٍ ينتظر جلادا لا يستطيع التكهن أي آلات التعذيب يصطحبها معه. وفجأة انفرجت شفتا سلماتي عن كلمتين:

- سَتَقْتُلُ امْهَادِي.

الفصل السابع

اجتمع امرأبطيناً لَمِيد فور عودته من وادي لخطب بتلميذيه المقربين لَمَرُورِح وبتنار، وقصص عليها بأسفٍ وغضبٍ ما تغلي به جنبات ساكنة ذلك الوادي من أحداث ومواقف، وكيف أن القوم يقفون على حافة نزاع عائلي، تلوح في آفاه ألوان الدم وقطيعه الرحم. ألمح إلى مسؤولية امهادي عما قد يحدث لذلك الحي، وبدا حنقاً عليه، رغم محاولاته إخفاء ذلك، حتى لا يثير حمية تنار الذي تربطه به وشائج رحم قريبة.

أثار موضوع اختفاء خطري، وذكر بحذر بعض الملابس والأخبار التي حصل عليها في شأنه، والتي تؤكد بمجموعها أن النصارى وأعوامهم يقفون خلف اختفائه.

- الأمر الذي لم أعد مرتاباً فيه، هو أن خطري اختطفه النصارى، أما الذي ما زلت حائراً في شأنه، فهو لماذا يختطفونه وأين هو الآن؟ قالها لمرابط بنبرته الحاسمة، وكأنه مسؤول أممي يصدر بياناً في قضية شائكة.

كانت تلك هي الخلاصة التي خرج بها، بعد إقامة أسبوع في وادي الخطب، سعى خلالها إلى استقصاء كل كبيرة وصغيرة، والتقى بكل من

في الحي رجالا ونساء، حتى أنه كان يسترُق السمعَ لأحاديث الأطفال وتكثيهم، لعله يجد لديهم ما يدعم رواية أو ينفي أخرى.

جمع في أسبوع واحد ما لم يستطع كل أهل الحي أن يجمعه خلال شهر، لقد كان خبيراً بتقصي دقائق الأخبار، قارن بذهنه الوقاد كل المعلومات التي حصل عليها، وخرج بالنتيجة الحاسمة.

تذكر حديثه المتشجج مع أمهّادي على أطراف وادي الخطب، في تلك الليلة المقمرة، وكيف حاول أن يدفعه للاعتراف بضلوعه أو بعلمه بتفاصيل اختفاء خَطْرِي، ولكن إصراره على نفي أي علاقة له بالأمر صَدَمَهُ. استغرب كثيرا إصرار أمهّادي على الإنكار، خصوصا أنهما كانا وحيدين، وأن أمهّادي يعلم أمانته وقدرته على كتمان الأسرار، ونياته الطيبة لإصلاح ذات البين.

استبد به التفكير في ما ستؤول إليه أحوال ذلك الحي، خصوصا أن أغلب المعلومات التي تؤكد ضلوع أمهّادي، أصبحت شبه يقينية لدى أقارب خَطْرِي وأنصاره، ولم يعد في قوس صبرهم أي منزع. تذكر الاقتتال الذي وقع في ذات الحي قبل خمس وعشرين سنة بسبب خلافٍ على أسبقية الاستسقاء من بئر، وكيف أسفرت لحظات مهارة بالسكاكين والعصي عن قتيلين من خيرة شباب الحي، وتسعة جرحى كان من بينهم لِمْرَابُط نفسه وكذلك أمهّادي. والأطم من ذلك قطعة عشر سنوات بين ذوي الرحم المتواشجة.

اجتاحته هذه الخواطر المزعجة، وهو يرى ألسنة لهب فتنة أكبر تطوق مستقبل بني قومه، طأطأ رأسه ورمى بعينه نحو الأرض، وعلت وجهه سحابة من الحزن واليأس، وقال بنبرة جنائزية.

- يؤسفني أن القبيلة تتصدع داخليا، بينما تلتهب تحت الرماد نار

حرب وشيكة بينها مع بعض القبائل المجاورة، كيف يكون البعض أنانيا إلى هذا الحد، كيف يدفع حب «أشياخه» إلى هذا التصرف الأرعن.

كانت أسئلة كثيرة تلتهم في ذهني الشابين، وكانت أعينهما مصوبة بِحَيْرَةٍ ظاهرة إلى شيخهما الحزين، كان في خشوع وحزن من يقف على أطلال مجزرة بشرية دامية.

لم يستطع وجه بُتَّار أن يخفي امتعاضه من تلميح لِمَرَابِطٍ باتهام امهَّادي، رغم محاولته ألا يظهر ذلك أمام شيخه. صرخت امرأة في الحيمة الموالية، بقرةً حديثة عهد بالولادة تهاجم حفيد الشيخ الذي اقترب في غفلة أمه من ولد البقرة الصغير، نهض بُتَّار سريعا وأخذ الطفل المرتجف من بين أرجل البقرة ومدَّه لِأُمِّه.

انتهز لمرباط فرصة غيابه وهمس للمرورح أن يعود إليه سرًّا بعد هجوع طلاب المحظرة. أشار لِمَرَابِطٍ إلى بُتَّار بوضع النسخة المهترئة من تفسير الخازن في حافظتها الجلدية، وإعادتها إلى مكانها بين الكتب المرصوفة في الصندوق الحديدي القديم، يعني ذلك في عُرْفِ لمرباط وتلامذته أنه حان وقت انصراف الطلبة، وتركه مع أهله وعياله.

لم يكن بُتَّار مرتاحا، لقد تغير مزاجه منذ بدأ لِمَرَابِطٍ يُحْمَلُ امهَّادي مسؤولية اختفاء خَطْرِي، لقد انتصر عرق العصبية في دمه بسرعة، فأعاد تلوين الأحداث والأشخاص. تحول لِمَرَابِطٍ في عينه من شيخه الوقور والشخصية الجامعة إلى مجرد خصم لحليفه وقريبه وولي نعمته امهَّادي، وتحول خَطْرِي في نظره من ضحية اختفى في ظروف غامضة إلى مجرم يستحق كل ما حصل له، مادام الأمر متعلقا بصراعه مع امهَّادي الذي يرى فيه بُتَّار الشخصية النموذجية في كل شيء.

بُتَّازُ شَابٌّ ذُو قَامَةِ مَرْبُوعَةٍ وَوَجْهِ قَمْحِي مَعْرُوقٍ، لَا يَعْكَسُ أَثْرُ النِّعْمَةِ وَالرِّخَاءِ، رَغْمَ أَنَّهُ ابْنُ عَائِلَتَيْنِ مُعْرِقَتَيْنِ فِي السِّيَادَةِ وَالْمَالِ، حَادُّ الذِّكَاةِ وَحَافِظُ مَتَقْنٍ لِكِتَابِ اللَّهِ وَرَاوِيَةٌ بَارِعٌ لِلشَّعْرِ اللَّهْجِيِّ، إِنَّهُ نَمُودِجُ الشَّابِّ الْبِيْظَانِيِّ الْمَثَالِيِّ فِي تِلْكَ الرَّبُوعِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْغَضَبِ وَسَرِيعُ الرِّضَى، رُوحُهُ كَشَبَابَةِ الرَّاعِي تُبْكِيهَا نَفْحَةُ فَمٍ، وَتُسْكِتُهَا صَغْطَةُ أَنْمَلَةٍ. تَمْتَرِجُ فِي دَاخِلِهِ شَخْصِيَّتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ، اكْتَسَبَهُمَا فِي آنٍ مِنْ ظُرُوفِ الْبَيْتِ وَأَجْوَاءِ الْمَحْظَرَةِ، إِحْدَاهُمَا شَخْصِيَّةُ شَيْخِهِ الَّذِي يَكْرَهُ النَّصْرَارِيَّ وَأَعْوَانَهُمْ، وَيَمِيلُ هُوَاهُ لِلْمَقَاوِمَةِ وَأَبْطَالِهَا، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَشَارِكْ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ضِدَّ الْفَرَنْسِيِّينَ، وَشَخْصِيَّةُ ابْنِ خَالَتِهِ امْتِهَادِي الْعَاشِقَةِ لِأَبْهَةِ السِّيَادَةِ وَزَخَارِفِ الزَّعَامَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، مَعَ عَصْبِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ لِلْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ.

تَمَّازُجُ هَاتَيْنِ الشَّخْصِيَّتَيْنِ فِي نَفْسِهِ جَعَلَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَظُنُّهُ بِلَا شَخْصِيَّةٍ مَحْدَدَةٍ، فَهُوَ فِي الْمَحْظَرَةِ يَتَصَدَّرُ تَيَّارَ الطَّلِبَةِ الْمُدَافِعِينَ عَنِ أَهْلِ الْكِدِّيَّةِ - كَمَا يَسْمُونُ هُنَاكَ -، وَعَنْ غَارَاتِ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الشَّمَالِيَّةِ الَّتِي تَسْتَهْدَفُ مَوَاشِيَّ وَأَمْوَالَ الْإِدَارَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بِتَامَشِكْطُ، وَيَعْتَبَرُهَا مَقَاوِمَةً شَرْعِيَّةً لِمَحْتَلِّ ظَالِمٍ. وَحِينَئِذٍ يَرْجِعُ لِلْحَيِّ يَتَصَدَّرُ تَيَّارَ الْمُدَافِعِينَ عَنِ مَوَاقِفِ وَتَصْرِفَاتِ ابْنِ خَالَتِهِ امْتِهَادِي، رَغْمَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْهَا يَظْهَرُ عِلَاقَتَهُ الْمَرِيَّةَ بِالنَّصْرَارِيَّ.

لَا حَظَ لِمَرْوَرِجٍ تَغْيِيرِ مَزَاجِ صَاحِبِهِ فَنَقَلَهُ إِلَى حَدِيثِ آخَرَ بَعِيدٍ مِنَ عَالَمِ الصَّرَاعِ وَالنِّزَاعِ، أَمْسَكَ بِمَعْصَمِهِ وَقَالَ:

- سَمِعْتُ أَنَّ عُرْسَ ابْنَةِ خَالِكَ مَآئَهُ بِنْتُ امْتِهَادِي لِابْنِ شَيْخِ مَجْمُوعَةٍ أَهْلِ إِدَايْسَرْمِي سَيَكُونُ فِي «الْحَصْرَةِ»، وَسَيَحْضُرُهُ النَّصْرَارِيُّ حَاكِمُ تَامَشِكْطُ وَأَعْوَانُهُ، سَيَكُونُ أَشْهُرُ عَرَسٍ يَقَعُ فِي أَفْلِهِ، أَكْثَرَ مِنْ

عشر مجموعات قبلية ستكون جماهيرها حاضرة، إضافة إلى أمهبة الحاكم الفرنسي ومرافقيه وأعوانه، أي يوم حشر ينتظره الناس أكبر من هذا، إنه لا يمكن أن يفوتني أبدا خصوصا أن حبيبي العالِيه ستكون حاضرة، وأن أشهر أسرتين فئتين في الحوضين ستتكفلان بإنعاشه، إنها فرصتك لكي تسير الركبان بإبداعاتك في الشعر الحساني، إن أي «كافي» تقرضه في تلك المناسبة ستتغنى به فتيات بَاسِكُنُو وولَاتَه وَلِعَصَابَه، سيجعلك من الخالدين، فهل ستذهب إليه يا بُتَّار؟

تنحح بُتَّار وحك رأسه ذا الشعر الجعه الكثيف، ثم التمعت وجنتاه بابتسامه انطبعت على خديه رغم استماتته في مداراتها:

- يبدو أن العالِيه قد ملكت عليك قلبك، مع أني لا أراها بذلك الجمال الذي يستحق كل هذا الوله.

وَكَزَهُ لَمَرَوْرَحَ فِي مَنْكَبِهِ بِيَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ:

- الحمد لله أنني لا أراها بعينيك البلديتين، اللتين لا تميزان بين حُورِ الجنة وبين سَعَالِي الصحراء.

قهقها معا، ثم اجتاحتها الصمت فجأة، كان مزاج بُتَّار لا يزال مُكَدَّرًا، إشارات شيخه الواضحة إلى اتهام خاله امهَادِي بالضلوع في قضية اختفاء خَطْرِي ألقت حجرا في بركة روحه، فحولتها إلى خَضْحَاض طين عبث فيه أرجل قطعان عطشى، وأصابته بصدمة ارتجت لها أركان نفسه، كيف يمكنه أن يصدق أن ابن خالته امهَادِي ذلك السيد الكريم عميل للنصارى الكفار. لقد كانت لامهَادِي في نفسه مكانة عالية، تماما كما يرى أي ابن وَاِلْدَه، لم يكن امهَادِي أباه البيولوجي، ولكنه كان أبا النعمة والتربية والتدليل.

كان بُتَّارُ شابا غريرا، لا يهتم بغير نفسه ولو حه، فهو رغم نضج سنه النسبي إذ يربو على العشرين، فإن نفسه لا تزال عذراء. نشأ مدلا، هو وحيد أمه أخت امهّادي، عاش طفولته كلها محمولا على الرقاب، وما إن بلغ العاشرة حتى أرسلته أمه إلى المحظرة محاطا بعبد وأمة وقطيع بقر. كان أميرا صغيرا يخطو بين أقرانه الذي يقاسون شظف العيش في أخصاص المحظرة؛ طعامه الخاص وحلابته التي يرسل ما تبقى من ألبانها إلى الطلاب كانا موضوع أحاديث حي المحظرة.

لم يقبل لِمَرَابِطُ هذا الوضع في بداية الأمر، فقد بنى فلسفته التربوية على تكوين شخصيات طلابه دون الأشياء. كان يرى أن توفّر الأشياء لدى الطالب يؤثر في تكوينه كرجل. لا بد للرجل - في نظره - من خشونة تفقده عذريّة الروح، عذريّة الروح نقيصة في حق الرجال، إنها تضعف قدرتهم على مواجهة الحياة المفعمة بالمفاجآت الصادمة، الحكمة التي يكرها دائما هي: «خلق الرجال للشدة والتعب، الرجل لا يبكي ولا يتراجع ولا يئن». لكن إصرار أم بُتَّار وتوسلاتها واستعانتها بامهّادي الصديق الحميم للمرابط؛ جعله يقبل وضع ابنها بُتَّار استثناء لقاعدة القسوة التربوية السائدة في محظرتة، استمر على ذلك الوضع خمس سنوات، كانت أمه تقيم معه فيها أغلب أشهر السنة. وبعد ذلك اتخذ لِمَرَابِطُ قرارا صارما بأن يلتحق بُتَّار بأخصاص الطلبة، وأن ترحل الأمُّ والعبدُ والأمةُ وقطيعُ البقر إلى حيث مضارب الحي، لم يكن هناك بد من تنفيذ القرار.

تركت سنوات الدلال الخمس ميسمها البارز على شخصية بُتَّار، بعض من التكبر والصلف مع طراوة في البدن ولين في العزيمة، فهو الوحيد بين طلاب تلك المحظرة الذي كان يعجز عن تسلق الجبال

وركوب الخيل، ولا يستطيع الشرى وحيدا، كما كان سريع الغضب لا يتحمل مزامحات أقرانه الذين زادهم ذلك ولعًا بالتنكيت عليه وتعمد إضجاره، ما خلق فجوة كبيرة بينه وبينهم.

لمرورح وحده ظل صديقه الحميم، الذي يفضي إليه بمكونات نفسه، يجمع بين الاثنين حدة الذكاء والمعرفة الواسعة بالأدب فصيحًا وهجياً. يتقنى بُتَّارَ حُطَى لمرورح في كل شيء، حتى نوع الكتاب الذي يدرسه ووقت تدريسه، كما يمكن للعارف بلمرورح أن يلمس ملامح من حركاته وطريقته في الحديث واضحة لدى بُتَّارَ.

يعرف طلاب المحظرة ذلك الولع الجنوبي الذي لدى بُتَّارَ بشخصية لمرورح، وذلك الشعور المسيطر عليه بأن يحاول منافسته في كل شيء، كأن بحق ظل لمرورح في كل شيء يستطيعه، كما كان يعتمد عليه في كل أموره الكبيرة والصغيرة. لذلك كان الطلاب يطلقون عليه اسم (لِعَلْنَدَى)، تلك النبتة الطرية ذات الأوراق الخضراء، التي لا تستطيع النمو إلا معتمدة على شجرة أخرى، تتسلق جذعها وتمد براعمها الطرية على أغصانها، يغطاها بتار كثيرا لهذا الاسم، فهو يريد أن يظهر كمنافس للمرورح في فتوته، ولا يريد أن يكشف عن تبعيته له.

كان لمرورح يفكر في الطريقة التي سيتخلص بها من بُتَّارَ حتى يتمكن من العودة سرا إلى لمرابط الذي طلب منه الحضور إليه خفية بعد هدوء الليل، ندم على إثارة موضوع عرس بنت أمهادي، وهو الذي يعرف من طبيعة صاحبه أنه يحب الثرثرة في هذه الأمور. تذكر أن صديقه يكره السير بالليل خصوصا ليالي الظلام، أخيرا جاءته فكرة كيدية، طلب منه أن يذهب معه تلك الليلة إلى الأحياء المجاورة بحثا عن جمل عمه الذي أضله منذ أشهر. تعلق بُتَّارَ بالتعب، وأن لديه «قفا»

لم يكمل حفظه بعد، اطمأن على أن خطته قد نجحت.

صعدا معا نحو أخصاص الطلبة، كانت أصواتهم ترتفع وهم يتجادلون، لا شيء يثير عادةً في ذلك المشهد، تلك عاداتهم في ليالي الإجازة الأسبوعية، لكنهم الليلة يناقشون قضية جديدة، قول الإمام الصاوي إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة أصلٌ من أصول الكفر، جدلٌ أثاره استدلال أحد الطلبة بالحديث في نَدْبِيَّةِ إِتْبَاعِ رَمَضَانَ بِسِتَّةِ مِنْ شِوَالٍ، معترضا على قول خليل (كَسِتَّةٍ مِنْ شِوَالٍ).

بدا النقاش حادا، كان الطالب يقول إن الحديث صحيح وصریح، وكان الآخرون يعترضون على استدلاله بالحديث محتجين بمقولة الصاوي، أنكر أحد الطلبة الجُدُدِ نسبة الكلام إلى الصاوي. ذهب أحدهم إلى عريشه وفتح مخللة كتبه، وجاء بنسخة مهترئة من تفسير الجلالين بحاشية الصاوي، مدرجة في حافظة جلدية بها آثار باهتة لزخارف ملونة، حملوا الكتاب وساروا باتجاه النيران الموقدة عند أعرشة العبيد، وهم في لغط تتخلله ضحكاتٌ وتضاربٌ أكفٌ.

جلسوا حول النار التي أضاءت وجوههم الفتية الشاحبة، بدوا بملابسهم الوسخة وشعورهم الطويلة الثائرة كنعوت باهتة من إنسان العصر الحجري. بدأ صاحب الكتاب يقرأ: (... ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة، ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج على المذاهب الأربعة ضالٌّ مُضِلٌّ، وربما أذاه ذلك للكفر، لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر).

أخبرهم بُتَّازٌ أن لِمَرَابِطٍ علق يوما أمام جَمْعٍ من الرجال على كلام الصاوي بأنه غير مسلم شرعا، نظروا جميعا إليه شُرَّرا، وكأنهم يتهمونه بالكذب على لِمَرَابِطٍ، قبل أن يتفوه أحد بذلك أكد لِمَرُورِحٍ أنه كان

حاضرا أيضا لذلك المجلس الذي قال فيه لِمَرَابِطُ ذَلِكَ الْكَلَامِ. عادوا
أدراجهم للربوة التي كانوا يجلسون عليها واستأنفوا أحاديثهم المتشعبة.
أفل القمر الخمسي وأوى كل طالب إلى عريشه، بدأ لِمَرُورِحٍ يحفر
بيده عند جذع القتاد المنتصب ساريةً اعتمادٍ وسط عريشه المسقوف
بالحشائش، ينبش بهدوء خوفا من أن يسمعه أحد الطلبة المجاورين
وخصوصا بُتَّارَ. كان يبحث عن المطوي الجلدي الغريب الذي أعطاه
له ذلك الرجل المجهول، عند مدخل هضبة «صَيْرَاطَه». مازال يتذكر
لحظة ظهور ذلك الرجل أمامه، لكأن الأرض انشقت عنه فجأة، كان
يعبر المدخل باتجاه وادي الحطب، مازال يتذكر أيضا وصية الرجل له:
«إِذَا وَجَدْتَ خَطْرِي فَسَلِّمُهُ هَذِهِ الرَّسَالَةَ، وَإِذَا لَمْ تَجِدْهُ فَلَا تَحَدِّثْ أَحَدًا
بِهَا، وَإِذَا سَمِعْتَ بِمَوْتِهِ فَاحْرِقْهَا».

ازدادت حيرته أكثر، فلغز خَطْرِي يكبر يوما بعد يوم، فهل هذا
المطوي الصغير جدا هو كلمة السر! أخيرا عثر عليه، كان ملفوفا
بقماش وحشائش خاصة لا تأكلها الأَرْضَةُ. ما إن لمست يده حتى بدأ
قلبه يضرب في صدره فجأة، أي سر في هذا الملفوف الجلدي، يعرف
يقينا أنه لا يحوي طلاسما ولا تعاويذ سحرية، لكنه يحمل كلمة سر
اختفاء خَطْرِي. هَمَّ بفتحه ثم أحجم، تخيل الرجل الذي أعطاه إياه،
وأوصاه ألا يفتحه أبدا واقفا أمامه، فخجل من أن يخون الأمانة، لكنه
في الحقيقة لم يكن قادرا على تحمل ذلك السر المطبق بين جوانحه، كان
حملا ثقيلًا عليه، ندم على اللحظة التي استلمه فيها.

استقر رأيه أخيرا على أن يأخذه إلى لِمَرَابِطٍ ويحدثه عنه، إنه يثق في
أمانته ونصحه لَخَطْرِي. أقنع نفسه بأن إفشاء خبر الملفوف لشيخه ليس
خيانة للأمانة، إنه نسخة أخرى من ضميره مودعة صدر ذلك الرجل

المُسنِّ. دَسَّهُ في جيب سراويله، ثم يَمَمَّ وجهه عكس جهة أعرشة الحي حتى لا يرتاب بُتَّار في وجهته، أو غل جهة الشمال شيئاً غير يسير، ثم كر راجعا ميمما وجهه شطر الأعرشة.

اختار لِمَرَابِطُ أن يلتقي به خارج الحي، فأخذ كُورَ ماء متظاهرا بأنه خارج لقضاء حاجته، ثم اختفى وراء شجرة كثيفة، ووقف ينتظر تلميذه، لمح كل منهما الآخر إذ لا يزال الأفق جديد عهد بالقمر الآفل للتو. وحين تأكد لمرباط أن لِمَرُورَح رأى شخصه، سار موعلا جهة الشرق حيث تتكاثف الأشجار، وحيث لا طريق معبدة، ما يجعل المكان آمنا من مرور السارين. فهم لِمَرُورَح إشارة شيخه، فظل يتبعه من مسافة محسوبة فلا يستطيع من يلتقي أحدهما فجأة أن يجزم أنه كان مرافقا للآخر.

كانت الخواطر تتقاذف في ذهنه وكأنها فراشات تبصر النور في ليلة مظلمة، ما السر الخطير الذي سيبوح له به لِمَرَابِطُ الليلة؟ هل وجد خبرا يقينيا عن خَطْرِي ومصيره؟ أم أن فاجعة أخرى حدثت في القبيلة؟ تذكر أنه أشار في جلسة المساء إلى أن القبيلة على مشارف حرب مع إحدى القبائل المجاورة، لكن ما علاقة فتى في سن لِمَرُورَح بأحداث من هذا القبيل.

عاوده التفكير في ذلك المطوي المجهول الذي يدسه في سراويله وكأنه قبلة مشحونة بالدِّينَامِيتْ، تتضارب الخواطر في ذهنه عن ماذا يفعل به، أيترك نَارَ كَتْمَانِه تأكل حشاشته أم يقذف بِجَمَمِهَا بَوْحًا لشيخه! يعرف أن الكتمان هو وصية الرجل الذي أعطاه المطوي في ذلك اليوم الغريب، فهل البوح به لشيخه يعتبر خيانة!

سأله لِمَرَابِطُ:

- هل نام الطلاب؟

كان لِمُرُورِح يغالب التوتر الذي يحتاجه، لم يكن قادرا في الحقيقة على أن يفتح شفثيه ولو بكلمة واحدة، لذلك اكتفى بهز رأسه: أن نَعَمْ! واختفى وراء الصمت. لاحظ لمرباط الحالة النفسية لتلميذه، كانت أول مرة يراه بذلك التوتر والحجل، استغرب الأمر ولكنه لم يمنحه كثير اهتمام. أعاد عليه قصة اختفاء خَطْرِي وكل تطوراتها، لم يكن هناك جديد في ما قاله، كان يمهد بذلك التقديم المُبَلِّ للدخول في موضوع هذا اللقاء السري، تحدث عن الوفاء بالأمانة وحفظ الأسرار طويلا.

خيل له أن شيخه قد كشف لروحه عما يختلج في نفسه، لكن عقله الذي تعود إنكار غيبيات شيوخ التصوف قمع ذلك الخاطر فأسكتته في الحين.

- سأطلب منك أمرا عليك كتمانها، ولولا الثقة فيك ما طلبته منك.

كان توتر لِمُرُورِح قد خف فقال:

- لا تخف يا شيخني المبجل، سرك في بئر مهجورة.

عدل لِمُرَابِط من عمامته وجمع كمي فضفاضته وراء ظهره، ثم أمسكها بيسراه وخطا باتجاه صَفَاة جرداء في نهاية الغابة الصغيرة، ثم تنحنح مثل من يريد أن يقول شيئا لا يود قوله:

- إن أحد الثقات من الذين يعاديهم النصارى أخبرني أنهم بعثوا رسالة إلى خَطْرِي مع أحد رجالهم، وأنه سَلَّمَهَا فعلا إلى أحد أبناء الحي، لكن الرجل قُتِلَ في طريق عودته قبل أن يعطي ملامح الشخص الذي سلمها له.

كان فمه يَفْغَرُ تدريجيا كلما أوغل لِمُرَابِط في الحديث عن شأن

الرسالة وصاحبها، ولشدة الدهشة قال وقد باغتته غصة حلق:
- أعطاهالي أنا.

ثم دس يده في سراويله وأستلَّها، وكأنه يَسْتَلُّ خيوطَ الهمِّ الثقيلِ من قلبه، مضت لحظات من الصمت المدهش، كان لِمَرَابِطُ يَقلبِ المطوي ظهرا لبطن، وعيناه تدمعان، زاد دمعه المتحدر من حيرة لِمَرُورِح، ومن غموض الرسالة التي تبكي مجرد رؤيتها ذلك الشيخ الوقور، فماذا سيحدث لو أنه فَتَحَهَا وعرف ما تنطوي عليه، زاد فضوله أكثر في معرفة ما بداخل ذلك المطوي.

جلس لِمَرَابِطُ على الصَّفَاةِ محاولا فتح المطوي اللغز، لكنه أحجم عن ذلك فجأة، طلب منه أن يسنده مشيا إلى منزله، فقد أحس ببعض الدُّوَار. أمسك بيد شيخه وجعل يسراه من خلف ظهره ثم وقف به، وبدأ يمشيان باتجاه منزل الشيخ، لما تجاوزا غابة الأشجار أمره بالانصراف، ونسيان كل ما دار بينهما الليلة، بل نسيان أنهما التقيا أصلا.

الفصل الثامن

قال خَطَّارِي متشَنِّجًا مجيبًا الرجالَ الذين فاجأتهم إناختُهُ جَمَلَهُ في ذلك المكان:

- نعم، سننزل هنا، هكذا أَمَرْنَا امهَادِي.

- امهَادِي ليس مَوْلَانَا، ولا حتى مَرَجَلًا مملوءً بالعصيدة ينقذنا من عضه الجوع.

قالها اَجْمَلُهُ وهو يعقد كُمِّي فضفاضته خلف عنقه، استعدادا لإنزال الأمتعة من على ظهر الجمل المُنَاخ.

- هذا المكان غير مناسب لضرب الخيام، فأرضه الصخرية لا تسمح بالحفر أكثر من شبر واحد، ما رأيت أغبى من رائدكم الذي اقترح هذا المكان.

- ضع أصابع يدك الخمسة على فمك، وابدأ في إنزال الأمتعة أيها الحسود.

تبعثرت الدنيا في ذلك القاع الأقرع، الخيام والأمتعة والصبيان والجمال والحمير والعبيد والإماء كل ذلك يموج بعضه في بعض، فالحي نزلوا للتو بعد رحلة طويلة وشاقة. الإماء شبه عاريات

منشغلات بضرب الخيام، بينما ينشغل العبيد بإنزال بقايا الأمتعة عن الجمال، وتقييدها بشدة حتى لا تبعد في مرعاها، فالحي النازلون قبيل ساعة لا يدرون متى تنتهي مهمتهم ويقفلون راجعين. الرجال يجيئون ويذهبون في حركة نشطة وجلبة أصواتهم تختلط بخوار الأبقار الهزيلة، بفعل فصل الصيف وشدة الجذب، والمرهقة بمواصلة السير يومين دون توقف. تعكس وجوههم الإرهاق والحنق المر الذي يحتاج نفوسهم، فقد ارتحلوا كارهين، وتذكي شمس مايو الحارقة ذلك الحنق، فيرتسم تغضنات على جباههم، وكلمات قاسية مقتضبة في أحاديثهم البينية.

الأطفال وحدهم لا يعبؤون بحرارة الجو ولا بضغائن النفوس، يحتفون بالمكان الجديد كأنهم في يوم عيد، أجسادهم عارية إلا من تائم جلدية تتدلى مع أعناقهم، وأخرى في شكل حبال جلدية تلتف على خصورهم. وبين الحين والحين يمر زنجي من أعوان النصارى مستطعاً، فتشحذ ملابسه الافرنجية وقبعته التي تغطي كل شعر رأسه فضول الأطفال، الذين يتوقفون عن كل شيء، سوى تتبُّعه بنظراتهم الحيرى، حتى يواريه السراب، ويثير استغرابهم أكثر سواده ومرافقته للنصارى المتنفيين.

قال أحد الأطفال المراهقين لصاحبه وهو يحاوره مستغرباً:

- ما الفرق بين هذا الإنسان وبين امبيريك وامسيعيد اللذين يشبهانه في سواد اللون وفطس الأنف وغلظ الشفتين، ويختلفان معه فقط في خرقها البالية التي لا تكاد تستر عورتيهما المغلظتين، بينما ملابسه أنيقة وضايفة.

عصر صاحبه العاري تماماً علكة الصمغ السائلة في فمه، ثم قال

مغمغما:

- كما يختلف عنهما في قبعته التي تمثل شارة علاقته بنصاري تامشكط.

الشيء الذي لا يفهمه الصغار هو ما يرونه من معاملة آبائهم لأولئك الزوج القادمين مع النصاري، تلك المعاملة التي يبدو فيها أولئك الزوج أسبادا يستحقون التكريم والحفاوة، هكذا يهجس في نفوسهم التي تعودت قسمة بني آدم على أساس لوني خالص، يستحق فيه الأبيض منزلة الكرامة، ولأم الأسود الهبل.

بضع نسوة تجلسن تحت شجرة عرضيب ظليلة متشحات بملاحف سود، وجوههن شاحبة ومتعبة، لكنها تعكس جمالا أصليا لم تستطع قسوة المناخ الصيفي الصحراوي الحار أن تحجبه. تطنى وحدة الزي وأنماط عَقَصِ الشُّعُورِ وعادات المشي والالتفات على الفروق الطفيفة بينهن في الملامح العامة، فلا تكاد النظرة الأولى تميز بينهن، لكأنهن توائم خرجن من رحم واحدة، ملاحفُ «النَيْلَة» التي جلبتها لهن قافلة خائي قبل أكثر من سنة، تسريحة الشعر التي تشد وجوههن وأشعارهن بنفس الطريقة.

تحملن على رؤوسهن نفس التاج البدوي، إنه تَقْلِيَعَةُ النسوة في تلك الأيام، عُوْدٌ معقوف في شكل قوس تضعنه على مقدمة جباههن مشدودا بصفائر محكمة القتل. تتدلى أسلاك قماشية رقيقة من القماش من آذانهن، إنهن بذلك يحافظن على الثقوب التي توضع فيها أقراط الذهب والنحاس في أوقات الزينة، يتشابهن في طريقة الجلوس وزَيْغ العيون حين يبصرن إنسانا غريبا فيتطلعن إليه بفضول موارب.

وحدها تَرَبَه فَالْ كانت مُمَيَّزَةً بينهن، تلبس ملحفة بيضاء مطرزة

برسوم ملونة، كان زوجها خَطْرِي أهداها لها قبل سنتين عند عودته من أرض السودان، اشتراها بثمن غَالٍ من عند تاجر هندي تعطلت به إحدى السفن في شواطئ الأطلسي، فقرر بيع تجارته في أسواق قرى السودان. حَوَافٌ ملحفتها منسوجة بخيوط قماش مفتولة تمنحها هالةً أميريةً ساحرةً، حين تتدلى تلك التطريزات الملونة على حواجبها تتشكل لوحة فنية نابضة بالفتنة الأثوية.

تَرَبَهُ فَالٌ من ذلك الصنف من النساء اللواتي وهبهن الله مسحة جمال فردوسي أخاذ، عيناها السوداوان الواسعتان وأنفها الأقرنى الطويل وشفثاها المترددتان بين الاكتناز والارتخاء، كل ذلك يمنح وجهها جمالا طبيعيا، لكن جُرْحًا قديما مطبوعا على خدها الأيمن يعطي ذلك الجمال نكهة خاصة. لا يحتاج حسننها إلى رعاية تجميل، لوجهها نفس السحر والبهاء، سواء كانت تحت الشمس الحارقة أو في كَنَفِ الظلال، تلك الملاحظة خلدها خَطْرِي في شطرين مشهورين:

زَيْنَهُ وَسَمِينَهُ

وَلَا نَكُظَّتْ

استطاعت أشهر متطاوله من الهم والحزن على زوجها المفقود أن تأكل كثيرا من جسمها فبدت أكثر نحافة، ولكنها لم تستطع أن تنقص من جمالها مِثْقَالَ بَهَاءٍ، بل إن النحافة النسبية زادت بها جمالا ونضرة، ذلك ما تتهامس به نسوة الحي كلما رأينها.

كانت أخبار عرس بنت امهَادِي المرتقب أن يقام خلال أيام «الحَصْرَه» تستبد بأحاديثهن، أثرن كل التفاصيل الواقعة والمفترضة؛ نَسَبٌ وَحَسَبٌ العريس الشاب وملاحمة الجسمية والنفسية. أما الفتاة العروس فقد وضعنها على مشرحة التقويم عَضُوءًا عَضُوءًا، تصورنها

وقد أفرغت فيها مزيينات العرائس كل خبرتهن، طَرَزُ الحِنَاءِ ونمطُ التسيحة ورائحة البخور الممزوجة بأخلاق من النباتات والزيوت العطرية وزبدة البقر، فازت في الأخير باستحسانهن.

تلتهب نار الغيرة في جوانح بعضهن فَيَتَمَنَّينَ ما لا يقدرن على البوح به، فيترجمنه دعاء ممجوجا بالبركة والخير للعروس، أنبأت إحداهن أن أهل الزوج جلبوا معهم مغنين وعازفين ماهرين، وأن سَدُّومُولد النَّكَرَايَ قرر عدم المشاركة في الحفل، لكن حرص امهَادِي على مشاركته جعله يراجع قراره، علقت إحداهن على الخبر بنبرة عاتبة:

- لقد أخطأ سَدُّومُومٌ في هذه، ليس في هذا الحي أسرة أقرب إليه من غيرها.

كان واضحا أنها ربما فهمت أن رفضه المشاركة في حفل بنت امهَادِي كان بسبب تضامنه مع أسرة خَطَرِي المختفي منذ فترة، أوقفت فتاة أخرى العبت في شعر صديقتها إذ كانت تَقْلِيهِ، ثم قالت محاولة صرف الأذهان عن تهمة زميلتها لسَدُّومُومٌ بالانحياز، وكانت إحدى بناته حاضرة:

- تعرفين أن سَدُّومُومٌ يكره الغناء بحضرة الفنانين، ولا يطيب له إلا إذا كان وحده خوفا من العين، وسمعت أن امهَادِي سيسقيه ماء به أحجبة خاصة تحصنه من عيون الحسدة.

كانت امَّانه بنت سَدُّومُومٌ تُوقِّعُ بأناملها الرخصة توقيعات خفيفة منتظمة على دُفٍّ صغير تضعه في حجرها، جِلْدُ جَدِيٍّ مَدْبُوعٌ مشدودٌ بِسُيُورٍ مُحْكَمَةٍ على فوهة قَدَحٍ خشبي متوسط الحجم. لا يفارقها ذلك الدُّفُّ منذ عقلت أيامها الأولى في الدنيا، لكأنه وثيقة انتسابها إلى تلك الأسرة العريقة في الفن، رجعت هينمةً شجيرةً، صادف ذلك اقتراب

العَالِيَه بنت خَطْرِي من مجلسهن، فمدت حبال صوتها منشدة:

سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلَ بْنَ مَعْمَرٍ

إِذَا مَتَّ بِأَسَاءِ الْحَيَاةِ وَلِينَهَا

وَإِنَّ سُلُوبِي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةٌ

مِنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينَهَا

أعدت البيت الأخير بتمطيط صادق اللوعة، سلكن طرائق قددا في الذي أرادته أمانه بإنشاد هذين البيتين تزامناً مع اقتراب العالیه، وفي سياق حديثهن عن انحياز أبيها لخطري. تشاءمت العالیه في داخلها من ذكر الموت في البيت الأول، وحسبت ذلك فألاً سيئاً، وتيسساً من عودة أبيها، فاتهمت أمانه بنفاق أمهادي لأنه شيخ القبيلة، لكن أخريات حسبته انحيازاً لخطري، خصوصاً بعد تمطيطها البيت الأخير الذي يؤكد أنه لا سلو عن الحبيب ولو طال الفراق. والحقيقة أن أمانه لم يدر في خلدتها شيء من ذلك كله، ولكن الجو المشحون بالضغائن يُلبس الكلمات المعاني التي تدور في ذهن المستمع، لا التي يهدي إليها ظاهر المفردات.

- لماذا تتفألين الموت لأبي؟ ما هكذا يكون جزاء الإحسان الذي غمركم به، سيأتي رغم أنف الحاسدين.
ابتسمت أمانه مستغربة من كلمات العالیه التي بدأت بها، أرادت أن تُغيّر وجهة الحديث:

- سلّمي علينا أولاً يا بنت الكرام! وزوريني كي أزيّنك، فلمرورح لن يفوت حضور هذا العرس البهيج.

ما إن اخترق اسمه طبله أذنها حتى أشرق وجهها بالحياء الأنثوي،

الذي يفضح المشاعر التي اختلجت في نفس صاحبتة.

ساد الصمت لحظات، انتهت بعض النسوة إلى أن الظل بدأ
ينحسر، فتسللن نحو خيامهن.

كان أمهادي قد وصل قبل بقية الحي، ومعه موكبه المؤلف من عبديه
الأثيرين النَّائِمِي وَاتْوَيْدِيمَه، ذهب هو بنفسه إلى حيث يقيم نصراني
تَامَشِكْطُ، كما يسميه الذين لا يحتفون بوجود الفرنسيين، بينما ذهبت
بقية الحي إلى المكان الذي حدده هو لهم في منخفض «لِفَدَه». ورغم
اطمئنانه إلى نجاح خطته في تحييد سلماتي أخي خَطْرِي والرجل القوي
عن حضور «الْحَصْرَه»، إلا أن شعوره بترقب الحي إتحافهم بجديد عن
القضية يزعجه جدا، لقد كان يستمهلهم حتى يلتقي بالنصراني، فماذا
هو الآن قائل وقد التقى به!

لقد أصبح عاريا من الزمن الذي تذر به مدة أشهر، استطاع خلالها
أن يؤجل انفجار الغضب المضطرم بين جوانح عصابة خَطْرِي، معولا
على أن كَزَافِيَّه سوف يعلن روايته للقضية في هذه «الْحَصْرَه»، وَيَبْرَثَه
من أي دور فيها، ثم يكافئه على تعاونه معهم في القبض عليه. لكن
كَزَافِيَّه لا يبدو متحمسا لذلك، لقد تغيرت خُطَّتُه بعد ما قاد بُوتِيَّيب
تَمَرَّدًا في ثلاث مجموعات قبلية ضخمة، عقب تدخل الإدارة الفرنسية
لفرض تنصيب رجل متعاون معها شيخا لمجموعته.

لم يكن الشيخ المفروض بقوة الإدارة محل اتفاق، بل كان أغلب
أبناء عمومته رافضا له، وكان بُوتِيَّيب الذي ينافسه وجيها اجتماعيا
محبوبا لكرمه وشجاعته وبلائه الحسن في الذب عن مجد المجموعة
وسمعتها في القبائل المجاورة.

كان الفرنسيون يكرهونه رغم أنه لا يعلن مواقف عدائية ضدهم،

ولكنه صعبُ المراس وقوي الشخصية، يعاملهم بِبِدْيَةٍ وَأَنْفَةٍ، قاد جبهةً لرفض دفع الضريبة احتجاجاً على تدخل كُزافييه لصالح خصمه. كان الأمر مزعجاً للنصراني الذي جرب التهديد أول الأمر واعتقل بُوتَيْبُ، لكن اعتقاله أدى إلى تَمَرُّدِ مجموعتين أُخريين يمت لهم بُوتَيْبُ بالخشوة والمصاهرة، كما اعتدى مجهولون من أنصاره على أحد أعوان النصارى.

اضطر كُزافييه خشيةً اتساع دائرة التمرد إلى الإفراج عن بُوتَيْبُ، الذي قبل بعد مفاوضات داخل معتقله بتأمُشِكُطُ أن يوقف التحريض مقابل تَعَهُدٍ من كُزافييه أن يقلل الشيخ الأول، وينصب مكانه شَيْخاً آخر لا ينحدر من عائلتي الرجلين المتصارعين.

هذه الظروف كلها جلبت القلق المُصَّصَ لأمهَادِي، كان يحسب الأمر مجرد زوبعة صيف لا تلبث أن تقشع، تتكفل الإدارة الفرنسية بقمع الرجال الغاضبين، ويتكفل هو بتضميد جراح أخته تَرْبَه فَالُ، ثم يخلو له وجه المجموعة يتأمر عليها بقية عمره. لكن الأمر مختلف الآن، الإدارة الفرنسية غيرت سياسة العنف خوفاً من غضب هؤلاء البدو الأَجْلَافِ، واعتمدت سياسة اللين والترويض الناعم، وهي في سبيل ذلك تمد يد التشاور والأعطيات للمشاغبين السابقين.

بُوتَيْبُ صديق حَظْرِي، وشبيهه في صعوبة المراس وقوة الشخصية، استطاع أن يُنَحِّيَ غريمه الذي فرض بالقوة من منصب شيخ القبيلة، كما أصبح بفعل السياسة الجديدة مستشاراً يلتقي الحاكم الفرنسي دون أي وسيط، ويقبل رأيه وشفاعته.

وصل ذهنه إلى تلك الحالة التي تجذب المخيلة من أي فكرة للحل، ذهنه الذي اعتاده أخصب من سهول «رِيُوكُ» لا يستطيع الآن أن

يُنْبِتَ أي فكرة، فقد غدا مهجوسا بالتشاؤم حول مصيره بعد انتهاء هذه «الحَصْرَه» المنحوسة، التي تشهد زيادة على التوتر الداخلي مشاكل بُوتِيْبٍ وأقوامه. وليس هذا وحده، فإنها ستشهد أيضا إعلان رفع قيمة الضرائب المدفوعة عن المواشي، وإضافة ضريبة جديدة على العبيد، بفعل الأزمة المالية الدولية، التي قلصت بموجبها فرنسا ميزانية إدارة المستعمرات، فقرر الحاكم العام لمستعمرات غرب إفريقيا وضع خطة لسد النقص الحاصل في الميزانية.

هداه تفكيره إلى رفع قيمة الضرائب على الماشية، ولكن هذا لم يكن كافيا، حَزَبُهُ الأمر قبل أن تُسَعِفَهُ خبرة ثلاثة عقود من التعامل مع رجال هذه الأرض القاحلة، الذين تخفي حياتهم العفوية وملاحظهم الجافة كثيرا من حصافة الرأي ورجاحة العقل، لقد تعلموا الالتفاف الرشيق من أفاعي الصحراء.

استدعى ثلاثة من خيرة شيوخ القبائل من مختلف أطراف الصحراء، من جبال الحوض إلى كثبان شواطئ الأطلسي، صارحهم بالأمر وطلب منهم الرأي، لم يخب ظنه، اقترح عليه أحدهم أن يجعل ضريبة على العبيد الذين يشكلون ثروة كبيرة في المنطقة، لم يَرْتَحْ أولا للمقترح الغريب، خصوصا أن القوانين الفرنسية صريحة في تجريم الرق، ومع ذلك بدت له الفكرة واقعية جدا.

أرسل بالأمر مرسوما سريا إلى حكام المناطق، مُرَفَّقًا بتوصية عدم كتابة ذلك في التقارير الدورية المرفوعة إليه، والبحث عن صيغة مطابقة للقانون، قالوا لملاك العبيد بأنهم يدفعون في العادة ثلاثة فَرْنَكَاتٍ عن كل شاة، وأن الماشية البشرية (العبيد) يجب أن يدفعوا عن كل واحد منها قيمة ثلاث شياه، أي تسعة فَرْنَكَاتٍ، فأصبحت

ترى رجالا يدفعون ضرائب عن خمسين شاة، وهم لا يملكون في الواقع شاة واحدة، لكنهم يملكون عشرين عبدا.

يتجمهر عدة رجال حول «لُعَيْدَلَّ» الذي يضم رجله على عود متوسط الغلظ، يمسك طرفه الأعلى بيسراه، بينما تمسك يده اليمنى بسكين عريضة يخرط بها العود حتى يصبح أكثر ملاسة، مُكَوَّرًا قطعة قماش سوداء بالية على رأسه، ومتمتها بقرآنه الذي لا يفتر عن تلاوته، تبرز العروق في يديه وذراعيه وتتشابك كأغصان شجرة أجهدها الجذب، كما ينبىء وجهه الأشعل وعينه الداكتتان عن تاريخ من العمل الشاق ومكابدة أشعة الشمس.

بين الحين والآخر يكمل تمليس عدة عيدان ثم يرميها إلى أحد الرجال، تستخدم تلك الأعواد أوتادا لطُنْب الخيام، وتوضع عليها الأعمدة التي ترفع الأَسْرَةَ الخشبية، الفراش المفضل في تلك المنطقة. وكلما انصرف رجل بنصيبه من الأوتاد جاء مكانه رجل أو اثنان، منهمكا في عمله غير عابئ في الظاهر بلغظ الرجال حوله، وكأنه عالم نووي يراقب الحركة الأولى لجهاز طَرْدٍ مَرَكَزِيٍّ، لكن الحقيقة أنه كان ينصت لأحاديثهم بأذني فَرَسٍ.

تدور أغلب أحاديثهم حول امهَادِي، وأنه لن يأتي بجديد من عند النصرارى، وأن لا أمل في عودة خَطْرِي الذي تؤكد كل الدلائل أنه قد مات، لم ينبس أحد منهم بذلك في صريح قول، ولكنه كان واضحا في نبرات أصواتهم وتعقيباتهم المقتضبة. فقد عودتهم تجارب الحياة الحصافة والاحتياط في التصريح بالمواقف والتوقعات، خصوصا إذا تعلق الأمر بالنصرارى، لم يستطع الفرنسيون أن يروّضوا إنسان الصحراء على قبول النظام لكنه أتقن في زمنهم لعبة الأفنعة.

وعى لِمُعَيِّدٍ كل تلك الإشارات والتلميحات، وقرأ برأسه الكبير الأصلع المدور في ما وراء الكلمات أشياء كثيرة، وكون آراء ناضجة حول ما يمكن فعله لمعرفة المصير الحقيقي لِحَطْرِي، ولتلافي الحي قبل أن تندلع نار الغضب المضطربة بذات الصدور. تمنى لو يستطيع مطارحة تلك الآراء الراشدة مع رجال الحي، لكن هل يحق لصانع تقليدي أن ينسب بنت شفة في أمر كهذا!

إن الأعراف الاجتماعية تفرض عليه أن يظهر الود للجميع، وتُحَرِّمُ عليه إعلان الرأي واتخاذ الموقف في أي قضية عامة، أحس بمرارة هذا الوضع الاجتماعي الذي يجرد الإنسان من أهم ملامح إنسانيته. سرح ذهنه قليلا وهو يفكر في تلك الأمور، لم ينتبه الرجال لشروده إلا حين سكنت يده الممسكة بالسكين عن خرط العود المنتصب بين رجله.

قال أحد الرجال وصوته يختلط بقهقهة هازئة.

- ما الذي تفكر فيه يا لِمُعَيِّدٍ؟

أجابه آخر جاعلا كُمَّهُ على فيه حتى لا يظهر هَتَمُ أسنانه.

- لعل رائحة الشَّوَاءِ غَزَّتْ مِنْخَرِيهِ، فَجَدُّهُ كان يبني خيمته عكس اتجاه الرياح حتى لا تفسد عليه روائح الشَّوَاءِ والطبخ عمله.

واصل لِمُعَيِّدٍ عمله رغم الغضب الذي اجتاح نفسه، وتزاحمت في ذهنه عشرات الأسئلة، ما الذي جعل هؤلاء الرجال يدوسون على مشاعره دون أن يؤنبهم ضمير، ما الذي يفضلونه به!

ظهر راكبان من خلال السراب، لا تزال تفصلهما عن المكان الجديد للحي أكثر من عشر كيلومترات، لكن لِمُعَيِّدٍ استطاع لحدة

بصره وقوة فراسته أن يعرفهما.

- إنهما سَلَمَاتِي وَاْمَبِيرِيكَ الْعَبْد قَافِلِينَ مِنْ رِحْلَةٍ تَتَّبِعُ أَحْبَابَ
خَطْرِي.

قال رجل عابثا بشفتيه ولسانه، ما أضاف لصوته نبرة توحى
بالتكذيب.

- أوووه، كيف عرفتهما؟

قال أَجْمَلُهُ وهو يرفع أكام فضفاضته إلى منكبيه، متأهبا لنقل العجل
الذي انْسَلَّ للتو من أحشاء أمّه إلى ظل الشجرة المجاورة:

- هذا أسوأ خبر بالنسبة إلى امهّادي اليوم.

أثارت كلمته فضول أحمّدوناً الذي كان يمر إلى جواره ممسكا بأذن
حمار كان يستقي عليه من البئر، كان الحمار يلهث من شدة الحر، ومن
ثقل القرب الستة المحمولة على ظهره، قال بصوته الخفيض كمن يريد
أن يقول شيئا ولا يريد أن يقوله:

- أَجْمَلُهُ، خَلَّ عَنْكَ إِثَارَةُ الرَّمَادِ.

قهقهه أَجْمَلُهُ واستطال في الضحك، متذكرا وجه أحمّدوناً المعفّر بالدم
والتراب وهو مربوط إلى قوائم الفرس التي كانت تجرّه. ففهم أحمّدوناً
ما تشير إليه قهقهة أَجْمَلُهُ فكظم غيظه خوفا من أن ينفلت عقّالُهُ، فهو
لا يزن كلماته ولا يداري مشاعر الناس.

الحقيقة أن امهّادي لا يسره قدوم سَلَمَاتِي في هذه الأيام، فقد
استطاع أن ينجح في إحضار مجموعته رغم استفحال النزاع، لم يتخلف
إلا سَلَمَاتِي الذي خرج هو وَاْمَبِيرِيكَ باتجاه «تَامُورْتْ لِكُورْ» وفق خطة
البحث عن مصير خَطْرِي التي وضعها امهّادي، وهي خطة كان

يرمي من ورائها إلى إبعاد سَلْمَاتِي أَخِي خَطْرِي عن الحي، حتى يتمكن من إخراجهم نحو «الحَصْرَه» التي تأخر عنها كثيرا بسبب تطورات القضية.

نجح امْهَادِي بحنكته السياسية ومكره الثَّعْلَبِيّ في إبعاد سَلْمَاتِي، ولكي يرغم جميع رجال الحي على السير معه إلى مكان انعقاد «الحَصْرَه» أعطى أحد «كُومِيَات» أعوان النصارى قائمة بأسماء رجال الحي، ووعدته بأن يعطيه جَمَلًا إن هو استطاع أن يرغمهم على الخروج إلى «الحَصْرَه».

جاء الزنجي بصفته مبعوثا من الحاكم الفرنسي، نادى بأسماء الرجال واحدا واحدا، وأخبرهم أن عليهم أن يكونوا عند منطقة «لِفْدَه» بعد أقل من يومين مع عائلاتهم ومواشيهم وعبيدهم. ولم يبق أمام الرجال سوى الإذعان المرُّ لأوامر مبعوث الحاكم الفرنسي. تجهَّز الحي للرحيل على مضض، يعرف امْهَادِي أن سَلْمَاتِي بذكائه وجرأته وأسئلته الكثيرة والمثيرة قد يكشف خيوط الصفقة التي عقدها مع الزنجي.

ما إن استطاع امْبِيرِيك أن يتبين وجوه القوم حتى سرت قشعريرة في جسده تحولت إلى رعدة في أطرافه. لاحظ سَلْمَاتِي التَّغْيِيرَ المفاجئ الذي حصل له، فحدجه بنظرة غاضبة، ثم همس له في خبث: «لا تخف سأكتب لك تعويذة تعلقها تيممة في ذراعك الأيمن، ولن ينتابك بعدها أي خوف». كان يعرف سر رهبة امْبِيرِيك، إنه يتذكر المهمة التي كلفه بها قبل أيام، مهمة قتل امْهَادِي، تحولت تلك المشاعر المضطربة في نفسه إلى هُمِّي شديدة في جسده، وما إن وصل الحي حتى طرحته أرضا.

لم تمض ساعة حتى تجمهر أكثر من عشرة رجال حول سلماتي الذي كان جالساً في الجهة الغربية لخيمته، مُفترشاً مهادا جلديا وثير الشعر، كان ضاحيا تحت أشعة الشمس المائلة للغروب، وإلى جنبه عبده بتأمه مُفترشاً الأرض يراقب القمقم الذي بدأت الأبخرة تتصاعد من فوهته، بينما كانت زوجته لعناد تجلس في الجانب الشرقي من الخيمة ترقع جوالقاً. تقاطر الرجال مسلمين على سلماتي بعد قدومه من رحلته الشاقة البعيدة، ومتلهفين لسماع ما جاء به من طارف أخبار خطري، بينما كان سلماتي متلهفا للسماع منهم حول ما استجد بعده من أحداث خاصة «الحصره»، التي لم يكن على علم بها حتى أخبره أحد الرعاة وهو على مقربة من وادي الحطب حيث ترك الحي نازلين.

- ما الذي اضطرركم للرحيل في هذه الأيام القاسية؟

سكت الجميع، فلا أحد يريد أن يبدأ في الإجابة على هذا السؤال العنقودي، مسحهم بنظراته متظاهرا باستغراب صمتهم المفاجئ، رغم أنه يفهم سببه جيدا.

أجابه أحد الرجال وهو مشيح بوجهه عن أشعة الشمس المائلة للغروب:

- جاء بنا نصراني تامشكط، فمن غيره يستطيع أن يرغمنا على الرحلة في هذا القيظ الشديد!

ثم أردف محاولا تغيير وجهة الحديث:

- أليس هذا المكان لا يزال مشمسا أيها الرجال؟

تنحنا أحمداً وكمن يغص بالريق، ووضع عمامته المكورة في يده على صلعته، وقال كما لو كان يرتل آية من القرآن:

- شمس المسَا تضر النَّسَا، وشمس الضحى تضر اللُّحَى .

هز الجميع رؤوسهم بطريقة تعبر عن رضى مُوَارِبٍ لتجاوز إحراج السؤال الذي طرحه سَلْمَاتِي قبل قليل، لكنهم في الحقيقة يودون إعادة طرحه، ويتمنى كل واحد منهم أن يجيب الآخر عنه.

فجأة كان النَّاجِي يطلع بِعُكَّازِهِ مسرعاً قَدَرَ ما تسمح به رجله العرجاء لِلْحَاقِ بهم، كان يزجر من بعيد فيسمعون صوته:

- أهذه جلسة من يفقدون خَطْرِي! لا ينقضي عجبى منكم أيها الرجال، هل ترضون أن تكون تَرْبَهُ فَالٌ وَعِيَالُهَا في حالة الحزن والجزع على أبيهم، وأنتم تشربون شاي «الذَّهَبِي»، وكأنكم في يوم عيد.

ضحك أَجْمَلَهُ مِلْءَ شفاهه الغليظة، وقال بصوته الخشن في بهلوانية مقصودة:

- آآه، تعال أيها النَّاجِي حتى تمخض زبدة هذا اللبن الرائب. انفجر مقهقها فقهقه الرجال غَضَبًا عنهم، وضرب بعضهم كَفَّهُ في كَفِّ مُجَاوِرِهِ، حضر النَّاجِي فقام الجميع له وانحنوا تحت يده الذي مسحت مناكبهم جميعاً، ثم أشار إليهم بالجلوس، بينما أشار له سَلْمَاتِي أن يجلس على فراشه الوبري الناعم.

قال خَطَّارِي الذي كان منهمكاً في قتل حبل من التيلِ سائلاً سَلْمَاتِي:

- هل رأيت على طريقك بعض ضوالم الحي؟

مَرَّرَ النَّاجِي يده اليمنى على لحيته المشتعلة شيباً، وقال بصوت عتابي:

- نُحُووْخْ، لو غيرك قالها يا خَطَّارِي، سَلْمَاتِي لا تُخْبِرُهُ عن أي

ضَالَّةٌ، ضالَّتْنا التي نَسألُ عنها الآن هي ابنا الكريم ابن الكريم
خَطْرِي، فما الذي جئتَ به من أخباره؟
عدّل سلماتي من جلسته ومسح يده على صلته ثم قال بصوت
احتجاجي:

- لولا إلحاحكم - كما تعلمون - لما ضيعت كل هذا الوقت في
البحث عن رجل عرفت مصيره، على كل حال، أخبرني رجال في
«تأمورِتْ لِكُوْر» أنه رجع من عندهم نحو وادي الحطب، بعدما
وصلته رسالة من شخص ما تستعجل عودته.
مدّ يده إلى نعله وضرب بها عقربا خرجت من تحت السرج المرمي
إزاءه، ثم أردف قائلا:

- وأنتم أيها الرجال ألم تجدوا فرسه وملايسه قبل ستة أشهر في
مدخل كديّة تنكّاره؟ ما الذي بقي من رجل سلب فرسه وليّاسه!
اللهم إلا جنة في السجن أو في القبّ ...

قال الناجي مقاطعا سلماتي الذي بدأ الغضب يظهر في نبراته:

- أوووه، لا تنطقن بما كرهت، إن البلاء موكل بالمنطق.

لكن سلماتي قال له بحسمٍ غاضبٍ:

- خطري خبره بين أمهادي والنصراني.

صَجَّ خَطَّارِي مستنكراً اتهام أمهادي بالضلوع في القضية، وتراشق
مع سلماتي بكلمات جارحة، اتهمه فيها بالسعي للإطاحة بأمهادي
وحسده، كاد المجلس أن يتحول إلى ساحة حرب عندما صَفَعَ أحد
أقارب سلماتي وجهه خطاري فأذماه.

أراد أمحدونا أن يوقف المهارشة فاستقبل القبلة وصدح بأذان

المغرب، بينما أخذ النَّاجِي بيدَ خَطَّارِي الذي كان الدم يسيل من أنفه،
وكلمات السب والشتم والوعيد تطاير الرِّيقَ من بين أسنانه، كان آخر
ما سمع منه وقد ابتعد به النَّاجِي:
- سوف أقتلك ولو طالَت الأيام.

الفصل التاسع

أحسَّ النَّائِمِي المرتفقُ غير بعيد من خيمة «أشْيَاخَه» خشخشةً أرجل، كان الوقت قبيل السدس الأخير من الليل، ولأنَّ الأجواء غير وُدِّيَّة كان متحفزاً لأيِّ خطَرٍ. وضع الإبريق الذي كان يسكب منه الشاي على الأرض، امتشق بندقيته بسرعة، ورفع أذنيه مستطلعاً جهة الصوت.

كانت أولى الليالي البيض من شهر صيفي، السماء صافية والقمر ساطع لدرجة رؤية حركة النمل على الأرض، والخيام مطوية على أعمدتها بسبب الحر، ما يعني أن لا شيء يمكن أن يخفي. أنكر سَمْعَه، فقد هدأ الصوت. أمسك مقبض الإبريق ثانيةً ووضعها على الجمر، فبدأ صوت غليانه يشوش ذهنه فاستدار بالخيمة ليتأكد.

مسح ما حواليه بنظرة خاطفة، فاعترض رؤيته شَبْحُ رجل فارح الطول تحجبه شجرة المسيم التي تقع على بعد حوالي أربعين متراً. الغريب أنه آت من جهة الغابة لا من جهة منازل الحي. اختبأ خلف الجذع الضخم لشجرة الطلح التي تشدُّ إليها أحد أطناب الخيمة، ثم أمسك بندقيته واضعاً يده على الزناد، وفحصَ القَادِمَ بنظرة أخرى:

«فضفاضة حَظْرِي وعمامته، ولكن طبيعة الخطو وطول القامة ليستا له!» هكذا جال بخاطره المتحفز في تلك اللحظات، كما أثار تحفظه أن الكلب لم ينبح، وتلك حالة لا تقع إلا إذا كان يعرف الشخص القادم. لما أصبح الإنسان القادم قريبا جدا، أطلقت ذاكرته العضلية صرخة يعتادها في المواقف المشابهة:

- قِفْ، وإلا فسيأكلك البارود.

جاءه الصوت رخيما حاسما:

- النَّائِمِي، صَعَّ مدفَعك واسكت فمك، الويل لك إن نطقت.

ارتطم في ذاكرته ما يشبه الصخرة، فارتجح دماغه وأصابه الدوران بسبب الصوت الأثثوي الذي خرج من أكمام الفضفاضة الرجالية، ثم هو صوت مألوف لديه أيضا، ولكن بُعَدَ توقعه لصاحبته في ذلك الهزيع من الليل، ولباسها الرجالي جعلها لا تخطر بباله.

لقد كان مشهدا دراميا هائلا، عرفها أخيرا فأسقط في يده واجتاحته رعدة مفاجئة لدرجة أن رجله عجزتا عن حمله، فجلس مفترشا الأرض، لكنه بقي ممسكا ببندقيته:

- هذه أنت ...

- قلت لك لا تنطق باسمي، وإلا فالويل لك.

تركته يكرر الحَوْقَلَةَ فرعا، وخطت نحو امهَّادِي، كان ينام كعادته وحده على سرير خشبي غير بعيد من الخيمة التي تنام فيها زوجته وأبناؤه، محروسا من عبده النَّائِمِي، تلك عادة الشيوخ في تلك المنطقة، فلاّهم عرضة لحوادث الثأر والانتقام ينامون على أَسِرَّةٍ منفردة، حتى لا يصاب أحد من العائلة بسوء إذا حصل مكروه.

جلست عند رجليه وغمزتها بخفة، ما إن رأى فضفاضة حَظْرِي وعمامته حتى سرت في جسده دوخة لم تتوقف حتى حسرت عن وجهها، كانت ملاحظها مكفهرة تحت ضوء القمر الوضاء، لقد تَغَيَّرَتْ كثيرا، فمنذ أكثر من ستة أشهر لم ير وجهها. وما إن تقابلت العيون الأربعة حتى قالت له:

- أظن أنك ستبقى حيا وقد قتلتَ حَظْرِي؟

أجابها وصوته لا تزال به أخريات الفرع الذي اجتاحه قبل قليل.

- هل أنتِ حقًا تَرَبِّهَ قَالَ، أم أنتِ جِنِّيَّةٌ تلبست صورتها؟

- اسمع أيها المخادع الغدار، إني أعرف كل ملابسات قضية اختفاء زوجي، كل المعلومات لدي، وكل ما كنت تقوم به من تمويه لم ينطل عليّ لحظة واحدة، لكنني كنت أظن أن قلبك سيعطف على أختك، وعلى أبنائها الذين أفقدتهم أباهم، واليوم أدركت أنك ثعلبٌ بلا قلب، سأفضحك وسأقول كل شيء، ولن أكرمك عليك بعد اليوم. وإن كان حَظْرِي قد مات فاكتب وصيتك.

كان ينظر إليها فيخيل إليه أن الكلمات تخرج من شخص آخر، إذ لم يكذب صدق أن تَرَبِّهَ قَالَ يمكن أن تواجهه بهذه القسوة العارمة، تَرَبِّهَ قَالَ الأخت الحنون التي كانت إذا أرادت تأكيد أمر حلفت بحياة أخيها أمهادي حُبًّا له وإعجابا به. لا يذكر أن قلبه اهتز لشيء في الدنيا قبل تلك اللحظات، مرت أمامه أحداث ثلاثين سنة لا يذكر أنه رأى فيها أخته غير مبتسمة مشرقة القسَمات، ولا أنها حَدَقَتْ فيه إجلالا له.

أعاد النظر إلى وجهها الذي بدا ممتعا أكثر من ذي قبل، كانت شَفَتْهَا السفلى ترتعد من شدة الغضب، وكان ما بين عينيها يتغضن بشدة، استعاد تدريجيا شيئا من توازنه، وربط بين المشهد الذي أمامه

وبين بعض ما تناهى إلى سمعه في الأيام الأخيرة.

قال بتودد وقد اغرورقت عيناه:

- مالك يا فالتنا، وما الذي يحزنك؟

اخترقتها دموعه كسكين، ولكنها تماسكت حتى لا تظهر أمامه أي عاطفة، وقفت ثم بصقت على وجهه. ولّت مدبرةً بعد أن حطّمت كل كبريائه في لحظات، نظر حيث ترك النائم قبل النوم مرتفقاً يدير كؤوس شايه حارساً، لم يره هناك، رمى بطرفه غير بعيد فرآه واقفاً يحمل بندقيته، أشار إليه أن أتت.

وقف إلى جنبه فلاحظ الوجل البادي على قسماته، والبندقية ترتجف في يمينه، لم يحتج إلى سؤاله عن السبب، فقد عرف بفطنته كل شيء، مسح بنظراته وقال بصوت خافت واضح الصرامة، وهو يضغط على شفّتيه بقوة:

- كن كأنك لم تر شيئاً ممّا حدث الليلة، انسَهُ تماماً، إذا بلغني أنك

أخبرت به أو أشرت إليه فتلك نهاية حياتك.

بقي جالسا كما تركته محدّقا في الفراغ الصامت الذي يحيط به، بينما تضطرم جوانحه ببركان خواطر لَفّاح، نسي في تلك اللحظات كل الصراعات التي يخوضها وحيدا بين أولئك البشر الذين لا يثبت لهم وداد ولا بغضاء، صراعات مع شيوخ القبائل الذين يتنافسون على القرب من قلب ذلك النصراني العنيد المجنون. لا يعرفون كيف يرتقون في العلاقة معه فيكون تنافسهم في سَحَق بعضهم بعضاً أمامه، وصراعات مع أبناء عمومته الذين يَنْفُسُونَ عليه أن أصبح زعيماً لهم، وقد وجدوا في قضية اختفاء خَطْرِي فرصة سانحةً لتشويه سمعته في الحي، وفي الأحياء والقبائل المجاورة.

نسي كل ذلك وبات يستعرض قسامات وجه أخته المتجهممة، وعينيها الحزيتين وكلماتها القاسية، وبصاقها الذي نسي أن يمسحه عن وجهه، وزاد من ألمه أنه لم تعد في يده حيلة لتلافي الأمر، فحَطَّري إما مسجون حيا في بئر مجهول المكان، وإما مدفون ميتا تحت الأرض، وكَزَافِيئِهِ لم يسمح له بمجرد السؤال عنه.

تمتم في ما يشبه حديث النفس:

- قاتله الله لقد رماني في الورطة وخذلني بعد ذلك.

تذكر يوم جاءه «سَانَقُو» وأخبره بأن كَزَافِيئَهُ يطلب منه التعاون في القبض على خَطَّري، وذلك بسبب ما ثبت عنده -حسب الزنجي- بشهادات العدول، ومنهم امهَادِي نفسه؛ من أنه كان على صلة بالتمرديين في كُدَى النَعْمَه والمارقين في أودية لِعَصَابَه. وأنه كان ينسق مع الطرفين لتشكيل جبهة تمرد في منطقة الحوض الغربي تكمل خط المقاومة، وتمكن من التواصل بين الجبهتين المتباعدين في لِعَصَابَه والحوض الشرقي، عرف الآن أنه خان قبيلته، وخان نفسه، وغدر بزواج أخته التي أسهم في إيتام أبنائها إلى الأبد.

تناهى إلى سمعه صوت أَحْمَدُونَا مؤذنا بدخول السُدُسِ الأخير من الليل، نهض من مكانه مثقلا بالهموم ثم أوغل باتجاه الغابة حاملا إداوة بها ماء. رآها تلخع الملابس الرجالية وتعود إلى صورتها النسوية العادية، انحرف باتجاه آخر حتى لا تلمحه أو تفتن له.

كان النامي يرقبه من بعيد حاملا بندقيته، يتلفت يمنة ويسرة، ويخفق قلبه كلما انكسر تحت رجله عود أو خشخش شيء من الهوام في شجر الغابة، فهو لا يزال مُسْتَنْفِرًا منذ مشهد زيارة تَرْبَه فَالِ الغَرِيْبَةِ لأخيها في هزيع تلك الليلة.

لم يستطع أن يستمتع بقرآنه، كانت كلماتها لا تزال تنددن في أذنيه، وكان بكلِّ بصاقها يتقاطر في قلبه حسرة ومهانة. افتتح الحَوَامِيمَ، تأمل بعض الآيات كما لو لم يسمعها من قبل، فوجد لها لذة خاصة، أعادها بتطريب في مقامات موسيقية مختلفة، كان صوته أخاذاً.

فطن الرجال الذين مروا بالقرب من خيمته في طريقهم إلى المصلى للحالة الوجدانية التي تجتاحه، بكى حتى نشج، وما إن أكمل ركعتي الفجر حتى صدح أَمَّهْدُونَا بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، فهرع مسابقتاً كبيرة الإحرام. مسح النَّاجِي جبهته من حصيات علقن بها خلال سجوده، ثم وضع يده على منكب امهَّادِي الجالس عن يمينه، وقال بصوت به بقية من خشوع، ونبرة براءة فطرية:

- بُويَّ امهَّادِي، هل سألتم النصراني عن أخبار خَطْرِي؟ لقد طال أمره وأخشى أن يكون أصابه مكروه.

كان السؤال محرّجا، لكن امهَّادِي التحف الصمت، متظاهرا بأنه لا يزال منهمكا في أذكاره، واكتفى بوضع يُسْرَاهُ على ركة النَّاجِي فِي حَنَانٍ مُحْتَلِّقٍ، ليشعره بأنه سمع السؤال، ولكنه مشغول عن إجابته. فاستأنف النَّاجِي ورده الصباحي الطويل، فقد اعتاد أن يلزم مصلاه كل يوم حتى شروق الشمس، تاركا تلامذته يتلون قرآنهم حواليه.

تسلل بعض الرجال من المسجد وبقيت ثلة من ضمنها الإمام أَمَّهْدُونَا الذي كان يتأمل في خشوع ملامح النَّاجِي، كان النَّاجِي شيخا سبعينيا أبيض البشرة طويل الأنف نحيفا، وكانت فضفاضته البيضاء القصيرة النظيفة دائما، ولحيته الكثة التي تحولت إلى قطعة كتان بيضاء؛ كل ذلك يمنحه هيبة وجلالا، وقد امتزجت بهما طيبة قلب، وملازمة تلاوة وذكر، جعلته مَلَاكًا في مسلخ بشر، ولذلك كان أهل الحي

يلقبونه بـ(الزُّلَال).

هو موالٍ لامهّادي، ولكنه رجلٌ صادقٌ اللّهجة، لا يعرف التواءات النفوس، ولا غبش المواقف، ولطيفة قلبه لم يكن يتصور أن له أي علاقة باختفاء خَطْرِي، وكان قلبه الطيب يحترق على أخباره منذ اختفائه، وكلما زار تَرَبّه فالٌ وأبناءها اغرورقت عيناه حزنا على أبيهم المفقود منذ فترة.

جاء صوت أجملّه مختلطا بتأوّه الثقيل، إذ كان مضطجعا في مكان صلّاته بين اليقظة والنوم:

- امهّادي، أجِبْ سؤال (الزُّلَال)؟ وإذا شئتَ أجبتُه عنك!
هَزَّ امهّادي رأسه وابتسامةً جافةً تعلقو محياه الحزين، كان واضحا أنه أراد بتلك الحركة قَمَع لسان أجملّه، لكن أجملّه لا يجمع أيُّ شيء شهوةً القول في لسانه:

- الزُّلَال، خَطْرِيّات رحمة الله عليه، وجثمانه اشترى به امهّادي بُنْدُقِيَّتِيهِ الرُّبَاعِيَّتِيْنَ وَقَدْرًا لا بأس به من قماش «النَيْلَة».

الكلمات التي يختارها أجملّه والطريقة المسرحية التي ينطقها بها تدفعان للضحك، ولكن الجو كان غير محتملٍ مثقال ذرة مُزَاح، فاكتمى الحاضرون بتبادل نظرات سريعة، بينما عَضَّ امهّادي على الجانب الأيسر من شفّته السفلى مغتاظا، ونهض نحو خيمته.

كانت زوجته السّالمة تنتظره لنقاش بعض الترتيبات الأخيرة لعُرس ابنتهم مانه، التي كان مقررا أن يعقد قرانها على التُّرَادِ أحد أبناء شيخ أهل إِداسِرْمِي. رأت زوجها قادما بِخُطأٍ متثاقلة، وقد جمع أكمام فضفاضة وراء ظهره وأمسكها بيديه، فبدا بطنه في عينها أكبر ممّا اعتادته، كما لاحظت في وجهه الحزن. ورغم إحساسها بأن الأجواء ربما لم تعد مناسبة لتنظيم العُرس؛ إلا أنها لا تزال تكتم ذلك حتى

عن نفسها، مواصلةً التحضيرات حتى لا يياغتها الموعد، الذي لم يعد يفصلها عن سوى يومين، حسب ما كان مقررا بين الأسرتين.

- ماذا أعددت لضيوفك؟

أجابها وعيناه مصوبتان نحو الرُّكْبِ الذين بدؤوا يقتربون من الحي.

- أي ضيوف تعنين؟

- لقد أخبرت أن أُسْرَتِي أهل لِمُسَرَّرْزُ وأهل أَحْمَدُ كَيْتَارَ الفئتين أناختا البارحة غير بعيد من مضاربنا، وذلك يعني أنهما ستصلان إلينا ضحى هذا اليوم.

وضع يديه فوق حاجبيه محتما من الشمس التي بدأت تتعالى في الأفق، ورفع وجهه يتبين القادمين ثم قال بنبرة لا يخفى فيها الضجر:

- لعل ما أراه الآن هو موكبهم.

لم تَنْمَ تَرْبَهُ قَالَ لَيْلَتَهَا تلك، مع أن نومها أصبح قليلا منذ اختفاء زوجها، لكنها اليوم أصبحت مصممة على أن تبلغ بقضية زوجها أقصى ما يمكن أن تبلغه، وأن تقول كل ما لديها من أخبار، أيقظت ابنها البكر عند أذان الفجر الأول كي يذهب إلى المحظرة، وأمرته أن يمر بسلامتي في طريق ذهابه، ويطلب منه القدوم إليها بعد صلاة الصبح.

استغرب سَلْمَاتِي الأمر، فالأعراف الاجتماعية تقتضي أن تكون علاقتها به غير مباشرة، فهي زوجة أخيه الأصغر، ورغم ما يميزها من قوة الشخصية؛ فقد كانت حريصة طيلة حياتها على احترام تلك التقاليد في علاقتها به، فلا بد أن هناك أمرا مهما وجديدا، انفتل من صلاة الصبح سريعا ثم اتجه نحو خيمة أخيه.

كانت تَرْبَهُ قَالَ ما تزال جالسة في مصلاها تسرد ورد العودة

والسلامة الذي أعطاها إياه سَلَمَاتِي منذ اختفاء أخيه، يُتلى الورد بعد صلاة الصبح وقبل الغروب، ويتألف من آيات وأدعية تكرر سَبْعَ مَرَّاتٍ، وتختتم باسم أحد ملوك الجن.

جلس على طرف السرير المثبت تحت الخيمة المطوي مُقَدِّمُهَا على الأعمدة، بفعل حرارة الصيف إلا ما يحول دون أشعة الشمس وقت بزوغها من المشرق، وضع يده على منكب العَالِيَةِ التي كانت لا تزال نائمة، فتململت، أراد أن يصرفها حتى يعرف وجهة حديث تَرْبَهُ فَالٌ، فأمرها بأن تأتيه بَصْرَةَ نَشُوقِهِ التي تركها في مكان نومه، ففركت عينيها وخرجت للمهمة.

- أود أن تغفر لي هذه الجرأة في الحديث معك، فوالله إني لأحترمك كثيرا، والله لولا أن الأمر أص... ..

خفقتها عَبْرَةً مُبَلَّلَةً بالحياء، فهذه أول مرة تخاطبه فيها وجها لوجه منذ تزوجها أخوه قبل ما يناهز عقدين.

- لا عليك، حاشاك أن تفعلني غير المناسب، قولي ما بدا لك يا ابنة الأكارم.

- أخوك اختطفه زنجي النصارى الذي نسميه (سَانُقُو)، وقد أخبرني بذلك امبِيرِيك الذي رآه معه على أطراف وادي الحطب، وكنت قد استكتمته الأمر حرصا مني على أن يثوب أخي إلى رشده ويرحمني ويرحم أبناء أخته فيعيد لهم والدهم، ولكنني اليوم قررت أن أقول كل شيء، وهناك أمر آخر، فقد ذهب... ..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- البارحة ذهبت إلى أخي في هزيع الليل وصارحته بهذه

المعلومات، وهددته بأن يختار بين إرجاع أخيك سالما وبين حياته هو.

- هل علم أحد غيري بهذه المعلومات، وهل هناك من يعلم بخبر ذهابك البارحة إلى أمهّادي؟

- بالنسبة إلى هذه المعلومات لا يعلمها سواي أنا وأميريك وأنت الذي أخبرتك بها الآن، أو أمهّادي الذي كان السبب في حدوثها. يلزم سلمّاتي أن يكون حذرا حين يتحدث عن أمهّادي أمام أخته، رغم ما بينهما من قطيعة، لكنه في النهاية أخوها، يمكن أن تنهض عاطفتها تجاهه كل حين، لذلك حاول أن يهذب كلماته، وأن يركز حديثه حول عودة خطري دون أن يتحدث عن أمهّادي، فقال لها بهدوء مفتعل:

- لا تخبري أحدا بهذا الأمر، واطمئني أن خطري سيعود سالما غانما، فقد رأيت البارحة رؤيا تبشّر بذلك، ولعل ذهابك إلى أمهّادي جزء من تعبيرها، فوالله ما اطمأن لي جنّب، وما لذ نوم منذ اختفاء أخي، ولن أترك أمره حتى يعود مُعزّزا مُكرّما، فإن لدي إحساسا روحانيا بأنه لا يزال على قيد الحياة.

وقعت كلماته على قلبها المحترق وقع الماء البارد في جوف الظمان، وغمغمت بتأمينات مختلطة بنشيج حزين، حاولت كتمه عبثا، ودعها حينما ناداه أحد العبيد أن ثلاث بقرات من قطيعه أصبحت نافقات، بسبب الهزال الذي يحتاج مواشي تلك المنطقة كل صيف.

مع أول النهار تسللت لعناد إلى مجلس الضحى، يبتاحها فضول غريب لمعرفة ما الذي دفع تربه فال لطلب زوجها سلمّاتي في ذلك الوقت الباكر جدا، هي تعرف أن للأمر علاقة بموضوع خطري، لكن

ما هذا الجديد من أمره الذي يستدعي هذا التصرف الغريب!

مجلس الضحى النسوي بالنسبة إلى الأحياء البدوية يعتبر أقوى مكان لتجميع الأخبار وتحليلها، خاصة ما يتعلق منها بقضايا الزواج والطلاق والحب والبعد، فيه تحدد مصائر كثيرة، تُنشأ أُسْرٌ من عدم وتُنقُضُ أخرى، ولا يدور العام أو الشهر إلا وقد حدث أغلب ذلك في الواقع، إنه يمثل مركز تنبؤ وصناعة للأحداث. هو مجلس نسوي معروف الوقت ولكنه غير محدد المكان، فأحيانا ينعقد عند إحدى الأسر، وأحيانا تجتمع نسوته عرضا في الفضاء الطلق، وغالبا ما تكون هناك امرأتان أو ثلاث نسوة يعتبرن أساسا لانعقاده، فكلما اجتمعت منهن اثنتان تقاطرت عليهما بقية نسوة الحي.

كُنَّ في ذلك اليوم يأكلهن الفضول لمعرفة أمر تلك المرأة التي لمحتها إحداهن في هزيع الليل وهي قادمة من جهة أهل امهّادي، والتي أوغلت خارج الحي في ذلك الوقت حتى توارت عن الأنظار، يتهامسن بهذه القصة في فضول واستغراب عجيبين.

قالت إحدى النسوة:

- هي امرأة طويلة القامة ضخمة الجثة.

أجابتها امرأة أخرى رافعة كَفَّهَا وَجَامِعَةً بين إبهامها وخنصرها في حركة أنثوية أصيلة:

- وسُرَّةَ أخي النَّمُوهُ هُوَ رَجُلٌ رَأَتْهُ عَيْنَاي هَاتَانِ اللتان سيأكلهما الدود تحت التراب.

قالت لِعِتَادٍ في طرافة مُسْتَمَلِحَةٍ، محيبة المرأة الأخيرة وكان زوجها غائبا:

- أنت لست مصدقة في أمر الرجال هذه الفترة، إنهم يُحِيلُونَ لك

في كل شيء، سنسمع رأيك فيهم حين يعود زوجك.
ضحك الجميع بينما كانت تَرَبَهُ فَأَلْ صامتةً يظهر على وجهها الشرود
والحزن، تحاملت على أحزانها ثم قالت بفكاهة مصطنعة:

- ما أشجعها وهي تدخل على زوج السالمة في هزيع الليل.
قالت مآنه بنت النُّكْرَائِي بطرافة مستملحة:

- أو لعلها دخلت على امهَادِي رَجُلًا وخرجت من عنده امرأة،
فلو دخلت عليه وهي امرأة لقتلتها زوجته السالمة، فهي أشد غيرة
من الحمام.

تركن موضوع المرأة الغربية، وعُصْنَ في موضوع عُرْسِ بنت
امهَادِي، بدأن لعبتهن الأثيرة، يذكرن كل فتاة ثم يَحْزُرْنَ لها الفتى
المناسب لمرافقتها أيام احتفالات العرس ولياليها، إذ ينبغي أن يجلس
إلى جنبها أثناء الحفلة الموسيقية، وأن ينشد في حبها ومحاسنها بعض
«الْكَيْفَانُ». يلقبها أمام الجمهور المحتفل للفنانين فيغنونها، فتشيع على
ألْسنة العامة، وإذا كانت مميزة فنيا تصبح جزءً من ذاكرة الفن ذاته، كما
تغدو بعد ذلك جزءً أصيلاً ومهما من السيرة الذاتية والسمعة الجَمَالِيَّةِ
لصاحبها.

ذَكَرْنَ فتيات الحي واحدةً واحدةً، وَقَرْنَ بين كل فتاة ومن يُرِدْنَهُ لها
عشيقاً الآن وزوجاً غداً، بعض تلك العلاقات العاطفية كان مشهوراً
بين الناس، وبعضها لا يزال في طور الحدس والظن. وبالطبع ذكرن
لَمُرُورِ حُ زينة شباب الحي جَمَالًا وَقُوَّةً، لكنهن كن مترددات في الفتاة
التي سيمنحنها شرف الاقتران به، وسيكتب هو بَكَيْفَانه في التغزل بها
اسمها في ذاكرة الجميلات اللواتي سَيَحْضُدْنَ في الفن، كانت هناك غيرة
بين الأمهات فكلهن تريده لابنتها.

- اتركوا لِمَرْوَرِح فهو في المحظرة الآن، ولا أظنه سيحضر العرس.

تَغَامَرَنَ بخفة شيطانية، فالمرأة التي تكلمت عن عدم حضوره للعرس هي زوجة أَحْمَدُونَا، وَبِتُّهَا الوسيمةُ رَيْبَعَه كانت المُهَيَّأَةً منذ زمنٍ لِلْمَرْوَرِح قبل أن تستبد بقلبه العالِيَه بنت خَطْرِي، إنها تريد أن تبعده عن العرس بدافع الغيرة الحارقة.

قالت إحداهن وهي تفرك قشدة الحليب المترسبة على طرف ملحفتها:

- سمعت أنه وامرأِبُ أَتْلَامِيدُ خرجا من حي المحظرة قبل يومين قادمين إلينا، وإذا صدق من أخبرني بذلك فسيقيلان معنا اليوم.

التفتن كلهن إلى تَرْبَه فَال، وَقُلْنَ في وقت واحد:

- هَيْبِي العالِيَه إِذْن.

لم تزد على ابتسامة مائلة كشفت بياض ناها الأيسر، بينما قالت الفارْهَة بنت لِمُعِيدَل بلطفها الفطري:

- ابعثيها إِيَّيَّ غَدًا حتى أخضبها بالحِنَّاءِ، وَأَشَدَّ لها صَفَائِرَهَا، سأبدع لها تسريحةً لم أفعلها لأَيِّ فتاةٍ من قبل.

- العالِيَه أقسمت أنها لن تخضب كَفًّا، ولن تُسَرِّحَ شَعْرًا حتى يعود أبوها المفقود.

سُقِطَ في أيدي النسوة، ولم يفهمن دوافع تَرْبَه فَال من وراء ذلك، هن يعلمن أن العالِيَه لن تقدم على أي قرار من دون موافقة أمها المرأة القوية المتنفذة، فالمسألة إذن كلها قرار من تَرْبَه فَال، وهو أمر اعتبرنه تشنيعا لقضيّة عادية. فاختفاء الرجال وغياب أخبارهم سنوات وليس أشهرًا فقط أمر شائع جدا في تلك البلاد الجبلية السائبة، بعضهم يختطفه

للصوص الذين يمرون بين الحين والحين، وبعض آخر يعثر على جثته بعد زمن وقد افترسته سباع الفلا وذئابها.

لِعِنَادٍ وحدها كان عقلها الذكي يربط بين الأحداث الثلاثة؛ استدعاء تَرْبَه فَالٌ لزوجها سَلْمَاتِي في ذلك الوقت غير المعتاد، وقصة الرجل أو المرأة التي تسلت إلى خيمة امْهَادِي في الهزيع الأخير من تلك الليلة، وامتناعها من تجهيز ابنتها للمشاركة في الفرح بعُرْسَابنة أخيها امْهَادِي، لكنها طوت صدرها على ذلك ولم تثره أمام النسوة، خاصة أنه يتعلق بزوجها، وهو أخو خَطْرِي الذي لا يزال اختفاؤه يشكل اللغز المحير لساكنة الحي.

عقدت العزم على أن تستقصي المسألة بطرقها الخاصة، حتى تعرف ما يدور خلفها من حقائق، فلا بد من أن عند تَرْبَه فَالٌ نية لفعل شيء ما، أو أن في قضية خَطْرِي مُسْتَجِدٌّ استدعى كل هذا الضغط النفسي على أخيها امْهَادِي.

الآن أصبح الأمر أكثر جلاء في مخيلة سَلْمَاتِي، أو أصبحت خُطَّةٌ إزاحة امْهَادِي عن زعامة المجموعة سهلةً ميسورةً، ورغم أن حدسه الدقيق كان قد أوصله قبل فترة إلقناعه شبه مكتملة بدور امْهَادِي والنصارى في اختفاء أخيه، إلا أنه الآن أصبح يملك معلومة صلبة يستطيع أن يبني على أساسها خُطَّتَهُ، وهي خطة أصبحت منذ سفره الأخير ذات هدفين؛ عودة خَطْرِي إذا تأكد أنه لا يزال على قيد الحياة، أو الإطاحة بامْهَادِي والسعي لخلافته إذا تأكد أن خَطْرِي قد مات.

كان قلبه مُقَسِّمًا نصفين، نِصْفُهُ العاقل يتمنى عودة أخيه، ونصفه العاطفي يتمنى خلافة امْهَادِي فقط، وقد زاد من تطعه لخلافة امْهَادِي ما سمعه حول رفض كَرَافِييه الإجابة على أسئلته عن خَطْرِي، فقد

عرف من خلال ذلك أن النصراني قد استفد حاجته من امهّادي، وأنه سيكون مستعدا لعقد صفقة مع من يخلفه، ثمّنها تهدئة الحي، وإقناعهم بنسيان خَطْرِي وحسابه في عداد الأموات.

لقد صار عليه الآن أن يبحث عن طريقة يلفت بها إليه انتباه النصراني وإقناعه تدريجيا بجدراته بخلافة امهّادي، وقد عرف أن الإثارة المحسوبة هي الطريق الوحيد لما يفكر فيه، لم يكن أمامه سوى تنفيذ خُطّة اغتيال امهّادي التي رتبها مع امبيريّك، ولكن مع بعض التعديلات المناسبة لما استجد لديه من معلومات، وما لمع في نفسه من طمع في الزعامة.

تقتضي الخُطّة الجديدة المُعدّلة أن ينفذ امبيريّك عملية الاغتيال، وأن يقوم هو بتنفيذ حكم القصاص فيه، فيتيح له ذلك التواصل الدائم مع النصراني باعتباره سيّد العبد القاتل، ومُنفذ حكم القصاص فيه. سيكون اغتيال امهّادي تنفيسا عاطفيا لعصبة خَطْرِي وأقاربه وأنصاره، وسيكون إعلان موت خَطْرِي بعدها تنفيسا عاطفيا لأهل امهّادي وأقاربه وأنصاره، وحينها سيستطيع بدائه قيادة صلح بين المجموعتين يراعاه النصراني الذي عرّف كيف يُوقعه في فخاخهِ الخطيرة.

كان يدرك أن فُرصته الوحيدة لتنفيذ مخططه هو أيام «الحصره» التي لا يدري أحد متى ستنتهي، فقرار إنهاؤها وتمديدتها بيد النصراني كُزافييه صاحب المزاج المتقلب، ورغم أنه من شبه المؤكد أن «الحصره» لن يَنْقُص حَشْدُهَا هذه المرة إلا بعد أسبوع، لأن وفدا فرنسيا قادما من سينلوي في زيارة تفقدية لبعض المراكز الاستعمارية في الحوضين ولِعصابه، ولا يزال ذلك الوفد حسب آخر خبر عنه يواصل أعماله في مركز كيفة.

هذه الزيارة أيضا تطرح مشكلا أمام مخططه، إثارة الشغب باغتيال شيخ مجموعة في حضور وفد فرنسي مركزي؛ قد يجعل احتواء القضية محليا ذا صعوبة بالغة، ثم إنه سيدفع كَرَأْفِيَّه إلى أن يتعامل بقسوة أكبر مع الملف، ما قد يلحق به بعض الضرر. ثم إن ظروف الصيف القاسية وجَدَبَ المراعي القريبة، وما سببته من إنهاء مزرعج لمواشي الحي، تجعل الناس في عجلة من أمرها، وغير مستعدة نفسيا لأي خطوة قد تسبب تأخرها عن الانتجاع جنوبا. وهم لولا مكانة أمهادي والخوف من النصرارى لما قبلوا أن تساق مواشيه في عز الصيف باتجاه تلك المنطقة المُجْدِيَّة. فالحالة الطبيعية هي أن يكونوا مع نهايات شهر مايو قد جعلوا وديان «أَقْرَقَارَ» شاهم، وأوغلوا في أرض السودان التي تحتفظ خلال هذه الفترة برمق من هشيم الحشائش، والتي تتهاطل عليها الأمطار مع بدايات يونيو لقرها من خط الاستواء.

لقد استعرض هذه العقبات كلها في ذهنه، وأدرك من خلالها صعوبة ما يفكر به في هذه الفترة بالذات، لكنه كان كلما بدأ يستسلم لها تتقافز أمامه صورة ناعمة ليوم يُنصَّبُ زعيمًا لمجموعته، فيرى نفسه جالسًا إلى جنب النصراني؛ يُعدُّ بين يديه ما جلبه من ضريبة العشر كاملاً غير منقُوصٍ، ويكاد يسمع التهاني المتوقعة التي يرطن بها النصراني، وهو يشكره بلهجة فرنسية أصيلة على ما دفعه للخزينة الفرنسية من رؤوس إبل وبقر وأغنام.

ما إن يمسح ذاكرة الحزن بهذه الصورة الوردية الناعمة حتى تتقد همته من جديد لتنفيذ الخطة المجنونة، لكنه هذه المرة تذكر أن أمبيريك لا يزال طريح الفراش منذ قدومها من رحلة البحث عن حطري، فبدأ يكرر بصوت مرتفع رغم أنه وحده:

- تلك هي الطَّامَّةُ الكبرى، تلك هي الطَّامَّةُ الكبرى، على
امْبِيرِيكَ أَنْ يُشْفَى فوراً!

لم ينتبه من تهويماته تلك إلا حين ارتطمت جبهته بجذع عاتية
من الطَّلْحِ، استفاق بالصدمة، فلاحظ أنه أصبح على بعد أكثر من
كيلومترين من مضارب الحي، التفت حوله فرأى اَجْمَلَه، وهو يتفقد
بقرةً له هزلت عن المشي، كان اَجْمَلَه قد رآه حين ارتطامه بالجذع، فخَمَّنَ
أنه كان مستغرقاً في التفكير، لذلك باغته حاسماً تخمينه:

- سلماتي اُنْتَبَهْ، فقد يمشي بِخُطَا هادئةٍ من يَعْدُو في داخله
كَفَرَسٍ، ألا ترى امْهَادِي يُحْضِرُ لزفاف ابنته، وهو يعرف أنك تحفر
له الأحايد.

قال سَلْمَاتِي وهو يفتل بيده شعرات من عُنُونِ فَرَسِ اَجْمَلَه، متجاهلاً
كلامه الذي كان أَبَيَّنَ من جَبَلِ «التَّيْدَاتِنِ» لِسَاكِنِ «أُمِّ مَقْرِيْفٍ»:
- كيف صباح بقرتك «القَشْوَة»؟

كان اَجْمَلَه مستعجلاً فلطم الفرس تاركا له غبار الحوافر. لم يعبأ
بفعلته المتعجرفة تلك، فمن ذا الذي يستطيع تهذيب عنجهية اَجْمَلَه،
فهو ذو طَبْعٍ خاص، ولكنه مع ذلك رجل مواقف قوية، وقد يحتاجه في
معركته مع امْهَادِي، التي يبدو أنها أصبحت قاب قوس واحدة.

كان امْبِيرِيكَ مُلْقَى تحت شجرة من المسيم تشد إليها طنب خيمة
سَيِّدَتِهِ تَرْبَه فَالْ، يفرش حصيرا بالياً من سعف النخل، ويلتحف قطعة
قماش نَبْتَه، كانت لِبْدَةً مَحْوُلٌ بين السَّرْجِ وبين ظهر أحد أفراس خَطْرِي،
ينتقل عنه ظل الشجرة فيبقى ضَاحِيًا تحت أشعة الشمس، ولولا رحمة
الله لأخذه الموت. كانت إحدى إمائها تَرُقُّ له أحياناً فتعاهده بما تيسر
من طعام وشراب، ثلاثة أيام أمضاها وهو بين النوم والإغماء، ورغم

أَلَمْ صَهْدِ الْحُمَّى فَإِنَّ الْكُوَابِيسَ الَّتِي كَانَتْ تَتَّبَعُهُ أَثْنَاءَ مَرَضِهِ زَادَتْهُ وَعَكَاءُ عَلَى وَعَكَتِهِ.

يرى نفسه في الحلم مختبئاً خلف صخرة يعرفها في أكناف وادي الحطب، ممسكاً بيده سكيناً حادة، منتظراً مرور أمهادي ذاهباً للخلاء، وما إن يهوي بها عليه حتى يمسكه رجل من الخلف، فليتفت فإذا هو أمهادي نفسه الذي كان الدم يشخب من نحره قبل لحظات، فيصرخ ثم يقف أثناء النوم من شدة الفزع. وكان يهذي أيضاً في أيامه تلك بأحاديث مُفكِّكة تنبعث من عقله الباطن، هي خواطره الصادقة، كان أغلبها يتعلق بشوقه إلى أمه، وبذكريات اللحظات الأولى لاختطافه من أطراف قريته الوداعة، وبعضها يتعلق بتأفُّفه وضجره من معاملة الاحتقار التي يحظى بها، وكان بعضها الآخر تغزُّلاً فاحشاً ببعض بنات ونساء الحي، منهن متزوجات وأيامى وفتيات صغار. ولكن الأبرز في تلك الهلوسات هو حديثه الذي لا ينقطع عن فتاة الماندينغو التي التقاها في ذلك المساء، لقد علقت - في ما يبدو - قلبه علاقة يعسر انحلالها على مر الليالي.

أصبح هذيانه مادة تنكيت للنساء اللواتي اعتدن أن يتحلقن حوله وقت الظهيرة حين تصهره أشعة الشمس، فتزداد وتيرة هذيانه. يفتح عينيه ليرى إحداهن فينطلق عقله الباطن في الحديث عنها بتلك الكلمات المفككة منطقياً، لم تكن أولئك النسوة يشعرن بأنهن يتفرجن على إنسان في لحظة ألم شاق، بفعل حمى الضنك التي تمضغ لحمه وعظامه، كان ألمه بالنسبة إليهن مجرد مسرح للفرجة والاستمتاع.

اعتمر سَلْمَاتِي عمامته ضحى، وحمل لَوْحَه الخشبي الذي يكتب فيه تعويذاته وأحجبهته من جداول أسرار الحرف وبعض الطلاسم ينكر

أنها سحر، وإن كانت تشبهه في كل شيء. جاء إلى تَرْبَه فَالٌ، وقال لها إن صاحبه من الجِنِّ أخبره أن امْبِيرِيكَ مَمْسُوسٌ، وأن تلك الإغماء التي تصيبه بسبب خَنْقِ الجِنِّيِّ له كلما طاف به، وأنه سيذهب به لرعايته حتى يُشْفَى من جُنُونِهِ. فاقتنعت بما قاله الرجل الذي يعرف أهل الحي أنه من كِبَارِ مُحَدِّمِي الجِنِّ، وأرسلت إليه امْبِيرِيكَ.

وصل إلى خيمة سَلْمَاتِي متوكئا على أَمْتَيْنِ من إماء خَطْرِي. وألقي تحت الظل الواهي لشجرة العَرَضِيْبِ المشدودة إليها طنب الخيمة، مفترشا اللبدة القذرة التي كان يفترشها عند تَرْبَه فَالٌ. طلب سَلْمَاتِي الدواة والقلم واشتق ورقة من فوق كيس السُّكَّرِ الأُسْطُوَانِي الذي كان يمينه، وكتب بخطه الجميل كلمات مفككة، رسم جدولا سُبَاعِيَّ الأعمدة مُحَاسِيَّ الحَلَايَا، وضع في كل مُرَبَّعٍ من مُرَبَّعَاتِهِ حرفا هجائيا غير منقوط، ثم أحاطه بأرقام هندية، يربطها قاسم مشترك فَرْدِيٌّ. خطا نحوه بضع خطوات، ثم جلس في المكان الذي يجعل الرياح تُغْرِقُهُ بدخان الورقة، أوقد فيها النار ثم تركه تحت رحمة أذختها التتنة.

لم تمض ساعة حتى عاودته إغماء أطول وأكثر وَطْئا من إغماءه السابقة، بدا معها وكأنه في لحظة احتضار، كان يَمُدُّ رجله ويضمهما مثل شاة تنازع الموت، لكن سَلْمَاتِي أمرهم أن يتركوه دون إسعاف. كان يقول لهم إن تلك الإغماء هي آخر خَنْقَةٍ يقوم بها الجنى الذي يتلبسه، بعدما ضَيَّقَ عليه دخانُ الأَحْجِبَةِ مقامه بين أضلاع امْبِيرِيكَ.

كان الوقت ظهرا، وكانت شمس مايو تسقط عمودية على الأرض فتحولها إلى صفيحة حديد ملتهب، ظل امْبِيرِيكَ هناك مُمدِّداً تحت الشجرة، لا يشك الرائي في أنه قد مات؛ اختفى سواد عينيه وبقي بياضها شاخصا نحو السماء، وبدت عورته المُعَلَّطَةُ بسبب حركات

رجليه اللتين ظلتا تَرُفُسانِ في كل اتجاه، قبل أن تستسلما لوطأة الإرهاق.
ذهب سَلْمَاتِي بعد الظهر يتفقد مواشيه، وأوصى الإمام بأن يسقين
امْبِيرِيكَ إذا أفاق شربة كان أعدها له؛ منقوعَ صمغ عربي مخلوطاً
بالسُّكَّرِ، وقدرا من البُصَاقِ، وأن يخبرنه على الفور إذا سأل عنه.
أفاق امْبِيرِيكَ بعد العصر، تَجَرَّعَ منها قطرات ثم شَحَبَ القِيءُ
من فيه، كان قِيؤُهُ خليطاً من خيوط الطبيعة الصفراوية وحبّات من
الدخن لم يتم هضمها بعد، أعطوه البقية فشربها دفعة واحدة، ثم تنفس
الصعداء، ونظر حواليه فلم ير سوى وجوه الإمام محدّقات فيه، فقال
ببراءة:

- أين سَلْمَاتِي؟

ثم عاد إلى إغماءته.

الفصل العاشر

- ما الذي تقوله يا خطّار؟ هل يظننا أمّهادي عبيده أو أتباعه!
لقد بالغ هذا الرجل في الاعتداد بنفسه، حتى سولت له أن يهيننا
بهذه الطريقة، والذي سمك السماء بلا عمد لن نذل لغير الله.
كان امرأبُ اتّلاميدُ القادمُ تَوًّا من محظرته مُسْتَثَارًا إلى أبعد حد،
فقد كان يستطيل إقامة الحي كل هذه المدة من الصيف في تلك المنطقة
الجدباء، ويفكر في الدخول على النَّصراني لمخاطبته في الأمر إذا لم
يستجب لامّهادي. فالمواشي تكاد تهلك جوعا وعطشا في واد غير
ذي زرع، فكيف يفاجأ بهذه التعليمات القاسية، غضب الرجال الذين
كانوا مُتَجَمِّهَرِينَ حوله لغضبه، فَطَنَ لَهُمْ فَهَدًّا من روعهم ثم قال في
حسم قيادي رشيق:

- الزُّمُوا مَنَازِلَكُمْ، سأذهب بنفسي الآن إلى امّهادي ونَصْرَانِيَّة،
وأخبرهم أننا لن نبرح هذا المكان إلا راحلين جنوبا للانتجاع، وأنا
بعد ثلاثة أيام سنرحل سواء انتهت «الْحَصْرَه» أم لم تنته، وليغضب
النَّصْرَانِيُّ مِلءَ جُمَّمَتِهِ الكافرة، فالواجب هو إرضاء الله فقط.
لا يزال جُمَّلُهُ في مكان بُرُوكِهِ لم يبرحه، أمر العبيد بإعادة رَحْلِهِ ثم

نهض من حينه.

كان كَزَافِييَّةً في إقامته المؤقتة قرب مكان انعقاد «الحضرة»، بعيدا عن مكتبه الرسمي في تَامَشِكُطْ، الذي كان من الواجب أن يستقبل فيه الوفد الفرنسي القادم في زيارة تفقدية، ولكن الوفد ارتبك برناجه واضطربت مواعيد قدومه، خاصة بعد وصوله لمركز كيفه الذي تعطل فيه شهرا كاملا بدل الأسبوع الذي كان قرره كأقصى حد للإقامة هناك.

كان سبب تأخره كل هذه المدة في كيفية راجعا إلى انشغاله بتسوية بعض المشكلات التي وجدها أمامه، والتي يتعلق أغلبها بالنزاعات التي لا تهدأ حول زعامة تلك المجموعات القبلية المتناثرة في أعلى وأسفل لِعَصَابَه. وكذلك الاضطراب الاجتماعي الذي سببه ازدياد هروب العبيد من أسيادهم واحتمائهم بالمركز الفرنسي هناك، ما جعل الأسياد يلجؤون إلى العنف الجسدي والتهجير البعيد لبعيدهم خوفاً من هربهم في ما عرف حينها بظاهرة (الجمير)، وهي الظاهرة التي كان يشجعها ويحرض عليها المناضل الحقوقي الزنجي جوستون ميان، الذي كان حينها يقضي محكومة هناك. وقد استطاع بفعل الحرية المحدودة التي تسمح له بالتجوال داخل حدود مكان إقامته الجبرية أن يتصل بأولئك العبيد، ويسجل كثيرا من معاناتهم ويحرضهم على التمرّد، كما كان يرفع تلك القضايا إلى الإدارة الفرنسية في كيفية مُسْتَعْلًا صراحة القانون الفرنسي في تجريم الاسترقاق والمتاجرة بالبشر. وكانت الإدارة الفرنسية -رغم تغاضيها عن عموم الظاهرة- تضطر تحت إلحاحه إلى اتخاذ قرارات إيواء وحماية لأولئك العبيد الهاربين، ما شكل حزاما سكنيا بدائيا حول المركز الفرنسي، وخلق

أزمة بينه مع السكان الذين يعتبرون امتلاك العبيد والمتاجرة بهم أحد حقوقهم الطبيعية والشرعية.

تسابق شيوخ المجموعات القبلية المحصورة في منطقة «لِفْدَه» إلى جلب ما يملكون من أفرشة وخيام، وما يكفي من الأغنام والأبَعْرَةَ للضيافة، وكذلك جَلَبَ كل واحد منهم أعلى ما يملكه من التُّحْفِ الثمينة تقرباً لكَزَافِيِيَه؛ الذي أعلن فيهم أنه سيستقبل الوفد الفرنسي هناك. كما تسابقوا إلى ترتيب تقاريرهم عن أعداد الأفراد المسجلين كنانيسهم، وتجهيز العُشُور التي يدفعونها ضريبةً سنويةً عن رؤوس الماشية وعن رؤوس العبيد أيضاً، كان صارماً في أوامره هذه المرة، وقد حذرهم من أن يتأخر أحد منهم عن دفع ما عليه، أو أن ينتقص منه مثقال ذرة.

كان يريد أن يُظهِرَ أمام الوفد الفرنسي قدرته على ضبط المنطقة من الناحية المالية والأمنية، فقد كان تحت الرقابة المشددة بما أنها أول مرة يعمل فيها رئيس دائرة مستقلاً بالنفوذ والأوامر والمبادرة.

مُورِيَه كَزَافِيِيَه شاب فرنسي ينحدر من مدينة تُولُوز، قد ثلم عقده الرابع بستتين أو ثلاث، أبيض البشرة قبل أن تمنحه شمس الصحراء بقعا حمراء على وجهه وذراعيه، لا يشك العارف أن دما أندلسيا يسري في عروقه، ذو ملامح حادة، فشفته رقيقتان كشفرات حلقة، وأنفه رقيق وطويل جدا يخيل إلى الناظر أنه منحوت بسكين، هذا مع قامته الطويلة النحيفة نسبياً.

هو من ذلك النوع الذي لا يمكنك أن تصفه بالقبح ولا بالسامة، فحروف وجهه جميلة الشكل إذا أخذت كل واحد منها على حدة، ولكنها تتنافر إذا جمعتها على سطح واحد. كأن هذه الحدة في الشكل

تركت أثرها في نفسه، فكان حادَّ الطبع متقلب المزاج، يغضب إذا ثارت العواصف الرملية في وجهه، ويرضى إذا راق الجو بعد يوم ماطر، وإذا غضب لم يُميِّز بين صديق وعدو. فقد يأمر بتجريد شيخ قبيلة أو رجل مرموق من ملابسه وحبسه في الشمس، لمجرد أنه كان إلى جنبه ساعة ثارت زوبعة وحثت التراب في طعامه، كما قد يُوقَّع لآخر على كتاب رئاسة مجموعته إذا هبت النسائم رَحِيَّةً في ساعة صفائه، دون أن يكثر بعواقب ذلك.

ولشراسته فقد كانت الساكنة تتحاشى ما يغضبه، وتبتعد عنه ساعات تكدر مزاجه، أو فترات قسوة المناخ، لذلك كان قليل الزوار في فترة الصيف، لكنه مع ذلك صاحب عقل وتدبير، وتظهر براعته دائماً في أوقات الأزمات.

هو في ما يبدو رجل أخذ تجربته الإدارية في مهب العواصف، واستطاع أن يراكم خبرة هائلة في فنون الخروج من المأزق الحرجة، وحكمته في ذلك أنه لا يقبل أن تتطور الأمور إلى مستوى يعجز عن ضبطه، مؤمن بما وراء الطبيعة، ولكنه غير متدين حقاً، ما جعله سريع التصديق للخرافات والأساطير. وقد جعل ذلك شيوخ القبائل ورجالات المجتمع يتنافسون أمامه في قدراتهم على تسخير الشياطين وفعل الخوارق، ومن هذه الثغرة وُلِّجَ امهَّادِي إلى شخصيته، فهو مع قوة شخصيته ودهائه الكبير وخبرته في نصب الفِخَاخ لأقرانه من شيوخ ورجالات القبائل المجاورة له؛ أَحَدُ أَكْبَرِ مُسَخِّرِي الْجِنِّ فِي المنطقة، لم يهزم له جَدَوُلٌ ولا تَمِيمةٌ قط، ويتداول أهل أَفَلَهَ في ذلك قصصاً كثيرة، منها حقائق وأكثرها مبالغت المتأثرين بقوة سطوته في ذلك العالم الخفي الغامض.

استطاع امهّادي أن يجمع عُشورَ أغلب مجموعته قبل أن يأتي سَلْمَاتِي من رحلة «تَامُورْت لِكُورَ»، وقد قام بسد النقص من أمواله الشخصية كما اعتاد أن يفعل في المرات السابقة، لكن كُزَافِييَه كان قرر هذه المرة أن يقوم بإعادة إحصاء للمواشي والأموال. كان قراره بناءً على نَمِيمَة رَفَعها إليه أحد الشيوخ، مُفَادُها أن المبلغ الذي يدفعه بعضهم لا يناسب حجم المواشي والأموال التي يملكها قومهم، وأن ذلك يحصل أحياناً بالتواطؤ بين الشيوخ وبين «كُومِيَات» الذين يباشرون الإحصاء نيابة عن الفرنسيين، وكان امهّادي أَحَدَ هؤلاء الذين شملتهم الملاحظة. لذلك قرر كُزَافِييَه أن يباشر الأمر بنفسه، وأمر أن تساق جميع مواشي أهل بُوطرُومَه إلى مكان إقامته، كان الأمر صعباً، حاول امهّادي أن يُشَيِّه عن قراره، وَوَعَدَهُ بأن يضاعف له قيمة الضريبة التي اعتاد دَفَعها هذه المرة، ولكن كُزَافِييَه كان مُصِرّاً على الأمر، فلم يكن هناك بد من ركوب الصعب.

رَعَا الجمل فالتفت المجلس صوب الصوت، رفع كُزَافِييَه نظارته فوق حاجبيه فعرف الرجل، إنه امْرَاطُ اَتَلَامِيدُ؛ رجلُ الدين العنيد الذي يعارض سياسات المستعمر، ويحرض عليه ويرفض إكرامياته، أيقن أنه ما جاء إلا لأمر مثير، فعزم في نفسه على احتواء الموقف أياً كان.

ما إن تيقن منه امهّادي الجالس بأبهته المهيبية بين النَّصَارَى وأعوانهم حتى نهض فجأة كأنها لسعته أفعى من تحته، كان لَمْرَاطُ صديقه بمقياس العمر، ولكنه كان رجلاً مَهِيباً عالي المكانة في قومه، لدرجة أن أترابه لا يستطيعون رفع أصواتهم بين يديه، خطأ نحوه يكرر:

- مرحباً مرحباً، بِامْرَاطُنَا وَشَيْخُنَا.

ما إن لامست رُكْبَتَا الجملِ الأرضَ حتى قفز لِمَرَابِطٍ بِخَفَّةِ
الشباب، رغم أنه يربو على الخمسين، وقال في تفرّيع الغاضب مخاطبا
امْهَادِي:

- أيها امْهَادِي، لقد أَرْتِكَ نَفْسِكَ مِنْكَ كَذِبًا، فما الذي أَطْعَاكَ؟
قال امْهَادِي ببرودة أعصاب مفتعلة، وثناياه تلمع في فمه مبتسما:
- لقد منحني أبناءُ عُمومَتِي هذه المكانة، ومن دونهم أنا لا شيء.
انقطعت حبال التوتر التي شدها لِمَرَابِطُ تحت وَقَعِ الكلمات
الهادئة لامْهَادِي، فقال وهو في أخريات الغيظ:

- إذن، فلماذا تأمرهم بالسفر مرة ثانية، وقد تجشموا عَنَاءَ الرحلة
من وادي الحطب إلى «لِفْدَه» في هذا الصيف القاتظ من أجلك،
وبسبب إلحاحك، وحرصا على ألا يجعلوك ضعيفا أمام هؤلاء
النَّصَارَى، وبين شيوخ المجموعات الأخرى.

- لقد حاولتُ مع هذا النصراني أكثر من مرة، ولكنه يبدو مصرا
على الأمر، فَتَعَالَ فِكَلْمُهُ، فلعل هيبتك تنتزع منه ما عجزتُ أنا عنه.
- نعم، سأكلمه وسأخبره أننا لن نأتي إليه، فإن شاء فليرض،
وإن شاء فليغضب.

ثنى عمامته على منكبه، ومسح لحيته الطويلة بيميناه، وجمع كُمَيْهِ وراء
ظهره وأمسكها بيسراه، ثم دخل خيمة النصراني يخطو كأنه طاووس،
كان يتمتم بآيات الهيبة وقَمَعَ العَدُوَّ، وقف إلى جنب المترجم الذي
كان واقفا عند مدخل الخيمة يحرس سَيْدِيهِ:

- قُلْ له إن امرأبُ اتلَامِيْدُ يبلغه أن مجموعة أهل بُوطْرُوْمَه لن
ترحل في هذا الصيف مَرَّتَيْنِ، وقد رحلت بمشقة من وادي الحطب

إلى هذا المكان، وأنه يريد منه أن يأتيها هو بنفسه، أو أن يسمح لها بتحديد مبلغ ضريبتها بنفسها كما اعتادت، أو ليلعم أنها راحلة بعد ثلاثة أيام نحو الجنوب بإذنه أو من دونه.

تَسَمَّرَ النصرانيان في مكان جلوسهما هيبَةً له، وظلا ينصتان بخشوع، وعيناهما تحدقان في الرجل، لا تطرفان كأنهما منحوتتان في صخرة، أعاد المترجم كلام لِمَرَابِطُ بالفرنسية، فهزَّ كُزَأْفِيَّه رَأْسَه طويلا، كان يدير في ذهنه سبيل الخروج من مأزق هذا الرجل البدوي العنيد.

تذكر وَفَقَةَ امهَادِي المفاجئة حين لمح هذا الرجل، واستعاد قصصا سابقة سمعها عند زملائه عن قوة نفوذ بعض رجال الدين في هذا المجتمع البدوي، كما تذكر أن الوفد الفرنسي سيصل بعد غد على أقصى حد، وليس من مصلحة استمراره في إدارة المركز أن يشهد الوفد بعض الاضطرابات في جهته الإدارية. ففرنسا تريد الهدوء في تلك المنطقة بأي ثمن، قرر احتواء الموقف، ابتلع غيظه على الرجل الذي كانت ملامحه غاضبة وخياراته قاسية، قال للمترجم بفرنسية عالية في سلم الأدب الفرنسي:

- قل له إننا سنأتيهم غدا عند طلوع الشمس، ولن نزول من كبد السماء إلا وقد أصبحوا جاهزين للرحيل، واسأله هل له حاجة أخرى؟

- نعم، أسأله عن أحد خيرة رجالنا اختفى منذ فترة، ولم نعلم عنه خبرا، اسمه خَطْرِي.

ما إن لامست مسامع النصراني كلمة «خَطْرِي» حتى امتقع وجهه، وفجأة استشاط غضبا، وقال لأعوانه بلهجة قاسية:

- أَخْرَجُوا هَذَا الْإِبْلَةَ.

كان أمهادي جالسا فوقف دون وعي، مرتبكا بين الحمية للمرابط الذي جرّه عتاة الأعوان خارج الخيمة بطريقة مُدْلَةٍ، وبين إظهار الولاء والتذلل للنصراني الذي يحمي منصبه في هذه الفترة التي تهدده فيها الخلافات الداخلية بفقدانه. وكما يقع دائما فقد انتصر حُبُّ الزعامة على حمية الكرامة، فلم يكن بُدُّ من إظهار الرضى عن موقف النصراني. ألقى النصراني نظرة على أمهادي ولرباط يجرُّه الأعوان مستطلعا ردة فعله، كان يتسم في شحوب، ابتسامة يعرف كزافييه أنها مفتعلة، ولكنها تعبر له عن مدى تعلق أمهادي بمنصبه، واستعداده لبذل كل شيء في سبيله، ولو كان كرامته. كانا يعرفان معا أن الأمر لن يمرَّ بسهولة، فللمرابط ليس بالشخص الهين، سُمعته ومكانته تتجاوزان مجموعته الصغيرة، وتصل حيث يصل إشعاع محظرة أجداده التي لا توجد أسرة في أفله كُله إلا وتحتها أحد متخرجيها أو تلاميذها الحاليين. تقاطر الرجال على خيمة خطري التي وصلها لمرابط مُتعبًا، وكدمات في وجهه وعضديه، كانت ملامح وجهه المتورم جراء لكمات أعوان النصراني مثيرة للحنق والغيط، شفته العليا منتفخة جدا، ما أثر في نطقه لبعض الحروف، وحول كلامه إلى شبه غمغمة مختلطة، تشحذ الغضب في النفوس كلما بدأ يهدأ.

كان الرجال ينظرون إليه فيزدردون غضبهم ويأسهم في آن، لا يسعهم ابتلاع هذه المهانة، ولا شيء يرضي كبرياءهم يمكنهم فعله، وضع الناجي يده على جبهة لمرابط ماسحا حبيبات عرق رشح منها، ثم قال:

- هذا النصراني الذي تسمونه كزافييه تجاوز حدوده كثيرا،

فلا بد من فعل شيء في حَقِّهِ، وعلى امهَادِي أَنْ يَشْكُوَ مِنْهُ للوفد الفرنسي القادم بعد أيام.

اختلطت أصوات الرجال بين موافق ومعارض لما قاله النَّاجِي، تَمَيَّزَ صَوْتُ سَلْمَاتِي مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْجَلْبَةِ:

- كَزَأْفِيَّهِ لَا يَعَامَلُ قَوْمًا إِلَّا وَفْقَ مَا يَرَى أَنَّهُ يَرْضِي زَعِيمَهُمْ، ولو لم يعلم أن امهَادِي يريد تحطيم كبريائنا لما أقدم على فعلته هذه بمَرَابُطْنَا، وما تأجيل استيفاء ضريبتنا إلا بعض ذلك، فمجموعة إِدَاسِرْمِي التي جاءت بعدنا نحن بأيام؛ دفعت ضريبتها وأرسلت مواشيها مع العبيد، ورحل كثير منها منتجعا جنوبا، رغم أنه لم تَمَرَّ سوى سنة على تمردها ورفضها إعطاء العُشُورِ، ولكن مُثَلِّهَا عند النصراري يُقَدَّرُهَا وَيَحْتَرِمُهَا، ولذلك احترمها كَزَأْفِيَّهِ.

- عَجَبْتُ أَمْرَكَ يَا سَلْمَاتِي، لو تأخرت الأمطار هذا العام لَقُلْتُ إن امهَادِي له دَوْرٌ فِي تَأْخِرِهَا، أَبْلَغُ بِكَ حَسَدُ ابْنِ عَمِّكَ هَذَا الْحَدَّ! قالها خَطَّارِي بهدوء حق، لم يلاحظ الرجال شدة تَوَثُّرِهِ إِلَّا حِينَ أَخْرَجَ صُرَّةَ النَّشُوقِ مِنْ جِيبِ فَضْفَاضَتِهِ، وَبَدَأَ يَحُلُّ عُقْدَتَهَا بَيْنَ يَدَيْ النَّاجِي وَلِمَرَابِطِ الَّذِينَ يَكْبِرَانَهُ بِأَكْثَرِ مِنْ عِقْدٍ، فَالْعَادَةُ فِي ذَلِكَ الْمَجْتَمَعِ أَلَّا يَتَنَاوَلَ الْأَصْغَرُ سِنًّا النَّشُوقَ أَوْ الدِّخَانَ إِزَاءَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ، انْتَبَهَ آخِرًا ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَى جَيْبِهِ.

يفقد خَطَّارِي هِدْوَهُ كَلِمًا ذَكَرَ أَحَدَ امهَادِي بِسَوْءٍ، أَوْ اتَّهَمَهُ بِالتَّوَاتُؤِ فِي مَوْضُوعِ خَطْرِي، فَهُوَ وَإِيَاهُ يَنْتَسِبَانِ لِلْعَائِلَةِ نَفْسَهَا، كَمَا أَنَّهُ أَحَدُ أَبْرَزِ الْمَوَالِينِ الَّذِينَ بَدَلُوا جَهُودًا كَبِيرَةً مِنْ أَجْلِ تَنْصِيهِ زَعِيمَا لِلْمَجْمُوعَةِ، وَلَهُ مَعَ خَطْرِي وَسَلْمَاتِي تَارِيخٌ حَافِلٌ بِالْحَزَازَاتِ، فَهُوَ لَا يَرَاهُمَا أَهْلًا لِلْمَكَانَةِ الَّتِي يَتَبَوَّأْنَهَا فِي الْمَجْتَمَعِ.

ألقى اجمَلَه كلماته ثَقِيلَةً قَارِعَةً كَمَا يَفْعَلُ دَائِمًا:

- دعانا من تهارشكما الأبدى، لقد اقتربت صلاة الظهر ولم
تَصِلًا بعد إلى نتيجة، ولا أراكما إلا ستكتفیان بِحَاكِّ مَكَانِ الصَّفْعَةِ
كَمَا يَفْعَلُ الْجَبَّانُ.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقطعه صوت مُعِيدَل آتيا من أقصى
المجلس، كان حزينا وهو ينظر إلى أثر الضرب في وجه شيخه، فجاء
صوته حَادًّا كالمخنوق:

- عجيب أمر هذا الكافر، كيف بلغت به الوقاحة أن يفعل هذا
بوجهك الملائكي الوضيء، لكن لا تنسوا أننا في خيمة خَطْرِي
الذي غَيَّبَهُ هذا النصراني الفاجر، ولا ندري الآن أحي هو أم ميت،
إنهم يستهدفون خيار الناس.

- لِمُعِيدَل لا تنس أنك مجرد صانع تقليدي، يجب أن يظل تفكيرك
في عُوْدٍ تنحته أو سِكِّينٍ تشحذها، ولا يصلح لك الدخول في
صراعات عِلْيَةِ القوم، لا تُقْحِمُ لنا موضوع خَطْرِي في هذا الأمر.
ابتلع لِمُعِيدَل ريقه، وشَدَّ على فأسه بين يديه، بينما كانت عيناه
تقفزان بين وجوه القوم لعله يظفر بمن ينصفه من سكاكين لسان
خَطَّارِي التي تنهش عرضه دون رحمة، لم يظفر بطائل، فما قاله خَطَّارِي
هو قناعة كل هؤلاء الرجال بما فيهم لِمُرَابِطُ نَفْسِهِ، الذي قال له ذات
يوم وكأنه ينصحه ويعظه:

- إن الصانع التقليدي إنسان خُلِقَ قَدْرًا حِرْفَةً مَعِينَةً، وأن
الله خَلَقَ عباده بهذه المراتب وعلى هذه الطبقات، وحين يتطلع
صاحب مرتبة إلى أعلى منها يكون قد اعترض على قَدْرِ الله في
الأرض، وفي ذلك ما فيه من سوء الأدب معه جَلَّ جَلَالُهُ، فكما

أن شريف النَّسَبِ يُزْرِي به أن يَمْتَهَنَ حرفة الصانع، فكذلك يزري بالصانع أن يتطلع إلى مرتبة الشريف، والصانع النبيل هو ذلك الذي يحافظ على علاقته بجميع الحي دون انحياز لطرف دون آخر، عليه أن يظل بلا لون ولا طعم ولا رائحة، إنه لخدمة الجميع، وعليه أن يكون في صف الجميع، أما حين يصبح ذا رأي فقد انتهى دوره كصانع تقليدي، أي قد انتهى وجوده الحقيقي، إنه لن يكون مثل بقية المجتمع ما طلعت شمسٌ على هذا المنكب الأرضي، فخيرٌ له أن يتمسك بإنسانيته المنقوصة، إن الصانع التقليدي كماله في النقص، ونقصه يوم يرنو إلى الكمال.

تجلس العالِيَه وصديقتها الحميمة رَبِيعَه بنت أحمَدُونَا في خيمة الإماء المجاورة لخيمة أهل خَطْرِي، تتبادلان أطراف الأحلام الوردية اللتان ترسمانهما لمستقبلهما، كلتاهما عاشقة، ربيعه تعشق بُتَّازَ والعالِيَه تعشق لِمَرُورَحَ، كانت كل واحدة منهما ترسم للأخرى صورة أَخَاذَةَ ليوم عرسها المنتظر، قالت رَبِيعَه مدغدغةً مشاعر صديقتها:

- سيجيء لِمَرُورَحَ يلبس فضفاضة من «فَلَكْجَه»، ونَعْلًا من «أَجْمَلٍ»، وعمامة من «النَيْلَه»، قد تركت أثرَ زرقنها الداكنة في وجنتيه ورقبته وترقوته، ورائحة الزُّبْدَةِ تفوح من شعر رأسه المَسْرَحَ فلقتين، تظهر من بينهما فَرُوءَ رأسه خَطًّا مستقيمًا من منتصف جبهته إلى منتهى قَفَاه، وأنت جالسة بين بنات لِمُعِيدَلٍ إحداهما تخضب رجليك، والأخرى تسرح شعرك، وسَدُومٌ ولد النُكْرَائِي يعزف أوتاره، وكلما عزف «شُورًا» أتخفه لِمَرُورَحَ بـ«كَافٍ» يتحدث فيه عن جمالك الباهر وسحرك الخلاب، وعن تعلقه بك وغرامه بوصولك.

ضحكت وقد تَوَرَّدَ خَدَاهَا بالخجل المسرور، ثم كَرَّتْ راسمة
لأحلام رَيْبَعِهِ صورةً أكثر بهاءً من الصورة التي رسمتها لها.

كانتا أثناء حديثهما تضربان دُفًا صغيرا، وتنشدان بعض «الأشوار»،
مستغرقتان في عالمها المليء بالأحلام الوردية والشجون الحزينة،
وبين الحين والحين يخرق سمعهما اسم خَطْرِي قادمًا من الخيمة التي
يتجمهر بها رجال الحي، فيثير ذكره شجونًا أخرى لدى العالِيَةِ،
فتصمت لحظات تناجي وَجَدَهَا على أبيها، ثم تنشد في براءة موجهة:

يَمُولُ الْقُدْرَةَ يَا اللَّهُ الْوَاغِي
جِيبٌ بَلَا حَضْرَهُ جِيَابُ الْبَاغِي

تسمعها تَرْبَهُ فَالْ فتبكي سِرًّا حَدَّ النشيج، ثم تتشاغل عن أحزانها
بمتابعة شؤون المنزل، خاصة أن وجود لِمْرَابِطْفَرَضَ عليها تنظيم
ضيافة لجلسائه.

- ما علينا فعله الآن هو أن نكتب عهدا ونُوَقِّعُهُ على عدم دفع
الضريبة حتى يعتذر كُزَافِيِيهِ لنا ولِمْرَابِطْنَا، وحتى يعطينا خبرا
عن خَطْرِي الذي تشير كل القرائن أنه وراء اختفائه، فإننا إذا فعلنا
هذا سنجعل النصراني بين خيارين، إما أن يعتذر فنربح سمعتنا
في المنطقة، وإما أن يرفض فنرفع الأمر بقوة إلى الوفد القادم من
فرنسا، ولن تعوزنا الحيلة في ذلك.

هكذا اقترح سَلْمَاتِي على الرجال، بعدما انصرف الموالمون لامْهَادِي
وفي مقدمتهم خَطْرِي، كانت فكرة مفعمةً بالفروسية، ولكنها محاطةٌ

بمخاطر جمّة، فمن يضمن أن النصراني سيخضع لهذا الابتزاز.

بدأت الحيرة طافحةً على وجوه الجميع، ولكن الحُسم الذي قدمها به سَلْمَاتِي منحهم بعض الحماس، استحسنوا الأمر في النهاية، وتعهدوا بتوقيع الرسالة خاصة أنها لا تشمل سوى طلب الاعتذار لِمَرَابِطُ أتلَامِيدُ، الذي يتفق الجميع على حبه واحترامه، فهو رجل دين إهانتته إهانة للمُقَدَّسِ، وسوى المطالبة بتوضيح الأمر في اختفاء خَطْرِي ومصيره، إلا أن النَّاجِي اشترط أن تكون كل خطوة سيقام بها بتنسيق كامل مع امهَادِي الذي يمثل زعيمَ المجموعة وقائدها السياسيّ.

لم يستطع سَلْمَاتِي إخفاء انزعاجه من اشتراط النَّاجِي التنسيق مع امهَادِي في هذه القضية، ولكنه أيضا لا يريد أن يقع فيمواجهة معه، فهو شيخ كبير، ومن أسرة عريقة، ومكانته في المجموعة لا تقل عن مكانة امْرَابِطُ أتلَامِيدُ، وهو رغم ولائه لامهَادِي وثقته في كفاءته العالِيه لقيادة المجموعة؛ إلا أنه يملك استقلاليّةً وصدقا في المواقف، يمكن توظيفه في قضية واضحة مثل قضية خَطْرِي.

كان المأزق محرّجا جدا، فسَلْمَاتِي كان يرمي من وراء مقترحه إلى أن يكون مناسبة للإعلان العملي عن نفسه قائداً آخرَ للمجموعة، يخاطب النصراني باسمها دون واسطة امهَادِي، واشترط النَّاجِي يضرب خَطَّتَهُ في الصميم.

لمعت في ذهنه فكرةٌ للخروج من المأزق، فوافق على اشتراط النَّاجِي، طالبا منه أن يكتب الوثيقة، ومقابل تنازله دعا النَّاجِي الرجال المجتمعين إلى تكليف سَلْمَاتِي بحمل الرسالة إلى امهَادِي، ومتابعة أمرها حتى تصل إلى النصراني ويعرف رَدَّهُ.

وضعت بين يدي النَّاجِي دَوَاةٌ حَجْرِيَّةٌ وقلمٌ خشبيٌّ وورقةٌ صفراءُ،

قطعها سَلْمَاتِي من مقدمة كتاب «بَدَائِعِ الزُّهُورِ فِي وَقَائِعِ الدُّهُورِ»
المنسب بين كتب خَطْرِي، لم ينتبه النَّاجِي للفخ الذي نُصِبَ له، فَحَبَّرَ
الرسالة بخطه المغربي الأصيل، ولغته الواضحة الفصيحة.

أراد سَلْمَاتِي من وراء تولي النَّاجِي لكتابة الرسالة أن يوقع العداوة
بينه وبين امهَادِي، ومن ثم يجعل النَّاجِي في صَفِّهِ، ليستقوي به على
تنفيذ ما تضطرم به جوانحه من هممة في زعامة المجموعة.

الخطوة واضحة، امهَادِي لن يعتبر هذه الرسالة إلا نوعاً من التمرد
على زعامته، حتى ولو كُلفَ بحملها إلى النصراني، وكتابة النَّاجِي لها
لن تقع منه موقع الرضى أبداً، بل سيعتبرها رسالةً منه بمَوَاطَأَتِهِ لما
يخطط له سَلْمَاتِي ضِدَّهُ، وحين يعاتبه في الأمر سيثير حفيظته. وهنا
يمكن لسَلْمَاتِي بدهائه أن يملأ مساحة الشقاق بما يضمن تباعد قلبي
الرجلين، وحينها سيبقى امهَادِي أعزل من ولاء شَيْخِي المجموعة
المؤثِّرِينَ.

اعترضت غَيْمَةٌ في أدنى الأفق الشرقي مُتَيَاسِرَةً شَمَالًا، تكاثفت
بسرعة منذرةٍ برياحٍ مثقلةٍ بالأتربة الحمراء الداكنة، وقد يكون بها
بعض المطر، لن يَكُونَ غزيراً بالتأكيد، فأنواء مَائُو لا تحمل مُزْنَهَا إلا
الرِّدَادَ الحَقِيفَ.

قال أحد الرجال وقد شد وسطه بعمامته استعداداً لمقاومة ما
ستجلبه العاصفة من متاعب، مخاطباً لِمَرَابِطَ:

- ادع الله ألا يمطر هذا النَّوْءُ حتى لا تهلك مواشينا، فهي هزيلة
لا تحمل البردَ.

أجابه آخر:

- المشكلة ليست في عدم تحمل المواشي للبرد، بل سيفسد المطرُ

حصيد الحشائش، ولن تجد المواشي ما تأكله بعده.
استفاح لِمَرَابِطٍ من تَمْتَمَاتِهِ، ثم قال بهدوء معتاد:
- المطر لا يفسد إلا أصلح بقدر ما أفسد أو أكثر من ذلك، والله
كريمٌ لا يضيع عباده.
قال لِمُعَيِّدَلٍ وهو مُنْكَبٌّ على رجل النَّاجِي، وفي يده مُنْقَاشٌ يستخرج
به شوكة من باطنها.

- صحيح يا مُرَابِطُنَا، ولكن المشكلة الأكبر هي أن الأرض إذا
أُنبِتت في مَآيُو انقطع نَسْلُهَا فَسَاءَ حَالُ السَّنَةِ كُلِّهَا.
قهقهه أَجْمَلُهُ حتى ظهر سواد حفرة نَابِهِ الساقطة:
- كيف ذلك يا لِمُعَيِّدَلٍ، هل تعلمت الحكمة من سِنْدَانِكَ
وَمِطْرَقَتِكَ!

تنهَّد النَّاجِي مستهجنًا كلام أَجْمَلُهُ، ثم أَرْدَفَ مُؤَكِّدًا كلام لِمُعَيِّدَلٍ:
- صدق والله، فالبدور المبتوثة في الأرض تنبت مرة واحدة كل
سنة، فإذا نبتت ولم تجد ما يكفيها من الماء ماتت وانقطع نسلها
لذلك العام، فلم تنبت مرة أخرى ولو سقيت بهاء الطوفان.
عدل لِمَرَابِطٍ من جلسته ورفع بصره نحو السماء، ثم قال كَمَنْ
يقرأ في سطور الغيب:

- هو كذلك، إننا لا نزال في صَهْدِ نَجْمِ البُطَيْنِ، وبعده الثُّرَيَّا
والدَّبْرَانُ، والأمطار عادة - ولا عادة مع الله - لا تبدأ إلى بطلوع
الهقعة والهقعة.

لم يكمل كلامه حتى بدأ صفير الرياح يدوي بين الأشجار، وداخل
الجوّ ظلُّ أحمر قاتم، ما برح أن تحول إلى ظلام دامس، انفض الجمع

مهرولين نحو خيامهم، واختلطت صيحات الرجال والنساء بعضها ببعض. فُرجت أعمدة الخيام حتى كادت تلامس الأرض، بينما اقتلعت الرياح بعضها ورمته خارج الحي بعدما مزقته، ليهول أهله لائذين بالخيام المجاورة.

كانت ساعة كاملةً من الرعب الأسود، عثت أثناءها الزوابع بالقذور وخفيف الأمتعة؛ من الرواحل والهوارج والخيام الممزقة وغيرها، أعقبها غيث خفيف، ولكنه بارد جدا.

تصطك أضراس أمبيريك ويرتجف جسمه من شدة البرد، مفترشا الأرض ومكشوف الظهر للرياح والمطر، ممسكا بطنب خيمة تربه قال، لم تعد كفاه قادرتين على الإمساك بشيء، غبرت جسده الزوابع، ومسح عنه المطر غبارها، تماما مثل شجرة العريض التي يتابع اهتزاز أغصانها أمامه. كان مجهدا إلى أقصى حد، فحسى الصنك التي نهكته أسبوعا؛ لا تزال تعاوده كل ثلاثة أيام، لكن عليه أن يستأنف عمله المعتاد، فلن تفيده الشكوى إلا ضحكات ساخرة، إذا لم تؤد به إلى العقاب والسباب.

بعدها أقلعت الرياح ولم يبق من المطر إلا رذاذ خفيف، أوقد النار بحشائش كان يحفظها في جوالق تربه فال حتى تبقى يابسةً وجلب لها ما استطاع من حطب لم يبلله المطر. جر صغار العجول والخراف إلى حيث يصلهم دفء الموقد، ثم أفرد بضع جمرات كبارا ملتبهةً ووضع عليها قُمقما مملوء بالماء، تركه للهب النار، ثم جال بين المواشي جولة تفقد.

اطمأن إلى حالها ثم عاد وجلس بين يدي القمقم الذي تصاعد منه عمود بخاري لشدة الغليان، ألقى في فمه حبات فستق وحفنة من

حبوب الذرة البيضاء، بدأ يحطمها بأضراسه ويلوكها في شدقيه، ثم أخرج مِخْلَاةً تَبْغِهِ وَحَشًا غَلِيوَنَهُ الْعَظْمِيَّ مِنْهُ. وضع أحد طرفي الغليون في فمه ثم سد طرفه الآخر بجمرة ملتهبة رفعها بين عودين، سحب نفسا دخانيا طويلا وحبسه لبضع ثوان في صدره قبل أن يتركه يتسرب من فمه ومنخره، أحس بلذة التبغ تكوي صدره، فأتبع سحب الدخان بصفير موسيقي يناسب جو الصحو المبلل الذي يحيط به.

كان يملك مزمارا في شفيته، يستطيع أن يعزف بهما كل المقامات الموسيقية، اعتلى باللحظة إلى سماوات وجدانية سامقة، ركب أجنحة الخيال المحلق بعيدا كطير مهاجر، أشرف بخياله على التلّ الذي تتناثر تحته أعرشة قرية «تَامُورِتْ لِكُورْ» حيث عشيقته المَانْدِيغِيَّةُ التي ترك لديها قلبه هدية حُبِّ، لم يكن يملك سواه، فهو عبد رقيق نفسه وماله لِسَيِّدِهِ.

تخيّلها تنتقل بين ظلال أشجار الغابة ترعى غنم سيدها، وتهرب من واقعها المر إلى قلب ذلك العَبْدِ الذي انفتحت بينه وبينها شفرة الحب، أين هو الآن؟ هل يمكن أن يجود الزمن بلقاء آخر. تخيل خواطرها كما لو أنه مقيم بذات صدرها، تمنى لو كان سَلَمَاتِي أهداه أو باعه لِسَيِّدِ تلك الفتاة، فأصبحتا يرعيان الغنم معا، لكن سَلَمَاتِي ليس مالكة، فهو عبد حَظْرِي. قطع تفكيره صوت (العَافِيَه) بقره تَرَبَه فَالْ الأثيرة، وهي تتنسم رائحة ولدها ذي الأسبوع الواحد، زَجَرَهَا حين اقتربت من الخيمة فتسمرت مكانها كجندي دَرِبٍ، لقد أصبحت لطول الصحبة تتجاوب معه بذاكرة عضلية.

عاد إلى حيث تنفياً تلك المَانْدِيغِيَّةُ الفاتنة ظلال العريض، وتقطع أغصان السمر لأغنام سيدها، وتسرح بخيالها في دَمَنِ الحب المستحيل.

لاحظت تَرْبَهُ فَالَ شَرُودَهُ، فمنذ ساعة والقُمَّمُ يزيد غليانا دون أن ينتبه إليه:

- امْبِيرِيكَ، ما الذي يشغل بالك، سَمِعْتِكَ أم مَعِشْتِكَ؟
أنزل القُمَّمُ من على الجمر، كشف غطاءه فاندفق بخار الماء ساخنا،
فتح الإبريق الصغير الأصفر وألقمه كَفًّا من شاي الصين الأخضر ثم
صب فيه بعض الماء الساخن، وأعاد إليه الغطاء كمن يعتق قارورة
خمر:

- لا شيء من ذلك يا تَرْبَهُ فَالَ، كنت أفكر في سيدي خَطْرِي،
أعاده الله سالما، لو كان معنا اليوم لَدَبَحَ شاةً نَدْفَعُ بها البرد في يوم
الذجن هذا.
أراد أن يحرك عاطفتها، وقد أَنْجَحَ خُطَّتَهُ.
تنهدت تنهيدة حُزْنٍ، ثم قالت مدافعة الدمع الذي جَلَّلَ خديها
الأسيلين، وكأنها تهذي:

- أتذكر يا امْبِيرِيكَ قبل أربع سنوات، حين كنت حُبْلَى بهذا
الطفل الذي يجلس إلى جنب الموقد، مُقْرَبًا في شهري السابع، كنا
نازلين على أطراف وادي «شَبَارَ»، أمطرنا عَارِضٌ ذات ضحوة، فما
أقلعت السماء إلا وَخَطْرِي - أعاده الله سالما - يجر كبشا أملح أقرن
اشتراه من عند قافلة الفلَّان، ما رأيت أذ لحما ولا أكثر شحما من
ذلك الكبش.

- نعم، أتذكر ذلك اليوم، فأنا من سلخ الكبش وَشَوَاهُ في حفرة
بين صخرتين، ما زلت أعرف مكانها وأتعهدده كلما طوحت بي
الأيام إلى هناك.

- قاتلك الله، قُمْ فَتَحَيَّرَ من الغنم غير حَلُوبٍ، ثم مُرُّ أحد العبيد

بأن يذبحها وأطعمونا شِوَاءً، ولا تنس أن تبعث للجيران بشيء،
واجعل حصة سَلْمَاتِي الأكبر، هي صدقة عن سيدك، وإذا عاد من
غيبته فلك علي ما تريد.

هم بأن يحدثها عن المَأْنَدِيغِيَّةِ التي خلبت لُبَّهُ، وأن يجعل هديتَهَا له
بعد قدوم خَطْرِي شراء تلك الأمة من سيدها، أو إهداءه هو لأحد
أعيان تلك القرية التي ترفرف بها روح تلك السوداء الفاتنة، ولكنه
أحجم عن ذلك، كان يحدث نفسه: «إنها لن تفهم مشاعري، ولن
تقدر عصافير الحب المتقافرة بين جوانحي، فأنا عبدٌ لا يحق لقلبي أن
يخفق، إني- في نظرهم- مجرد كتلة من الطاقة المادية المسخرة للعمل
الشاق.»

اكتفى بابتسامه رضى، وناولها كأسًا دهاقًا من شاي المفتول، ثم قال
في تدفق إنساني:

- يكفيني من الهدايا أن أملأ عيني من وجه خَطْرِي.

لمح سَلْمَاتِي قادمًا نحوهم ممتطيا صهوة حصانه الكُمَيْتِ فأخبرها
به، رفعت بصرها فرأته والفرسُ تُهْمَلِجُ به، كانت ملامحه قريبةً من
ملامح أخيه خَطْرِي، خاصة هيئة ركوبه وعمامته.

سرحت قليلا في أودية الشجن الحزين، احتست كأس الشاي
بسرعة قبل وصوله، فالعادات تمنعها من احتساء الشاي أمام من
يكبرها سنا، خاصة إذا كان من الأصهار، ثم أردفت قائلة:

- سبحان الله، يقولون إنك لا تذكر اسم إنسان إلا جاءك للتو.

- أهذا صحيح يا تَرْبَه فَالْ؟

كان صوت امبِيرِيك وجسمه يرتعشان، هي حالة تتتابه كلما رأى
سَلْمَاتِي، منذ كلفه باغتيال امهَادِي.

- ما بك يا أمبيريك، أعَاوَدْتِكَ الحُمَّى من جديد؟

كانت رعشته تزداد وأسنانه تصطك كمن يتعرّض لموجة برد قارس، أجاها بدكاء:

- أشعر بالبرد، لعله بسبب رياح المطر الباردة.

رتمته بقرّو مصنوع من جلد مِعْزَاة، وضعه على ظهره، واقترب من الموقد، وبدأ يحرك الجمر تحت إبريقه، بينما واصلت هي حديثها:

- نعم، أخبرني أبي رحمة الله عليه أنه قرأها في كتاب، وقد جربت بنفسي ذلك مرات، وقد رأيت كيف ظهر سَلْمَاتِي الآن فور حديثنا عنه، اللهم لا طارقا يطرق علينا إلا بخير، ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر عظيم.

اقترب سَلْمَاتِي من الخيمة، فلائت ملحفتها على وجهها، وهمست لأبنائها وبناتها بأن يخرجوا من الخيمة لاستقبال عَمِّهِمْ.

ذهبت الرعشة عن أمبيريك، وإن كان قلبه لا يزال يضرب بين أضلاعه بشدة مزعجة، تماسك حتى وقف وناوله حَبَاتٍ من فستق غير مقشر. ربط سَلْمَاتِي رأس اللجام في قُرْبُوسِ السَّرْجِ، ثم بدأ يقشرها ويلتقمها في نَهْمٍ، يَتَمَطَّقُ ويطحنها بين أضراسه بصوت مسموع، كانت الفرسُ نَشْطَةً مستثارةً، تَرْكُلُ الأرض بحوافرها، وتلوي برأسها في كل اتجاه.

- أسرع بكأس الشاي أيها العبدُ فلا تزال ورائي هموم كثيرة.

نهض وناوله كأساً دهاقا، لوى أصبعه في حزام الرغوة الأبيض ثم نَقَضَهُ خارج الكأس، ومدّه إليه، ملاً فراغه شايًا، ألقى ببقية الفستق في فمه ثم شَفَطَ بعنفٍ نصفَ الكأس دفعة واحدة حتى سمع صفير شفّتيه.

أعاد إليه الكأس فارغة، كان ابن أخيه وسَمِيَّةُ ذو الأربع سنوات
يبطش بقوائم الفرس، مديده إليه ورفعها على ظهرها ثم أكَبَّ عليه
يقبله، فجأة قال له الطفل:

- أين دَدَّاي؟

ذلك هو الاسم الذي يطلقه الطفل على أبيه خَطْرِي، دمعت عيناه
فمسحهما بطرف لثامه، رفع الطفل إلى منكبه الأيمن حتى لا يرى
دموعه، ثم قال محاولاً تجاوز اللحظة العاطفية:

- امْبِيرِيك تفقدوا المواشي وتأكدوا أن الجمال لا تزال قريبة من
الحي، واحزِمُوا الأمتعة بإتقان فقد نرحل غداً، وبالمناسبة فإني
لمحت جملٌ تَرَبَّهَ فالٌ زوال اليوم، وهو متسلق مع شجرة عَرَضِيْبٍ
غرب أضواء «التَيْشَطَايَه».

- ذلك جملٌ مجنون، بقيَّةُ الجمال مررتُ بها اليوم ترعى غير بعيد
من هنا، ويبدو أنه انفصل عنها أول الوقت، لكن يا سَلْمَاتِي، هل
انتهت «الحَصْرَه»؟

لم يجبه، ولم يعد امْبِيرِيك السؤال، فقد فهم أن هناك شيئاً غير
طبيعي، فهل سيرحلون باتجاه «اَكْرِيْسَلَات» منتجعين أم سيسوقون
المواشي باتجاه مكان إقامة النصراني حتى يحصيها من جديد؟ لكن، إذا
كان الأمر متعلقاً بتنفيذ طلب النصراني القدوم إليه من أجل إحصاء
المواشي والعييد، ألا يكفي أن نسوقهم إليه، فما شأن الأمتعة والجمال!
نعم، لعلهم يريدون أن يجعلوها رحلةً واحدةً، يمرون على النصراني،
وحين ينتهي الإحصاء يواصلون سيرهم باتجاه أماكن الانتجاع.

- انتظر حتى أجيئك ببعض الشِّوَاءِ، فَتَرَبَّهَ فالٌ قد ذبحت شاةً
صدقةً من أجل خَطْرِي، تركت بعضها لنا، وأمرتني بأن أوزع

بقيتها على أهل الحي.

- حسنا فعلت، فالصدقة تدفع البلاء.

قفز من فوق الفرس تاركا اللجام معقودا بقرْبوسِ السرج، رمته
تَرْبَهُ فَأَلَّ بوسادة من جلد حَشُوها لَيْفٌ، فردها إليها مفضلا الارتفاق
على الأرض، ثم قال:

- رويت عن أبي رحمه الله أن افتراش الوسادة من موجبات
الصُّدَاعِ، وأظنه قال إنه قرأ ذلك في كتاب.

كانت العالِيه تعبت بأناملها في لِمَتِه الكثيفه، تلك عاداتها معه كلما
سنحت فرصة فاضطجع قربها، يحب سَلْمَاتِي حركة الأنامل في شَعْرِ
رأسه، لكنه هذه المرة يريد أن يحدث تَرْبَهُ فَأَلَّ في أمر سِرِّي، لا يود أن
تسمعه العالِيه ولا امْبِيْرِيك.

انصرف امْبِيْرِيك نحو حفرة الشواء، ولن يأتي إلا بعد أن ينضج
اللحم، فطلب من العالِيه أن تذهب إلى امرأة من الجيران تسألها هل
لديها شيء من رماد شجرة العَرَضِيْبِ الذي يدخل في صناعة النَّشُوقِ.
مرت ثوان من الصمت، كان سَلْمَاتِي حينها يفكر في المدخل
المناسب لبدء حديثه الخاص مع تَرْبَهُ فَأَلَّ، أخرج صُرَّتَهُ، ونشق منها
ثلاثا، ثم تنحنح وسعل وعدل من جلسته.

- إنني ومجموعة من رجال الحي ...

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تَرْبَهُ فَأَلَّ، كيف حالكم بعد
المطر.

كان صوت لِعْنَادِ واضحا قادمًا من الجهة الخلفية للخيمة، ولأنها لم
تكن على علم بوجود سَلْمَاتِي تابعت حديثها بأريحية قائلة:

- ما بالك لا تزالين هنا، وكأن التي سيعقد قرائنها الليلة ليست
ابنة أخيك امهادي.

لم تستطع جوابها بحضرتيه، جاء امبيريك يحمل شواءً وأغصان
شجر مُورقةً، وضع الشواء على الأغصان بين يديه، نهس منه مرات
ثم نهض، قفز على فرسه فركضت ميممة جهة الشرق.

الفصل الحادي عشر

- هل سَلَّمَتَ رسالة رجال المجموعة للنصراني، وبم أجابك؟
مباشرة وبنبرة جافية، ودون إلقاء السلام بدأ سَلَّمَاتِي حديثه مع امهَادِي، حينما لقيه صدفةً خارج الحي، قادما من قبل إقامة كَزَافِييَه، رغم أنها لم يلتقيا منذ أكثر من شهرين، حين خرج سَلَّمَاتِي تجاه «تأمورِتْ لِكُورْ» لتَقْصِي أخبار أخيه خَطْرِي، باقتراح من امهَادِي.

اقتربا من بعضهما البعض حتى كانت الفَرَسَان تَحْكُ كل منهما فَمَهَا على حَنَكِ الأخرى، وكان كل منهما يُعَلِّقُ سَكِينَا فِي قُرْبُوسِ سَرَجِهِ، وينظر إلى الآخر بحنق ظاهر. لم يكن ينقصهما عن الاشتباك إلا قَدْحَةٌ زِنَادٍ لَفْظِي، تعكس ملامح امهَادِي إرهاقا بدنيا ونفسيا بِالغَيْنِ، يلمحها الناظر دون عناء، أما سَلَّمَاتِي فقد كان غضبه ظاهرا في نبرة صوته وفي بريق عينيه.

حاول امهَادِي أن يتظاهر بالهدوء رغم الغضب الذي يضطرم أُوَارُهُ بين جوانحه، انتزع بسمهً جافةً لا يدل عليها إلا بروز بعض أسنانه، وقال في نبرة هدوء عاتبة:

- وخيرت بأعلى أبناء العم سَلَّمَاتِي، لماذا لا تبدأ بالسلام والسؤال

عن الحال؟ فنحن منذ فترة لم نلتق بشكل مُباشِرٍ، كيف كان سفرك، علمتُ بقدمك، ولكننا - كما ترى - مشغولون بأخبار «الحَصْرَه» التي طال أمرها، وفي كل يوم يزداد الطين بلة.

كان يواصل حديثه الهادئ وكأنه خالي البال، رغم يقينه أن الأحداث قد تجاوزت كل الذي يقوله، وأن سلماتي يعرف ذلك، وأن فرصة احتواء الأزمة ضاعت يوم اعتدى «كُومِيَات» على لِمْرَابِطُ فاستغل سلماتي الفرصة، ليجعل لِمْرَابِطُ برمزيتها وتأثيره عنوان المعركة بينه وبينه.

- سلماتي، دعنا نلتقي الليلة بعد ما يَنْفُضُ الرجال من عَقْدِ قِرَانِ ابنتي وابنتك أيضا مانه، لا بد أن أعرف ما الذي وجدته في سفرك الأخير من أخبار أختينا وزينة مجالسنا خَطْرِي.

كان سلماتي يتميز من الغيظ، ويشعر بالإهانة بعد كل كلمة يتفوه بها أمهادي، إذ كيف يخاطبه بهذه الأعصاب الباردة، وكأن شيئا لم يكن، يمزغ شفته السفلى وَيَقْطُبُ جبينه بين الحين والحين، ما إن أنهى أمهادي كلامه حتى انفجر مزجرا:

- رَدُّ السلام واجبٌ، ولكن البدء به ليس واجبا، أما خَطْرِي فلو كان أخاك حَقًّا لما فعلت به ما فعلت، ولو كنتَ تتزين بمجلسه لما أبعدته أو قتلته بهذه الطريقة الدنيئة، أما خبره فعندك وعند النصراني الذي بَعَثَهُ له بثمن بخس، وما كنتَ أظنك تبيع أبناء عمك بمنصب، وأما عَقْدُ قِرَانِ ابنتك وابنتي أيضا مانه فسوف أحضره، وأما أن نلتقي بعد فلا ضرورة عندي لذلك، أريد منك أن تجيبي الآن على السؤال الذي بدأتك به: «هل سلمت رسالة رجال الحي لكَرَافِيَه وكيف كان رده عليها؟»

عِيلَ صَبْرُ أمهادي وذهب حِلْمُهُ، وهي حالة نادرة فيه، نزع عمامته

الزرقاء فانسدل شعره الأسبط الأشيب الكثيف على وجهه، رفعه
بيمناه فبدا حاجباه مقطبين:

- سَلَمَاتِي دَعَكْ من هذه الأمور، فأنا أعرف أن رجال الحي ضحايا
أطماعك وطموحاتك التي لا تنتهي، أما حسدك لي فقد ورثته من
حسد أبيك لأبي، لكن المجد والمكانة شيء يمنحه الله لمن يشاء، وقد
منحنا مجد رئاسة هذه المجموعة، أما أنتم فمنحك الحسد الذي
تشتعل ناره في قلوبكم.

- هذا فضول كنتُ أُجَلِّكَ عنه، وِعْيَايَةٌ لم تكن من طبعك، إنما
سألتك عن الرسالة التي سلمتك قبل يومين وعن جواب النصراني.
- الجواب ستراه حين تُقَرَّنُ رَجُلُكَ ويُدُّكَ بالحديد، وتُرْمَى في بئر
مهجورة، أظن الفرنسيين يتركونك تَرَبُّعٌ وتَرَأْسُ!

قالها ثم حرك رجليه في خاصرتي فرسه فاندفعت راکضة، تارگًا
لَسَلَمَاتِي الغضب والغبار، وَقَدْرًا غَامِضًا من جواب سؤاله عن رد
النصراني على الرسالة. لقد أفصح تهديد امهادي الأخير له عن وجهة
الأحداث، وأن النصراني قرر معاقبة الرجال الذين وَقَّعُوا الرسالة.
لكن كيف ذلك؟ هل سَيَسِبُّ أموالهم وعائلاتهم أم سوف يضرهم
أسواط مُهَيَّنَةٌ على أعين الناس أم سوف يعتقلهم ويذهب بهم إلى سجنه
المشؤوم في تَامِشْكَطْ؟ أم أن هذا مجرد تهديد لن يتم تنفيذه ما لم يَتِمَّادَ
مَوْقَعُوا الرسالة في مغاضبتهم وسعيهم لهتك هيبة الإدارة الفرنسية؟

فكر أولًا في الالتقاء سريعًا بِلِمْرَابُطٍ وإِطْلَاعِهِ على تهديد امهادي له،
ونقاش هذه المخاوف كلها معه، غمز فرسه باتجاه الحي، كانت الشمس
مائلة للغروب، تمهل قليلا حتى يعم الظلام فيدخل دون أن يلحبه
كثير من الناس.

كان لِمَرَابِطُ جالسا مستقبلَ القِبْلَةِ في الجانب الشرقي لحِمْيَةَ وَبِرِّ
سوداء، خصصتها له تَرْبَهُ فَالَ التي أصبح يقيم عندها كلما زار الحي،
منذ اختفاء صاحب وده زوجها حَطْرِي. يضع فخذيته على وسادة
جلدية ويمد ساقها اليمنى أمامه، كمن يريد أن يكتب شيئا في لَوْحٍ،
يهتز مستغرقا في أوراده، لا تسمع إلا طَقْطَقَاتُ مِسْبَحَتِهِ الأَلْفِيَّةِ.

ألقى عليه السلام فرده عليه دون مزيد، فمن عادة لِمَرَابِطُ أنه لا
يتحدث بين المغرب والعشاء إلا بما يُرْفَع، صلاةً وتلاوةً وذكرًا ودعاءً،
يرد السلام لأنه ذِكْرٌ، ولكنه لا يسترسل في التحية في ذلك الوقت،
يسمع ولا يجيب إلا بعد صلاة العشاء، جلس جانبه الأيمن مستأخرا
قليلا خلفه، وواضعا يسراه على منكبه:

- لقد التقيت أمهَادِيَقَدْرًا هذا المساء، كان قادما من قبل النصراني،
سألته بم أجاب رسالتنا، فلم يخبرني بشيء، كان غاضبا مرتبكا، وفي
الأخير هدديني بالقيد والسجن، ثم غمز فرسه تاركالي الحيرة والغبار.
كان لِمَرَابِطُ يهز رأسه متعجبا أثناء كلام سَلْمَاتِي، جمع مسبحته في
كفيه ونفث فيها مرات، ثم قال له بنبرة حاسمة:

- اجلس في قِبْلَتِي واجعل وجهك إلى وجهي.

زحف على مقعدته حتى أصبح في قِبْلَتِهِ، ما إن رفع بصره نحوه
حتى صفعه على وجهه بالمسبحة. ثم أمسك بكَفْيِهِ وبسطهما ونفث
فيهما، وأمره أن يمسح بهما سائر جسده إلا عورته المَغْطَّة، وأمره أن
يأخذ تِسْعَ حَبَّاتٍ من المسبحة ويجعلها في خيط ويتمنطق به، ولا ينزعه
إلا ساعة يذهب للخلاء أو ساعة يُجَامِعُ أهله. ثم استطرد قائلا: «لقد
كشف الله لي لقاءك مع أمهَادِي، وتابعت ما دار بينكما، وقد كشف لي
أيضا أن رجلين أرسلهما النصراني بتنسيق مع أمهَادِي ليتجسسوا على

اجتماعه برجال الحي الليلة كي ينقلا فحوى كلامنا، فإذا صدق كشفي
فإنهما سينزلان عند أحمدونا».

نزلت كلمات لِمَرَابِطُ بردا وسلاما على نفسه، فلم يكن يتوقع
منه هذا الحماس الشديد، انجابت غيمة الهموم التي ألقته تهديدات
امهادي، وبدا أكثر رشاقةً نفسيةً من ذي قبل، أَكَبَّ بيديه على ساق
لمرابط الممدودة، وبدأ يضغط عليها برفق مريح، بينما اقترب برأسه أكثر
منه، ثم قال بصوت خافت:

- عَجَبٌ أَمْرُكَ يَا امْرَأِطِي، ليست هذه أول مكاشفاتك، ولقد
التقيت برجلين لا أعرفهما يدخلان الحي بعد الغروب، ويتجهان
فعلا جهة منزل أحمدونا.
هَزَّ لِمَرَابِطُ رأسه مستغفرا، وقال:

- ليس هذا من الغيب، هذا شيءٌ من عالم الشهادة تتفاوت الناس
في إدراكه، أو هو غيب نِسْبِيٍّ كما يقول أسلافنا العارفون.
خَفَّضَ لِمَرَابِطُ من صوته، وجذب إليه يَدَ سَلْمَاتِي كي يقترب أكثر،
فأصبحا شبه متعانقين:

- إن لدي أمرا آخر كنت أكتمه منذ فترة، أردت إخبارك به الآن،
ومشاورتك فيه، ولكن إياك -وأعرف أنك لا تحتاج إلى وصية- أن
تفتح فَمَكَ عنه أبدا.

ازدادت دهشة سَلْمَاتِي وفرحته في آن، فهو يعرف أنه أمر يتعلق
بالأحداث الجارية في الحي هذه الأيام، ولكنه لا يستطيع الجزم بطبيعته،
يأمل أن يكون أمرا يدعم وجهته في صراعه مع امهادي الذي يستغل
الآن فيه قضية إهانة لِمَرَابِطُ، ويجعلها عنوانا له، ولكنه في الوقت نفسه
يخشى أن يكون أمرا يدعم المصالحة بين أهل الحي، ما يعني خسارته

لقضية العمر، وفوات مشروع الزعامة الذي أصبح هو الدافع المسيطر عليه منذ بعض الوقت.

التفت لِمَرَابِطِ يَمَنَة ويسرة، كان يريد أن يتأكد من أن لا أحد قريبا منها، ثم وضع يده على منكبه وجذبه نحوه حتى أصبحت أذنه تلامس شفتيه:

- إن لدي وثيقة مهمة قد تكون الرِّشَاءَ الذي سيخرج قضية خَطْرِي من بئر غموضها، وقد يفضح التحقيقُ فيها دورَ امهَادِي في ما حصل لأخيك، وسأثير قضيتها الليلة في اجتماع امهَادِي برجال الحِي.

قال سلماتي ببرود ظاهر:

- هذا مُبَشِّرٌ.

لاحظ لِمَرَابِطِ العاطفة الباردة البي استقبل بها سَلْمَاتِي الخبر الذي ينبغي أن يكون أهم شيء ينتظره، وثيقة قد يكون فيها إنقاذ أخيه المفقود، إذ ستميط اللثام عن ملابسات ستؤدي لا محالة لمعرفة من يقف خلف سجنه أو قتله.

قال له وكأنه غير معني بفحواها:

- من أين حصلت على هذه الوثيقة؟

- هذا لا يعنك يا سَلْمَاتِي، بُوِي.

قالها لِمَرَابِطِ بحسم انزجر له سَلْمَاتِي بسرعة، فهو يعرف أن هذا الشيخ متمرد بطبعه، ومشهور بمعارضته للمستعمر، وليس سراً تعاونه مع المتمردين على الإدارة الفرنسية، عن طريق التستر عليهم وإعطائهم المعلومات التي تصله عن نيات الفرنسيين وتحركاتهم، ورغم تقدم سنِّه فإن روحه لا تزال تتوثب كما لو كان في ربيعهِ العِشرين.

يمتلك لِمْرَابِطُ مع ذلك شخصيةً حديديةً وهيبيةً لا تقاوم، ولولا تلك المكانة العالِيَّة التي يتبوَّؤها في مجتمعه القبلي، بل وفي نواحي أَفْلَه كلها لكان الآن يقبع سجيناً في بئر عميقة الغور، فالفرنسيون يكرهونه أشدَّ الكُرْه، ولكنهم لا يجروون على المساس بحريته أو كرامته خشية ثوران المجتمع حمية له، وحماسه في قضية خَطْرِي دافعه اشتراكهما في بغض النصارى.

تجاوز السؤال محالاً في الموقف، فإثارة لِمْرَابِطُ لهذه القضية في هذا الوقت بالذات سوف يفقده أمل الزعامة الذي ساقته إليه الأقدار عبر إهانة النصراني لِلِمْرَابِطُ، تلك القضية التي جعلته قاب قوس واحدة من إحداث انقسام حاد في المجموعة، سيمكّنه من قيادة المنشقين، ومن ثم زعامة المجموعة كلها، عن طريق مخطط رسمه في ذهنه، حاول طمأننته، وإعادة روح الثقة لِحوراهما، فقال:

- الذي أسأل عنه يا شيخخي الموقر هو فحوى الوثيقة، حتى يمكنني إبداء الرأي في ما تستشيرني عنه.

تنحج لِمْرَابِطُ ونظر حواليه مرة أخرى، لم يلمح أحداً، التصق بأذن سَلْمَاتِي وَتَمَّتْ:

- هي رسالة بعث بها أصحاب الكُدِيَّة إلى خَطْرِي، فيها أخبار طلب تقدم به حاكم تَامَشِكُّطُ للإدارة الاستعمارية ب«اللِّيَوَانَه» بالتخلص من شخصين أحدهما خَطْرِي بأي طريقة ممكنة، وقد عثر أصحاب الكُدِيَّة على وثيقة الرَّدِّ بالقبول القادمة من «اللِّيَوَانَه» أثناء اعتراضهم لقافلة مؤلفة من تاجر بيضان ومُجَنِّدَيْنِ أصول سنغالية.

قال سَلْمَاتِي بصوت يشبه الصفير من شدة الاندهاش، فقد انسد مجرى الهواء في حنجرتة.

- وهل امهادي على علم بقرار قتل خطري؟

- طبعاً، فالرسالة تتضمن أن امهادي وأربعة من شيوخ المجموعات القبلية في المنطقة؛ اتفقوا مع كزافييه على ضرورة التخلص من هذين الشخصين، وأن التخلص منهما لن تكون له أي آثار سلبية على ضبط الأمن وحالة الهدوء السائدة.

- السلام عليكم ورحمة الله، شيخنا لم رابط القوم ينتظرونك لتعقد قرآن مانه بنت امهادي.

- مرحباً بأخي الزُّلال، وما حاجتهم بي وقد وجدوك أنت، على كل حال، الآن أو ان صلاة العشاء، وبعدها سنذهب إليهم، امبيريك ناولني آلة الوضوء، وإذا كنت قد حلبت شيئاً فعجّل به.

سبع خيام كبيرة مضروبة حول خيمة امهادي، والمواقد حولها تُنضجُ كل ما تُمدّها به المسالخ، خمس عشرة شاة معلقة في جذوع الشجر، تتخافق السكاكين في أيدي العبيد، بينما تتخافق المداق في أكف الإماء، رفعا وخفضا في قعور المهاريس الغاصة بالدُّخن الأبيض، تلك الغلّة التي يصنعن منها برمة الكسكس.

تقتضي الأعراف الاجتماعية في تلك المنطقة أن تُهدى كل أسرة من أقارب الزوج من الدرجة الأولى والثانية عداءً في اليوم الأول للزفاف، يسمونه «الواجب»، وهو جفنة كبيرة مكللة لحماً مدفقة برمة كسكسية تتقاطر سمنًا عبقًا، أما أهل الزوج وحيث يقيم هو وأصحابه فلهم جفان كسكسية أكبر وشياه مشوية.

إذن على تلك الإماء غداً أن يجهزن قبل صلاة الظهر أكثر من ثلاثين جفنة قعساء، وكانت ستكون أكثر من ذلك بكثير، لكن بعض الأسر التي لها قرابات مع الزوج والزوجة معا أرسلت أنها تنازل عن حقها

من «الوَاجِبُ» تخفيفاً على أهل الزوجة.

يضيء القمر وجوه النسوة المتجمهرات غير بعيد من خيمة أهل
المهادي، ينتظرن سماع آخر كلمة من خطبة النكاح، ففي اعتقادهن أن
التي تُؤمَّنُ على أدعية العاقد يتيسر أمر نكاحها، ولكي يُطْلَقَنَّ بَاقَةً من
الزغاريد والتصفيق وبعض المواويل المعتادة عند اللحظة الأولى لانتها
العاقد من خطبته.

يمر أحد الرجال الذين بدؤوا يتوافدون فيكثن حُرُهْنَّ على
وجوههن وهن يضحكن، ويرمينه ببعض الكلمات المازحة، ففي مكان
العرس تَحْفُ صرامة السَّحْوَة حسب التقاليد السائدة هناك.

مَرَّ لِمُرَابِطُ والنَّاجِي يلبسان فضفاضتين بيضاوين جديدتين،
ويعتمران عمامتين من قماش «النَّيْلَة» السوداء، يظهران بياض وجهيهما
الوَسيْمَيْنِ. فهمست إحدى النسوة للمرأة الجالسة جوارها:

- يبدو أن الشيخين تذكرا زمن الشباب!

ردت عليها وهي تَشْخَرُ من شدة الضحك:

- هل صحيح أن النَّاجِي تقدم لخطبتك قبل عام؟

- الناجي يخطب كل يوم امرأتين، أظن عقله قد خرف على خطبة
النساء.

التصقت بحنك زميلتها، وهمست في أذنها:

- هل رأيت تَرْبَه فَالَّ الليلة هنا؟

- لم أَرَهَا ولكني رأيت العالِيَه بنت خَطْرِي، ولا أظنها ستركها
تأتي للعرس بمفردها.

نادت إحدى العجائز الجالسات تحت الخيمة:

- أنصتن يا فتيات، لَعَلَّكُمْ إِذَا سَمِعْتُنَّ خُطْبَةَ النِّكَاحِ تَحِدْنَ مَا تَتَمَنَيْنَ.

تخلق الرجال أمام الخيمة يتوسطهم امهّادي، حاول أن يستغل المجلس كي يظهر أن علاقته بلِمْرَابِطٍ وَسَلْمَاتِي لا تزال ودية وعادية، لذلك أجلسها يمينه ويساره، واضعا أحد ذراعيه على منكب سَلْمَاتِي، بينما ذراعه الأخرى على ركلة لِمْرَابِطٍ. جلس والد العريس ورجال من قومه في مواجهتهم، وتكدست بقية الرجال حولهم، وحتى يوغل في إخفاء الأزمة القائمة بينه مع الرجلين، طلب من لِمْرَابِطٍ أن يتولى عقد القران.

بدأ لِمْرَابِطٍ في إجراءات العقد، سأل عن وكيل الزوج، فانتدب له أحد أعمامه، تجري العادة هناك بأن ينتدب لحظة العقد شخص يتولى النطق باسم الزوج والزوجة اللذين يفرض عليهما العرف الاجتماعي أن يكونا غائبين. كما ينبغي للأبوين ألا يتوليا تلك المهمة لأن العادات تفرض عليهما الحياء في ما يتعلق بأبنائهما وبناتهما. حين سأل لِمْرَابِطٍ عن وكيل البنت المعقود عليها، أشار له امهّادي بسَلْمَاتِي.

هدأت الأصوات إلا صوت لِمْرَابِطٍ خاشعا يتلو فواتح سورة النساء، كانت آخر كلماته: «اللهم اجعل بينهما مودة ورحمة». لكأن الحياة توقفت فجأة ثم تنفس الكون بعدها الصعداء، وانطلقت حياة جديدة، حياة يمتزج فيها الضربُ على الدفوف بالرقص، والزغاريدُ بصوت البنادق التقليدية. خَفَّ كل شيء وفقد رزاقته، حتى الشيوخ الذين كانوا يَتَوَقَّرُونَ قبل العقد اسْتَخَفَّهُمُ الْجَوُّ الطَّرُوبُ، حين مرُّوا بالنسوة وهن يضرين على الدفوف، حرك بعضهم أكمام فضفاضته راقصا بوقار يناسب سنَّه، فضجت النسوة ضاحكات.

انتهى لغط لحظات العقد الأولى لتبدأ السهرة الفنية، تحلق أولئك البدو بطريقة فوضوية، الرجال والنساء يلتصق بعضهم ببعض حسب خريطة العَرام، يجلس الرجل إلى جنب معشوقته أو زوجته، لا فرق، ففي عرصات الأعراس يرتفع الحَرَجُ. يرتفق العشيق جنب معشوقته، يقترب منها لكن دون ملامسة، إنه فَنُّ المسافة البدوي، حالة من الاحتشام الموحى بالفسوق، يتزاحمون على القرب من همِّي بنت لِمَسْرَزُ وأخيها بُوقَال بن لِمَسْرَزُ اللَّذَيْنِ قدما مع أسرة العريس، واللَّذَيْنِ سينعشان أول سهرات عرس مَانَه بنت امهَادِي.

رَنَّت «التِيدِينِيَّتُ» بين يدي بُوقَال رَنَاتٍ متقطعةً، كان يداعبها بأنامله المُلْسِ، يحركها يمنة ويسرة وكأنه أب يهدد أول حفيد. «التِيدِينِيَّتُ» آلَةٌ عَنِيدَةٌ، ولكنها في حِضْنِ بُوقَالِ أَلُوفٌ رُؤُومٌ، ما لبثت أن لانت واستقامت تحت أنامله، كان بُوقَالُ نَبِيَّ «التِيدِينِيَّتِ» في زمانه، وكذلك كان إخوته، الذين كان الناس يطلقون عليهم «أَسْبَاطُ» الفنِّ، وكان أبوهم لِمَسْرَزُ أبو أنبياء «التِيدِينِيَّتِ»، فقد أضاف لها أربعة أوتار فصارت ثمانية، يعزف بها في آن واحد، تلك الطريقة التي أعجز بها فناني عصره ذات مفاخرة فنية بين يدي أمير مَبَارِكِي، بهت الفنانون حينها وانقلبوا صاغرين، فقد كان التحدي معجزا.

ورث منه بُوقَالُ «تِيدِينِيَّتَه» المعجزة، هذه هي المرة الثانية التي سيعزف بُوقَالُ بأوتارها الثمانية، وقد سمع به عشاقها فجاءوا من كل أطراف أَفَلَهَ ليشهدوا مناسك الفن. سعدت «التِيدِينِيَّتُ» السَّلْمُ الموسيقي ل«نَتْمَاسُ»، تحدوها ترنيماته الشجية بأشعار المديح، فَسَكِرَ الجالسون بخمر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم لانت جلودهم وقلوبهم إلى مجلس «أَزَوَانُ».

التقطت همِّي أصداءً «كَرْنَكَايَه» وهي لا تزال أمشاجًا في تَيْدِنِيْتِ
بُوقَالٍ، فعزفته في «آردينها» فصيحًا، وصدحت بحنجرتها الساحرة:

أنتامه كَلْبُ ماة هُونُ

تجاوبت أوتارهما الشجية وحنجرتاهما الذهبيتان، قبل أن تمد همِّي
صوتها ملتاعة:

أَلَا لِللَّيْلِ خَوْفُ الْبَاسِ أَنْتِي ذِي لَمِنِّكَ مَمْكُونُ
نُحِنُ لَكُمْ وَسَوْ ذِي النَّاسِ تُكْغُولَانِي عَالِمُ مَجْنُونُ

حملت نسفات الليل أصداء ترنيماتها بـ«الكَاف» إلى لِمْرَابِطُ وهو
منتصب يتهجّد بأي القرآن، فانهدت مغالبتها للشَّجْنِ الذي ثار بين
جوانحه، انبعثت منه تنهيدة دون وعي، ركع وسجد سجديتين خفيفتين
ثم سلّم، ووضع يديه على طرفي جبهته هَيْئَةً المتحسّر. أرخى سمعه
لتلك الألحان وبدأ يهتز ويردد الحوقلة، انتبهت العجوز التي كان بائنا
عندها تلك الليلة، ولما رأته على تلك الحال فزعت:

- ما بك يا لِمْرَابِطُ، عساه خير؟

- الحمد لله، لم تتركني همِّي وبُوقَالٍ أصلي، ولم يتركاني أنا، رحم
الله شيخنا العلامة صالح بن عبد الوهاب، لقد كان فتى قومه حقا.
- وما علاقة العلامة صَالِحٍ بمجلس «أَزْوَانُ»، يحضره بعض
الشباب في ليلة عرس؟

قال وهو يضغط على الكلمات الأولى مغتاظا:

- أنت جاهلة، «الكَاف» الذي كانت تنشده همِّي قبل قليل من
إبداع شيخنا صَالِحٍ، قاله بعد كَبْرَتِهِ للطَّاهِرَةَ بنت أحمد زَيْدَانُ،
رحم الله الجميع، وهل ترين أنه لا يليق بالشيخ الكبير أن يستمع

إلى الصوت العذب في الليل الساجي البهيج! لقد عرفنا من سلفنا
الذي أدركناه أن شروط الفتوة...
أخرج صُرَّةَ النَّشُوقِ، وقبض منها حصيات بين أنامله. وقبل أن
يتشققها، سأله العجوز:

- ما هي شروط الفتوة؟

انتشق منها مرةً ثم قال يعددها في أصابعه وهو يغالب العطاس:
- حفظ كتاب الله تعالى وحفظ «مختصر خليل بن إسحاق المالكي»،
ومعرفة الموسيقى والخبرة بنظم «الكَيفَان»، والمهارة في ركوب الخيل
والإبل وسلخ الشياه وقَبْلِ الحبال، وأشياء أخرى كثيرة، ولكن هذا
الأساس.

قالت بصوت يثقله النعاس:

- أَشْهَدُ اللهَ أَنَّكَ أَنْتَ فَتَى قومك، فأَيُّ شَيْءٍ ذَكَرْتَهُ هُنَا إِلَّا وَلَكَ
فِيهِ أَطْوَلُ بَاعٍ.

عرف أنها نامت، فانصب مُكَبَّرًا، افتتح سورة الأعراف وبدأ يتلو
بصوته الشجي، يتنقل في تلاوته بين المقامات الموسيقية وفق ما تحمله
النسمات إليه من أصداء العزف، بات المُنْعَشِ الثالثَ لذلك السمر لو
كانوا يعلمون.

لا يكاد لمرباط يقف في جوف الليل تَالِيًا حتى ينشج بكاءً، لكنه في
تلك الليلة لا يدري هل بَكَى بسبب شَجْوِ الموسيقى الذي يُدَاخِلُهُ أم
بسبب زَفِيرِ جَهَنَّمَ الذي تلفحه به آيُّ الأعراف، لكنه يعرف فقط أنه
ارتقى في تلك الليلة مدارجَ رُوحِيَّةٍ لم يرتقها منذ عقل القُرْبَاتِ.

مَحْمَمَتِ الفرس على بعد أمتار من السَّامِرِينَ، فاشرأبت الأعناق

تستشرف القادم، لِمَرُورِحٍ وَبُتَّارٍ على صهوتي فرسيهما قَادِمَيْنِ من المحظرة، يبدو وجهاهما صغيرين مُدَوَّرَيْنِ تحت غابة الشَّعْرِ المنتفشة فوق رؤوسهما، ولونا فضفاضتيهما البيضاوين أصلا يقترب من الصُّفْرَةِ، فمنذ زمان لم يَغْسِلَاهُمَا. تزامن حضورهما مع تلاحق رَنَاتِ «تَيْدِنِيَّتْ» بُوْقَالٍ تُنَاوِشُ «الكَرْصِ»، عَلَّقَ أَحَدَ الحَاضِرِينَ على ذلك مشبها لِمَرُورِحٍ بِهَنُونِ بنِ اعْمَرٍ وَكَدَّ اعْلِي، فأجابه آخر:

- فمن سيكون خَطْرِي الذي سيقْتله؟

تفسحت النسوة تاركاتٍ مكانًا لِلْمَرُورِحِ قرب العالِيه، التي تلملت حياءً، متممة بكلماتٍ اِحْتِجَاجًا على فِعْلِهِنَّ، زحزحت أطرافها العلوية دون أن تَبْرَحَ مَكَانَهَا، حركةٌ تُوحي بأنها غير راضية عن قربه، ولكنها لا تبعده قيدَ أَنْمَلَةٍ، لعبةٌ تتقنها الفتيات البدويات. كانت في دخيلة نفسها ترقص فرحا بمقدمه، فستكون من الآن سيدة السَّمَرِ، سيتردد اسمها في حناجر الفنانين، وفي أوتار آلات العزف، فِلِمَرُورِحٍ سينشد فيها «كَيْفَانُ» غَزَلٍ خالدة، ارتفق إزاءها، لم يلامسها، ولم يبقَ بينهما ما يسمح بمرور النسيم.

حَدَّثَهَا مُحَافَتَةً عن رحلته القاسية من ضواحي «أُمِّ امْقَرِيْفِ» حيث المحظرة، إلى حيث هي الآن في أطراف «لِفْدَه»، وأنه فعل كل ذلك من أجل أن يرى وجهها القدسي، وأن يشاركها فرحة هذا العرس البهيج، كان وجهها يشرق بالسُرورِ والخجلِ في آن، وتبرق بين شفثيها البُيُوتَيْنِ ابتسامَةٌ تمنحها بهاء الحُورِ. كانت سيدة الجمال الفَتِيَّ في ذلك العرس، شَعْرُهَا المَضْفُورِ بقوة يشد صفيحة وجهها فيبدو تماثلا من العَاجِ المَذْهَبِ، وتترك ملحفة «النِيْلَه» الجديدة غِشَاوَةً زرقاء رقيقةً على خَدَّيْهَا تُغْرِي الناظرين.

كان كلما أنشد الفنانون «شور» أبدع «كاف» يتغزل فيه بجملها
الأخاذ، ويودعه أمنياته بأن تكون زينة خيمته بعد عرس مشهود.
ترمقها عيون النسوة، وتداعبها همي متحرشة براءتها الجريئة، يتقبض
خداها على بسمة يحجب وقاحتها توردهما البريء، ثم يغفل عنها
السامرون فتسرح بخيالها في أودية الأمنيات الخضلة، وتشحد خيالها
البريء نغمت «التيدنيث» وهي تنتقل عبر سلم موسيقي روحي،
يبعث كوامن النفس ويهيج ما انطوى عليه القلب من مباحج وأحزان.
سياحة يقطع لذتها تذكرها أباهما خطري المختفي منذ أشهر دون
أي خبر عنه، يقفز إلى ذهنها ما استرقتة من أحاديث سلماتي وأمرايط
أنلاميد قبيل ذهابها إلى العرس، خاصة قول لمرابط إن لديه خبرا عن
نية الفرنسيين قتله بمواطأة خالها امهادي. خواطر تحمل قلبها الصغير
بعيدا عن أجواء العرس البهيجة، وترميه في واد من الشكوك القاتلة،
فهي مقسمة الشجون بين أب لا يعرف مصيره، وخال متهم بما حصل
له، وحبیب استوى على عرش القلب.

غير بعيد من مكان العرس كان هناك اجتماع سري حاسم، امهادي
وخطاري وأربعة آخرون من رجال المجموعة المقربين منه، يجلسون في
أخدود غير بعيد من الحي، ويتحاورون همسا، وكأنهم طليعة عصابة
لصوص، فما فعله النصراني بلمرابط تتطور تداعياته بسرعة مذهلة،
وسلماتي بدأ يتحرك بصفته قائد تمرد على النصارى، مستغلا رمزية
لمرابط.

هذا ما أزعج امهادي الذي لا يرى في تحركات سلماتي غير السعي
للإطاحة به، والاستيلاء على منصبه كزعيم للمجموعة، ومما زاد توتره
وارتباكه أن النصراني لم يسمح له بمفاتيحه في الأمر منذ وقوع الحادثة،

واكتفى بتلقي المعلومات من عيونه الموثوقة في كل مكان.

- سَلْمَاتِي فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعِدْ يَهْمَهُ مَصِيرَ أَخِيهِ، بَلْ هُوَ طَالِبُ مَكَانَةٍ وَمَنْصِبٍ فَقَطْ، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِبَيْعِ أَخِيهِ خَطْرِي بِأَيِّ ثَمَنِ يَأْتِيهِ بِمَنْصِبِ زَعِيمِ الْمَجْمُوعَةِ.

هَزَّ الْجَمِيعَ رُؤُوسَهُمْ رَضَى بِمَا قَالَهُ امْهَادِي، فَنَفُوسُهُمُ الْمَمْتَلِئَةُ حَسَدًا وَغِيظًا عَلَى الرَّجْلِ الشَّرْسِ الْمَقْدَامِ تَسْتَمِرُّ هَمْزُهُ وَكَمْزُهُ، مَسَحَ خَطَارِي صَلْعَتَهُ، وَسَعَلَ ثُمَّ أَخْرَجَ غُلْيُونًا عَظْمِيًّا وَصُرَّةَ تَبْعٍ، مَلَأَ غُلْيُونَهُ لَكِنَّهُ لَاحِظٌ أَنَّهُ نَسِيَ آلَةَ قَدْحِ النَّارِ، ظَلَّ يَمْسُكُهَا فِي يَسْرَاهُ، ثُمَّ قَالَ بِنْبَرَةٍ عَتَابَ حَاسِمَةَ:

- لَمْ يَعِدْ الْأَمْرُ يَحْتَمِلُ التَّلْمِيحَ أَيُّهَا امْهَادِي، وَمَنْ يَرِيدُ عَوْنَ أَخِيهِ لَا بَدَّ أَنْ يَفْضِي إِلَيْهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَمَا هِيَ حَقِيقَةُ مَا حَصَلَ لِحَطْرِي؟ أَخْبَرْنَا أَوْلًا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَتَحَدَّثُ حَوْلَ مَا يُمْكِنُ أَنْ نَفْعَلَهُ تَجَاهَ سَلْمَاتِي وَأَطْمَاعِهِ الشَّرْسَةَ.

قال الرجال وكأنهم ينطقونها بفم واحد:

- نعم الرأي يا خطاري.

كان موقفنا محرجا، فسؤال خطاري يعني تكذيب الرواية الأولى التي كان امهادي يصر عليها عن خطري، ثم إن الأحداث أصبحت أكثر النهابا وسرعة من أن تقبل رواية كاذبة أخرى. لم يعد أمامه سوى قول الحقيقة المرة، لكن قول هذه الحقيقة أيضا قد يكلفه رأسه لا منصبه فقط، فالنصراني حذرهم من أن يبوحوا بأي شيء مما حصل لخطري، فظاهر بالأريحية وقال بنبرة هادئة مفتعلة:

- لا أريد أن أكتم عنكم، ولكن النصارى كما تعلمون لا يسمحون

لنا نحن زعماء القبائل بالحديث في القضايا المتعلقة بأمهم، ولكن

اطمئنوا أني مهتم بقضيته ومصيره، حتى ولو كان خَصْمِي الأول في هذا الحي.

كانت إشاراته كافية، فقد فهموا من ظلال حديثه أن خَطْرِي لا يزال حيا، وأنه معتقل من قبل النصارى في قضية تتعلق بالأمن.

وقف فَجَاءَهُ كمن لسعته جمرَةٌ من تحته، جمع أكام فضفاضته ثم جلس القُرْفُصَاءَ، وقال متمتا، وكأنه يزف لهم بشارة:

- غدا سيأتي النصراني ومعه جنوده و«كُومِيَاتُهُ»، وسيعتقل سَلْمَاتِي وَلِمْرَابِطُ، وحتى لا يبطش بنا جميعا أو يأمر ب«تَسْيِيبِ» الحي كله، عليكم أن تسهموا في تهدئة الجو.

وقع الخبر صادما على الجميع، كيف يأتي النصراني ليعتقل لِمْرَابِطُ وسَلْمَاتِي، قد لا يضرجون من اعتقال سَلْمَاتِي كثيرا، فلهم معه خصومات، وفي النفوس حزازات تحجب التعاطف، ولكن اعتقال لِمْرَابِطُ لا يمكن ابتلاعه.

سكت الجميع، فلم تعد في جوف أحدهم كلمة من فرط الحيرة والاندهاش، انفض سامرهم وذهب كل إلى خيمته متسللا حتى لا يراه أحد.

بينما كان خَطَّارِي ينقل خطوه المتثاقل خارجا من الأخدود، سمع خشخشة في شجرة العَرَضِيْبِ الساقطة في المدخل، ظنها أفعى فقفز وَجِلًّا ليسقط في كومة الأغصان التي يختبئ تحتها امْبِيْرِيك مُسْتَرِقًا السمعَ لمجلس امْهَادِي والرجال الأربعة، لامسه ولكن شدة الفرع أعجلته عن الثبت. كاد قلب امْبِيْرِيك يخرج من فمه، وكاد يصرخ من ألم الشوك الذي نشب فيه جراء وقوع خَطَّارُ عليه، عَضَّ على شفثيه وتَسَمَّرَ كما لو كان جذع شجرة، ثم انتظر حتى أيقن أن لا أحد سيراه،

أَنْسَلَ من بين الأغصان ثم أوغل بعيدا عن الحي، وانعطف راجعا.
كان سلماتي مستلقيا على قفاه أمام خيمته، يتأمل القمر العشريني
ساريا في الأفق الصافي، يأكله الانتظار القلق، لا يدري هل سيُكشَف
امْبِيرِيك، فتنفضح خططه وأسراره، أم سينجح في استراقه السمع
إلى أهم اجتماع يعقده امْهَادِي هذه الأيام، لو نجا من الانكشاف فلا
شك سيأتيه بأخبار هامة، لقد طال الوقت وكادت آخر نجوم الليل
أن تَتَغَوَّر. هم بأن يذهب خارج الحي مُسْتَطَلَعًا، جاءه صوت امْبِيرِيك
مُسَلَّمًا، طلب منه أن يجلس قريبا ويتكلم هَمْسًا، فَصَّ عليه كل ما جرى
في الاجتماع، استوثق منه أن لا أحد رآه، أخبره بسقوط خَطَّارِي على
الكومة التي كان يختبئ تحتها، وأنه من شدة الفزع لم ينتبه له، رغم أنه
لامسه، ضحك حتى لمعت أشعة القمر في ناجذه النحاسية:

- ليس جنبه بالأمر الجديد، أعرفه منذ الصغر لا يستطيع أن
يذهب بين حَيَّين ليلًا، كنا أيام الشباب، حين نذهب ليلًا نحو
الأحياء المجاورة، تنمأً دونه فترجع دون علمه للحي، فيضطره
الخوف للمبيت متسكعا عند الحي المجاور.

ضحك امْبِيرِيك ثم أخذ عصاه وهَمَّ بالوقوف، جاءه أمر سَلْمَاتِي:

- اجلس!

ناوله تيممة جلدية، ثم أمره أن يجعلها في عَضْدِهِ الأيسر، وألا ينزعها
أبدا، إنها وقايتك من الحديد والرصاص وهوام الأرض، وهناك اسم
سأعلمه لك، إذا أردت أن تكلم أمَّك أو أي أحد من أهلك فاذهب
حيث لا يراك أحد ثم استدبر القبلة وكرره مائة مرة، وستسمع كلامها
وتسمع كلامك، ولكن إياك أن تخبر أحدا بهذا، أو أن تخبره بتجسسك
الليلة على اجتماع امْهَادِي، يمكنك الآن أن تذهب.

- لكنك لم تقل لي الاسم الذي أتواصل به مع أهلي بعد.

- آه نسيت، هو: مَهْرُهُوش.

كرره أمبيريك مرات حتى ضبط تهجيته، ثم أخذ عصاه وانطلق خارج الحي، يتفقد بقرات عجاف من قطع خَطْرِي، عجزت عن النهوض لشدة الهزال، فهو يتعهدا إذ انقطع بها الجهد، يذهب إليها في الليلة الواحدة أكثر من مرة خوفاً من أن تأكلها الدببة أو الذئاب.
حين صار خارج الحي استدبر القبلة ثم بدأ يكرر الاسم الذي أعطاه سلماتي:

- مَهْرُهُوش، مَهْرُهُوش، مَهْرُهُوش...

عدّ ثمانين مرة فبدأت الأشباح تحايل له، بقرّة بوجه إنسان، ولسانٌ يخرج من جذع شجرة يكرر بعض الكلمات غير المفهومة، وأشياء أخرى غريبة جداً. ولأنه كان مدفوعاً بخاطر التواصل مع أمّه وأهله، تماسك أمام المشاهد المرعبة، وظل يكرر ذلك الاسم. أكمل مائة، ثم قال:

- أمي أين أنت الآن، هل تسمعيني!

جاء الصوت ثقيلًا متهدجا، كما لو كان أسطوانة معطوبةً، هذا ليس صوت أمي، ازدادت ضخامة الصوت الغريب، اجتاحه الفزع فانقلب راجعا لا يلوي على شيء، ارتقى بين يدي سلماتي مرتجفا. كان منتصبا أمام خيمته يتهدج بالقرآن، تَوَقَّعَ ما حصل لمبيريك، بل كان يريد. واصل صلاته تاركا أمبيريك يرتجف في قبليته. وحين أنهى صلاته وضع يده على قلبه الذي كان يضرب بقوة فرسٍ مذعورة. لقد مسّه الجنيُّ كما كان يريد له، الجنيُّ العُدوانيُّ الذي سيجعله من الآن قادرا على تنفيذ القتل ببرودة أعصاب. لقد اقترب أجل أمهادي. تتم ببعض الطلاسم والأحجبة، ثم نفثها عليه فاستسلم للنوم في الحين.

الفصل الثاني عشر

أصبح الحى هادئا على غير عادته، ليلة كاملة من الطرب والرقص وأحاديث الحب والحياة، لا بدّ من أن يكون صباحها كسولا. النساء اللواتي قفلنَ مع خيوط الفجر ما يزلن في أول صرعات النوم، غير عابئات بنداءات الآباء والأمهات لهنّ بأن ينهضن. وبين الحين والآخر تسمع عتاب كهلٍ أو ولولة عجوز.

العبيد وحدهم استيقظوا باكرين كعادتهم، بدؤوا أشغالهم الروتينية، حلب الأبقار وتعبئة القرب بالماء، وخرج الرعاة منهم نحو المسارح البعيدة، الإماء يرعين الغنم، والعبيد يرعون الأبقار والعجول التي يزداد عددها في بدايات فصل الأمطار.

يجلس امهّادي في خيمته وحوله النّاجي الذي اصطحبه معه من صلاة الفجر، وعتب عليه كثيرا في موضوع الرسالة التي خطها بيده، وسارّه بقرار النصراني معاينة المشاغبين من موقّعي الرسالة، دون أن يذكر له الأسماء بالتفصيل، وأنه استطاع أن يسقط اسمه من لائحة الذين ستطاهم نقمة كزافييه.

كان حوله عباده النّانمي وأتوئديمه، يقيم النّانمي الشاي، بينما

ينشغل أتوئيديمه بمهام أخرى ذات علاقة بعرس ابنته مانه. يظهر امهادي كثيرا من الأريحية رغم القلق الذي يحرمه النوم منذ ليلتين، حين أخبره النصراني بأنه سيعتقل سلماتي ولَمْرَابِطُ.

منذ ساعات الفجر الأولى وهو يعيش ضجر الانتظار، يظن كل حركة وقع حوافر خيل وجمال «كُومِيَاتُ» وهم يحملون أمرا إداريا باعتقال الرجلين. يتخيل الرجال والنساء والأطفال متجمهرين أمام الخيام، وهم يرون لَمْرَابِطُ بوقاره وهيبته يُسَاقُ نحو أحد الجمال ليركبه قَسْرًا، وسَلْمَاتِي بقوته وجَلْدِهِ يتمعر وجهه خزيًا ومهانةً، ويداه مغلولتان إلى عنقه، تعلقو وجوههم الدهشة، ويتهامسون في ما بينهم بأدعية تعبر عن الحسرة والأسى، ولكنهم لا يملكون إلا البكاء صمتًا.

تنجاب هذه الصورة عن ذهنه مخلفة حزنًا متمزجا بالرضى، هو صورة موقفه من الرجلين اللذين أصبحا يهددان مكانته ومنصبه، فجأة تطوف بذهنه صورة أخرى، يُظْهَرُ فيها الرجلان صُموذًا أمام فريق «كُومِيَاتُ»، وتنحاز إليهما فئة من رجال الحي في لحظة عصبية غامرة، فيشتبك الفريقان ويسقط جرحى وربما قَتَلَى من الطرفين، فتتحول القضية من اعتقال رجلين إلى اعتقال حيٍّ كامل، حينها سيخسر سمعته ومنصبه معًا، وسيلاحقه العار إلى الأبد.

يجلس سلماتي إلى جنب لَمْرَابِطُ بعيد الفجر، يقترب منه أكثر ويهمس:

- لا بد من أن نفعل شيئًا يا امرأبطي، لقد أصبحت السكين على رقبتني ورقبتك.

على غير عادته كان سلماتي ينطق الكلمات دفعة واحدة، وكأنه مرعوبٌ أَعَزَلُ يود الفرار من أسد مستثار، رعب قابله سكينه لَمْرَابِطُ،

الذي قال بهدوء مبالغ فيه، وهو يمسح بيده على منكب سلماتي الذي يجلس يمينه على طرف السرير:

- كيف ذلك؟ أمري وأمرك وأمرُ هذا الكون كله لله.

- لقد أفضى أمهادي البارحة لخطّاري ومجموعة من رجاله بخبر خطير.

كلما زاد توتر سلماتي نزلت السكينة على قلب لمرابط، الشيخ الذي لا تهده العاتيات، قال وكأنه يهزأ من وصف سلماتي للخبر بـ«الخطير»:

- وما هو الخبر الخطير؟ الخطير هو أن يُنادَى على المرء بأنه من أهل النار، ما دون ذلك لَعُوٌّ ولَعْبُ أطفال.

- لقد اجتمع البارحة بخطّاري وبقية رجاله الذين يثق فيهم، ممن تعرفهم، بعد ما انفَصَّ جمعنا من عَقْدِ قِرَانِ ابْنَتِهِ، وأخبرهم أن النصراني سيأتي اليوم أو يرسل «كُومِيَاتِهِ» لاعتقالي أنا وأنت، وطلب منهم أن يهدّثوا الحي حتى لا يحاول الرجال منعهم من ذلك. لوى لمرابط شففته السفلى مستهينا، وقال بنبرة هازئة:

- فَظْمَه، وهل يستطيع النصراني أو غيره أن يفعل بي أو بك أو بغيرنا إلا ما يشاؤه الله، وهل ظن أمهادي أو نصرانيه أننا غزلاً، التي يسطادها في صحاري «لِفْدَه»، هيهات، هيهات.

- هل تظن الأمر مجرد تهديد!

- لا يهمني ذلك في الحقيقة، هذا بالنسبة إلي تطاول من أمهادي، ونَحْدٌ للمجموعة كلها، بل ولعلاقة النَّصَارَى بأهل هذه المنطقة، وسأجعله وأجعل النصراني يأكلان أيديهما ندماً عليه.

ارتفعت معنويات سلماتي، مع أنه لا يزال قلقاً، فقد أجذب ذهنه الخصب من أي تصور لطريقة مشرّفة للخلاص من هذا البلاء الذي

سيحل بهما، طرح على لِمَرَابِطُ سؤالا يظنه تعجيزيا:

- ماذا سنفعل إذن يا امرأبطي الغالي.

كان لمرباط مضطجعا فجلس، وكَوَّرَ عمامته البيضاء على رأسه، وقال بنبرة عاتبة مستغربة:

- أين ذهب عقلك يا سَلْمَاتِي! وبم يواجه الرجال الرجال!

بدت الكلمات واضحة، والنبرة صريحة، فَلِمَرَابِطُ يقرر المواجهة، ويرفض الاستسلام، اقترح أن يخرجنا من الحي قبل مجيء النصراني و«كُومِيَاتَه»، حتى لا يطال الصبية والنسوة بطشهم، واتفقا على ألا يعلما بتفاصيل الخبر سوى أَجْمَلَه، الرجل الذي يُعَوَّلُ على قوته وشجاعته، وأن يصطحبا معهم النَّاجِي دون أن يحدثاه عن خبر الاعتقال، إذا لم يكن امهَادِي قد استطاع أن يغير موقفه منهما في مجلس الصباح.

كان أحد أعيان قبيلة أهل بُوظْفِيرَه الصديقة قد توفي ملدوغا قبل يوم واحد، فاتفقا على أن يكون السبب المعلن للرحلة هو تعزية أهله، أخبرا أَجْمَلَه بكل التفاصيل، وحدثاه عن قرارهما عدم الاستسلام، اقترح عليهم أن يصطحبوا معهم امبِيرِيك وثلاثة عبيد آخرين ذوي قوة وبأس.

التحق لِمُعِيدَلُ بالمجلس وأخبرهم صدفة أنه رأى مساء أمس موكب النصراني و«كُومِيَاتَه» عند أضاة «أَكْمَاش». لم يكن لِمُعِيدَلُ على علم بأنهم متجهون نحو الحي، فَلِمَرَابِطُ وسَلْمَاتِي وحدهما علما بالخبر، وامهَادِي نفسه لا يعلم أنهما على علم بذلك، بل يظن أن اجتماعه البارحة كان في مأمن من أي جاسوس.

سأل لمرباط لِمُعِيدَلُ بحذر عن الوقت الذي رأى فيه موكب كُزَافِيَّه مساء أمس، عرف من خلال إجابته أنهم سيصلون الحي قبل الزوال

أو بعده بقليل، بعد تلامح سريع بالعيون قرروا أن يصارحوا لمُعَيِّدَلْ بوجهتهم، وبما استجد عليهم من أخبار، فهو رجل ثقة شجاع، وولاؤه لِلْمَرَابِطِ وَخَطْرِي، كما أن سنواته التي أمضاها مع رجال الكِدْيَةِ جعلته يكره النصارى وشيوخ القبائل الذين ينصبونهم.

علم النَّاجِي أنهم يتجهزون لرحلة نحو «اجْحَافِيَه» لتعزية أهل الرجل المتوفى، استأذن من امهَادِي الذي حَمَلَهُ تعازيه لأسرة الفقيد، وطلب منه أن يخبرهم أنه لم يستطع الذهاب إليهم بسبب متابعة شؤون «الحَصْرَه». أراد لمُعَيِّدَلْ أن يرافقهم، حاولوا صَرْفَهُ عن ذلك ولكنه أصر، انطلق الموكب المؤلف من أربعة جمال يركبها أربعة رجال، وأربعة عبيد يغذون السير إزاءهم مشيا على الأقدام، يصطحب كل رجل سكيناً طويلةً وعصاً غَلْبَاءَ ملساء.

بدا امهَادِي فرحاً برحلتهم تلك، فهي ستجنبه حرج موقف كان يؤرقه، سيلتقي بهم النصراني خارج الحي، ويعتقلهم بعيداً عن أعين النسوة والصبيان، وسيصل الخبر بارداً باهتاً، ثم تبدأ محاكمتهم في تَامَشِكُطْ أو في مركز كيفة. كان يعتبر تلك الرحلة مَنَحَةَ الله له، فهي ستنقذه من مكر سَلْمَاتِي ورَمَزِيَةَ لِمَرَابِطِ، وسيَحْمَلُ الناسُ النصرانيَّ مسؤوليتها، أما هو فسيظهر معارضا لاعتقالهم، وساعياً لإطلاق سراحهم لدى النصراني، كما فعل مع خَطْرِي.

حَمَلْ أحد «كُومِيَاتْ» المقيمين عنده لاستيفاء العُشُورِ رسالةً مستعجلةً لِكَزَافِيَه، أخبره بوجهة القوم ووقت انطلاقهم، ومسارات طُرُقِهِمُ المحتملة، أحسَّ بارتياح يشوبه قلق بسيط. لَبَسَ جُبَّةَ «أشِيَاخَه»، وجاس خلال الحي مُسَلِّمًا ومُبَيِّنًا أسباب طول «الحَصْرَه»، ومبشراً بأنها ستنتهي في أقرب وقت. دخل خيمة خَطْرِي حليفه وصديقه، كان

مستلقيا على ففاه يقرأ نسخة قديمة من كتاب المدخل لابن الحاج، فسح له المكان فجلس، بدأ خَطَّارِي يقرأ جهرا: «ومن الذخيرة، قال الطرطوشي رحمه الله تعالى إن أَخَذَ الْفَأْلَ بالمصحف وضرب الرمل ونحوهما حرام، وهو من باب الاستقسام بالأزلام، مع أن الفأل حسن بالسنة... إلخ»، قال امهَّادِي وهو يُمرَّرُ يده على لحيته التي غزاها الشيب كثيرا:

- ابنُ الحاجِّ عَالِمٌ، ولكن أسلافنا لم يكونوا يأخذون بكلِّ ما يقوله، وقد شهدت والدي رحمه الله يأخذ الفأل بالمصحف، وقد أخذته أنا مرات وما ندمت.

- صحيح، ولكنه ذكر مسألة أخرى قد تدخل الآخذ بالفأل من المصحف ورطه، ذلك أن مَلِكًا فَتَحَ المصحف يوما ليأخذ الفأل فقابله قوله تعالى: «وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ».

- أعوذ بالله، أعوذ بالله، هل علمت برحلة القوم إلى «الجحافية»؟
- نعم، لقيت النَّاجِي وهو في طريقه إليهم، ثم خَفَّصَ صوته وأضاف: أين خبر كُرَافِييَه وأعوانه، هل لا يزال قادما اليوم؟ وماذا سيفعل إذا جاء ولم يجدهم هناك؟ هل سيتبعهم أم سيتركهم حتى يرجعوا من رحلتهم هذه؟

اقترب منه امهَّادِي وهمس في أذنه:

- هي منحةُ الله لنا يا خَطَّارِي، لقد أرسلتُ إليه أحد «كُومِيَاتٍ»، وأخبرته برحلتهم ووجهتهم، وسيدرُكهم قبل أن يصلوا «الجحافية»، ويعتقلهم من هناك.

قال خَطَّارِي دون رَوِيَّة:

- بل هي الكارثة، لا أظنهم سيستسلمون له ببساطة، ألا تعلم أن

معهم اَجْمَلَه الأسد المصور الذي يستطيع أن يبطش بأربعة أو خمسة من «كُومِيَات»، ومعهم لِمُعِيدَل الذي يعادله قوةً وشجاعةً.

سكنت عينا امهَادِي من الدهشة، فقد كان يظن أن النَّاجِي وحده من خرج مع لِمْرَابِطٍ وَسَلْمَاتِي، أما وقد خرج معهم لِمُعِيدَلٍ وَاَجْمَلَه فذلك يعني أن ما خَشِيَهُ سيقع ما هو أطمُّ منه، والأدهى أنه لم يعد هناك أمل في تلافيه، عَصَّ على شفته السفلى، وظل لدقائق يهز رأسه متحسرا.

- لقد فعلها الماكر، لقد فعلها...

قال خَطَّارِي مُسْتَعْرِبًا:

- من تعنيه بكلامك أيها امهَادِي؟

- من الذي يملك هذا العقل المراوغَ غيرُه، إنه سلماتي، تلك الأفعى التي لا تموت إلا إذا فُصِلَ رأسها عن بقية جسدها، ولكنني سأفعلها به.

شَبَّكَ يَدَيْهِ ثم أطرقَ واجما مستغرقا في تفكير عميق، ظل خَطَّارِي يراقبه دون أن ينبس ببنت شفة، فجأةً رفع رأسه، وقال له:

- خَطَّارِي هل رأيت أحدا البارحة بعد تفرقنا من الاجتماع في الأخدود؟ فإني أظن سَلْمَاتِي قد تَجَسَّسَ علينا، لم يكن هو ولا لِمْرَابِطٍ يفكران في هذه الرحلة.

تذكر الخشخشة التي أفرغته البارحة عند مدخل الأخدود عودته من الاجتماع، وكيف أَحَسَّ بعد سقوطه بجسم تحته، ولكنه لشدة الفرع لم يستطع تَبَيَّنَ حقيقته، لكن سؤال امهَادِي أعاد إليه الشك من جديد.

- لم أر أحدا، ولكنني سمعت عند قُفُولِي خشخشةً في شجرة العَرَضِيْبِ الساقطة عند مدخل الأخدود، وحين قفزتُ عثرتُ بغصنٍ فسقطت على الأشواك.

- لم يُعَدُّ لَدَيَّ شَكٌّ فِي أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا مَّا وَرَاءَ رِحْلَةِ الْقَوْمِ، عَلَيْنَا أَنْ نَسْتَعِينُ بِخَبْرَةِ أَحْمَدُونَ فِي تَقْفِي الْأَثْرِ، لَنَعْرِفَ هَلْ كَانَ هُنَاكَ أَحَدٌ يَخْتَبِئُ فِي تِلْكَ الشَّجَرَةِ السَّاقِطَةِ.

- وَلَكِنْ أَحْمَدُونَ حِينَ يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ سَيَعْرِفُ آثَارَنَا جَمِيعًا، وَسَيُنْكَشِفُ أَمْرَ اجْتِمَاعِنَا لَهُ.

أَطْرَقَ امْتِهَادِي قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ:

- لَدِي فِكْرَةٌ، سَأَذْهَبُ الْآنَ لَطَمَسِ آثَارِنَا حَوْلِي الْأَخْدُودِ، ثُمَّ أَذْهَبُ أَنَا وَأَنْتَ إِلَيْهِ عِنْدَ خِيْمَتِهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَطْمِئِنَّا بِنَا الْمَجْلِسِ تَحْبُرُنَا بِأَنَّكَ سَمِعْتَ خَشْخِشَةً فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، وَأَنْ عَلَيْنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَيْهِ حَتَّى نَأْمَنَ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْئًا مِنَ الثَّعَالِبِينَ الْعَمَلَاقَةِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي هَذِهِ الْمَنْطِقَةِ، وَسِيرِي هُوَ الْأَثْرُ هُنَاكَ وَيَعْرِفُ صَاحِبَهُ إِذَا كَانَ بَشَرًا.

- خِطَّةٌ جَيِّدَةٌ.

- دَعْنِي أَكْمِلُ زِيَارَتِي لِبَقِيَّةِ أَسْرِ الْحَيِّ وَسَأَلْتَحِقُ بِكَ عِنْدَ أَحْمَدُونَ، فَاذْهَبْ إِلَيْهِ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ لِلصَّلَاةِ فِي الْحَلَاءِ.

وَدَعَهُ وَوَاوَصَلَ سِيرَهُ، كَانَتْ فِي طَرِيقِهِ خِيْمَةٌ أُخْتَهُ تَرَبَّهُ فَالَّ، دَخَلَهَا مُسَلِّمًا، تَقَافَزَ نَحْوَهُ الْأَطْفَالُ، وَنَهَضَتْ الْعَالِيَةُ مُطْرِقَةً تَعْلُوهَا سَحَابَةٌ حَزْنٍ، أَمَا تَرَبَّهُ فَالَّ فَقَدْ حَاوَلَتْ أَنْ تَقْفَ، وَلَكِنهَا عَجَزَتْ عَنِ ذَلِكَ، كَأَنَّ خَدْرًا سَرَى فِي عِظَامِهَا، جَلَسَ إِلَى جَنْبِهَا عَلَى طَرَفِ السَّرِيرِ الْبَدْوِيِّ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَنْكِبِهَا، تَبَادَلَا سَلَامًا مُقْتَضِبًا ثُمَّ دَخَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نُوبَةٍ صَمَتٍ.

كَانَ أُنَاءَ صَمْتِهِ يَسْتَرْجِعُ فِي ذَاكِرَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْمَرْعَبَةَ، حِينَ خَرَجَتْ لَهُ مِنْ مَسْلَاخِ رَجُلٍ فِي آخِرِ الْهَزْبِيعِ، كَلِمَاتِهَا الْقَلِيلَةُ الَّتِي اخْتَرَقَتْهُ كَسْكِينٍ، بِصَاقِهَا عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ قَوْلُهَا لَهُ بِصَرَامَةِ قَاسِيَةٍ: «إِذَا مَاتَ

حَطَّرِي فَكْتُبِ وَصَيْتِكَ». أَمَا تَرْبَهُ فَالْ فَقَد رَجَّ الزَّلْزَالَ النَّفْسِي أَرْكَانَهَا، فَجَفَتْ مِشَاعِرَهَا فِي لِحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، لَمْ يَعِدْ يَدُورُ بِذَهْنِهَا أَي شَيْءٍ، سِوَى أَنْ يَدَّ أَخِيهَا أَصْبَحَتْ تَحْسِبُهَا بَطْنَ أَفْعَى صَحْرَاوِيَةٍ شَرِيرَةٍ.

أَعَادَ السُّؤَالَ عَنِ الْأَحْوَالِ مَحَاوِلًا بِسَطِّ الْحَدِيثِ، وَلَكِنِّهَا كَانَتْ تَجِيِبُهُ بِاقْتِضَابِ مُوَجِّعٍ، بِكَيْ سِرًّا إِذْ أَيْقَنَ أَنْ لَا أَمَلٌ بَعْدُ فِي إِعَادَةِ الْعِلَاقَةِ مَعَ أُخْتِهِ، أَلِمَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا، وَأَلْمَهَا أَكْثَرَ، فَمَنْ كَانَ يَقْدِرُ أَنْ تَرْبَهُ فَالْ وَأَمْهَادِي يُمَكِّنُ أَنْ تَجْرِي بَيْنَهُمَا غَيْرَ مِيَاهِ الْمَوْدَةِ وَالْحُبِّ!

انْسَلَتْ الْعَالِيَةَ مِنْ طَرَفِ الْخِيْمَةِ نَحْوَ أَهْلِ لِمُعَيْدَلٍ، كَانَتْ بِنْتُهُ الْفَارْزَهَةَ قَدْ هِيَأَتْ مَعْجُونِ الْحِنَاءِ لِلْخِضَابِ، وَخَلْطَةَ عُشْبِيَّةٍ أُخْرَى لِتَسْرِيجَةِ الشَّعْرِ، أَرَادَتْ أَنْ تَزِينَهَا لِحَفْلَةِ الْمَسَاءِ فِي عَرَسِ مَانَةَ بِنْتِ أَمْهَادِي، مَدَّت رَجْلَيْهَا وَبَدَأَتْ الْفَارْزَهَةَ تَرْسِمَ عَلَى يَدَيْهَا تَطْرِيذَاتٍ سَاحِرَةٍ.

دَخَلَ لِمُرُورِ حٍ، حَيْثُ الْفَارْزَهَةَ طَالِبَةٌ مِنْهُ أَنْ يَتَغَزَلَ بِبِدَايَاتِ تَوْرُدِ الْحِنَاءِ فِي كَفِّي الْعَالِيَةِ، ارْتَجَلَ «كَافٌ» لِتَوِّ، أَبْرَقَتْ أَسَارِيرَ وَجْهِهَا الْفَاتِنِ، دُونَ أَنْ تَبْتَسِمَ خَجَلًا، وَلَكِنْ بَرِيقَهُ كَانَ الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ لِرَفْرَفَةِ قَلْبِهَا الصَّغِيرِ، إِعْجَابًا بِذَلِكَ «الْكَافِ» الْأَصِيلِ.

سَقَّتْ ابْتِسَامَتُهَا جَدِيدَ رُوحِهِ فَأَخْصَبَتْ فِي لِحْظَةٍ، وَاسْتَخَفَّتْهُ الْوَجْدُ فَمَدَّ أَصْبَعَهُ نَحْوَ إِحْدَى يَدَيْهَا مَازِحًا، طَالِبًا مِنَ الْفَارْزَهَةَ تَغْيِيرَ بَعْضِ التَّطْرِيذَاتِ، وَاسْتَبَدَّلَهَا بِأُخْرَى، كَانَ يَرِيدُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ أَنْ يَلْمَسَ كَفَّهَا، لَكِنِ الْعَالِيَةَ رَدَّتْهُ بِلُطْفٍ، لَمْ يَنْتَهَ إِلَّا حِينَمَا زَجَرَتْهُ الْعَجُوزُ الْمُكَبَّةَ عَلَى مِصْحَفِهَا فِي طَرَفِ الْخِيْمَةِ:

- لِمُرُورِ حٍ ابْتَعَدَ عَنِ الْعَالِيَةِ، اجْلَسَ إِلَى جَنْبِي أَوْ إِلَى جَنْبِ أُخْتِكَ الْفَارْزَهَةَ، فَأَنْتِ وَهِيَ رَضِيْعَا لِبَانِ ثَدِي امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ.

تَزَحْزَحُ لِمُرُورِ حٍ مَبْتَعِدًا عَنِ الْعَالِيَةِ، مُسْتَغْرِبًا فِي نَفْسِهِ مِنْ صَرَامَةِ

العجوز التي خرجت على الأعراف المتخيلة لذلك المجتمع، الذي لا يرى هيبة لخيام الصناع التقليديين، فهي عندهم ملتقى الأحبة، ومكان اقتناص اللذات العابرة بين العاشقين. لكن أسرة أهل مُعَيْدَل عرفت في ذلك الحي بالصرامة الأخلاقية، ولولا أن وسمهم المجتمع ظلما بسمه «مُعَلِّمِينَ» لكانت أسرهم في طليعة الأسر الكبيرة في ذلك الحي.

أبوهم مُعَيْدَل حافظ متقن وفقه ضليع وشجاع لا تهزه القوارع، وأمهم كَجْمُوْلَه تحفظ القرآن أيضا، ولكنها مشهورة بقوة الشخصية ورجاحة العقل وكثرة العبادة، وقد اصطدمت مرات ببعض أبناء وبنات القرية ممن حاولوا أن يتذلوا أسرتها بممارساتهم غير الأخلاقية.

- متى سيكون عرسكما أيها العاشقان؟ سمعت أنك طلبت من أمك أن تذهب اليوم إلى تَرْبَه فَال كي تخطب منها العالِيَه!

امتقع وجه العالِيَه خجلا، وانسكب في بطنها شيء لا تعرفه، كلما تعرفه أنها أحست بعده بما يشبه ألم الدُّوسَنْتَرِيَا، ثم أصيبت بإسهال مفاجئ، هي حالة من أثر الخجل الحاد تتاب فتيات البدو أيام الخطبة والعرس، غرس لَمْرُوْرَح أنامل يمناه في لمته الكثيفة حديثه العهد بالدهان، ثم رفع حاجبيه الأوطفين، وقال:

- إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.

ضحكتا معا.

انتهت الفَارْهَه من خضاب يدي العالِيَه، ثم استأنفت خضاب رجليها، كان لَمْرُوْرَح سَاجِي الطَّرْفِ يتأمل لطافة أناملها المنغرسه في كفها الغض الناعم، تظاهرت بعدم الاكتراث، وكأنها بذلك التغافل تحرضه على مواصلة النظر.

- هذا أثر امْبِيْرِيك.

نطق أحمَدُونَا الكلمات الثلاث بثقة عالية ودون مبالاة، وكأنه يعطي معلومة عابرة، فهو إنما جاء لبحث عن أثر أفعى أو حيوان مُفْتَرِسٍ، ارتبك الرجلان الواقفان خلفه، تبادلنا نظرات سريعة دون أن يلمحهما.

- امْبِيرِيكَ! تعني عَبْدَ خَطْرِي؟ تَأْكُدُ يَا أَحْمَدُونَا.

قالها امْهَادِي باندهاش ظاهر لم يَفُتْ على أَحْمَدُونَا، كما لم يَفُتْهُ أسلوب التوثيق الذي تكلم به، عندما نَسَبَ امْبِيرِيكَ لَخَطْرِي، مع أن امْبِيرِيكَ عَلِمَ على ذلك العَبْدِ المتميز عقلا ولطافة.

- نعم، هذا أثره، وهل يرتاب المرء في ما يراه بعينه! ثم أضاف مؤكدا: نعم، هو والله أَثْرُهُ، وهذا أيضا أثر خَطْرِي، ويبدو أن أثرهما منذ فجر اليوم أو قبل الفجر بقليل.

هَزَّ امْهَادِي رَأْسَهُ المثقل بالهموم، ثم أومَصَّ بعينه لَخَطْرِي أن يَكْرُرَا راجعين، كان يخشى أن يعثر أَحْمَدُونَا على آثار بقية رجال البارحة، إذا طال طوافهما بالأخدود. وعندما وصلا إلى الحي ذهب أَحْمَدُونَا إلى خيمته، لم يثر شيء من الأمر انتباهه، بينما سار امْهَادِي و خَطْرِي صامتين تلفحهما مشاعر الخيبة والاستغراب، فقد انكشف المستور، واستطاع سَلْمَاتِي وَلِمْرَابِطُ أن يتجسسا على اجتماع البارحة الحَاسِمِ، ولم يعد في الوُسْعِ توقع ما سيأتي به الغد.

انفضت في ذهنه زوبعة خواطر، ندم على إخبار كَزْأَفِيئِهِ برحلتهم، لو لم يخبره لكان الآن يجوس خلال الحي، ودَعَا خَطْرِي وانطلق كالسهم خارج الحي، يسابق الغروب كي يمسح الغِيَاضَ المجاورة بحثا عن بَقَرَتِهِ التي تأخرت البارحة عن القطيع، ربما وضعت عِجْلَهَا في مكان مَّا، وأقامت عليه لضعفه عن المشي. ومن شدة الذهول، لم ينتبه لذهابه عنه إلا حين ناداه باسمه، ولم يتلقَ أي جواب. التفت حوله فلم

ير أحدا، تذكّر أنه سمعه يودعه.

رنت نغمات العود في الخيام المنصوبة للعرس غير بعيد من خيمة امهّادي، وبدأت الجماهير تَفدُ زرافات ووحدانا، كان خبر خطبة لمُرورح للعاليّه هو الأهم في ذلك المساء المظلل بسحبٍ يوئيو. جاءت تعثر في براءتها المخصّبة بالحناء، تتكوم صفائر شعرها الكثيف كأنها تاج أميرة، وتترك «النيله» على خدّيها غلالة رقيقة من الزرقة الفاتنة، ترمقها عيون الرجال والنساء بلا هوادة، فتخفض طرفها الساحر خجلا. كانت سيدة الجمال في ذلك المساء العليل، حين وصلت مكان العرس وقف لمُرورح طالبا من الفنانين سماع «گاف» الغزلي الذي أبدعه بوحي من لحظة قدومها البهيجة:

مِتْكِنتُ إِلَيْنُ سَكِنْتُ وَانَ مَا كِنْتُ أَثْرِي
وَآخَرَ لَعَادِتْ مِنْتُ خَطْرِي كَيْفَتْ خَطْرِي

انبعثت الزغاريد في أطراف الحفل احتفاء بـ«الگاف» البديع، بينما كان ذكر اسم خَطْرِي مريبا في طرف آخر منه، تهامس بعض الشباب الموالين لامهّادي حول مغزى «الگاف»، فاسم خَطْرِي مفعم بالدلالات السياسية، فهل يعني لمُرورح قصة اغتيال خَطْرِي ولد أعمر ولد اعلي الأمير المباركي لأخيه، أم يعني ما يقاسيه امهّادي من رمزية خَطْرِي المختفي في ظروف غامضة، لم يطل الوقت حتى وقف بُتار الذي كان مرتقفا قرب ربيعه بنت أحمدونا طالبا من الفنانين سماع «گاف».

فجأة التفت من في الحفل جهة المرأة الطويلة الضخمة التي أصبحت على مقربة من مكان العرس، لا يخفى من خطوها المتسارع وذراعها المكشوفة أنها غاضبة أو في عجلة من أمرها. لم تكن سوى تربه قال، تمسك بيد ابنها الصغير، سوي عمه سلماتي، لم يكن أحد يتوقع قدومها،

فقضية اختفاء زوجها حَطْرِي أساءت العلاقة بينها وبين أخيها حد
الهجران، ولذلك لم تحضر ليلة عقد قرانِ ابنته، بل اكتفت بإرسال ابنتها
العاليه، وانتظرت عودتها عند إحدى الأسرة القريبة من مكان انعقاد
العرس، لا ريب في أن وراء قدومها الآن قصة ما.

ظن كثيرون أنها غاضبة على العالیه ابنتها، فلعلها خرجت دون
إذنها، أو لعلها فعلت ما يستحق العقاب، لاحظ الفنانون انصراف نظر
ال جماهير فهدأت أناملهم عن دغدغة الأوتار. تحول الجميع إلى أعناق
مَلَوِيَّة وأعين شاخصه، لما اقتربت أكثر اتضح أن في يدها سكيناً، كان
سُعارَ الجريمة المبيته يطفح على قسماات وجهها المليح. وقف الجميع
متربحاً المجهول الذي تخبئه بين جوانحها، وضج المكان بالأحاديث
والتعليقات الجانبيه.

هل جُنَّتْ تَرَبَهُ فَال؟

الفصل الثالث عشر

نهض الركب عند انصداع الفجر الأول، لم يطعموا النوم إلا غَرَارًا، كانوا يتوقعون أن يباغتهم النصراني وأعوانه كلَّ حين، فما إن عرَّسوا البارحة حتى جاءهم رَجُلٌ غريبٌ يسأل عن صَالَةِ إِبِل، لم يَشْكُوا في أنه جاسوس للنصراني ورفقته، فأسئلته ونظراته تفضحه.

عندما صلوا العشاء انتَحَى النَّاجِي جانبا، ثم بدأ يصلي ويتلو قرآنه، انتهزوا فرصة غِيَابِهِ وتجاوزوا همسا حول قضايا كثيرة، مثل قضية خَطْرِي، ومستقبلِ علاقتهم بالحي إذا وقعت مواجهةً عنيفةً بينهم مع النَّصْرَانِيِّ وأعوانه. اقترح بعضهم أن يلتحقوا بمقاومي «الكِدْيِه»، وأن يشعلوا حجارة «أَفَلَه» ورماله تحت أقدام الفرنسيين الكفار وأعوانهم، كان النَّاجِي هو الوحيد من بينهم الذي ليس على دراية بالهدف الحقيقي للرحلة.

لم يطعم لِمُعِيدَلِ النوم في تلك الليلة، فقد بات رقبيا للقوم، تدور عيناه المَحْمَرَّتَانِ كجمرتين، فتمسحان الجهات في لحظة، وكأنه كاميرات مزودة بجهاز لتقريب المسافات، كان أيضا يمتلك أذُنِي فَرَسٍ، يلتقط الأصوات ويميزها في لحظة.

بعدها صلوا الفجر واتضحَت الأشياء والأبعاد والأشخاص، اضطجع قليلا ثم سرقتَه إغفاءة، كانوا يعرفون أن ركب النصراني سيلتحق بهم قبل زوال ذلك اليوم، وكانوا يودون لو أدركهم بعد أن أصبحوا في حمى المجموعة التي خرجوا يقصدونها في شعاب «الجحافية»، فهي مجموعة قبلية ذات أنفة وشوكة، تنحدر من إحدى القبائل المحاربة.

خرج سلماتي كأنه يريد الخلاء، توغَّل جنوبا حتى حجبتَه عَيْصَةٌ غير بعيد من رفاقه، فجأة أبصر ركبًا قادمين، حين تبينهم تأكد أنهم كُرَافِيَّةٌ وأعوانه، كانوا سبعة رجال، فرنسيين وخمسة من «كُومِيَات»، ثلاثة بيضان وزنجيين سنغاليين، من بينهم أمادُو سيلا، أو سَانُقُو كما يسميه أهل المنطقة لشدة سواده، ولقوته البدنية الخارقة، همَّ بأن يرجع إلى قومه كي يتأهبوا للأمر، لكن فكرة سريعة هبَّت في ذهنه: «لماذا لا أختبئ بين أغصان هذه الشجرة الكثيفة المائلة، ثم أراقب ما سيدور بين الفريقين، فإذا كانت الغلبة لقومي - وهو ما لا أتوقَّع - جئتُ مُحلِّصًا للنصراني وكُومِيَاتَه، وإذا كانت الغلبة للنصراني ورفقته - كما أتوقَّع - لم تَطْلُبني العقوبات القاسية التي ستلحق بهم. وحينها سأبقى خارج المعتقل أقوم بدور الرجل القوي الساعي لإطلاق سراح رجال قبيلته المعتقلين، بينما ستزداد نقمة ساكنة الحي على أمهادي، الذي سيظهر أنه يسعى للتخلص من أصحاب النفوذ والقوة في المجموعة. كما سستيح لي تلك التحركات فرصة التنسيق مع شيوخ المجموعات القبلية المجاورة، الذين سيظهر تعاطفهم مع المعتقلين، خاصة أن لِمَرابط من بينهم، وهو رجل ذو سمعة حسنة، ومحبوبٌ لدى جميع قبائل أفله. والأهم من ذلك أن هذه القضية ستفتح لي نافذة للتواصل المباشر مع الفرنسيين

الذين سيفضلون التعامل معي أكثر من امهّادي الذي ستكون هذه الواقعة آخر مسمار يدق في نعش ثقتهم فيه».

أخذ موقعا مناسباً بين الأغصان المتشابكة، قَرَّب بعضَها إلى بعض حتى تأكد من أنه لا يمكن لأحد أن يلمحَها، مهما كانت فطنته، بدا كأنه فأرٌ يختبئ من قِطِّ يطارده، أحس بمشاعرٍ مُحْزِيَةٍ تجاه نفسه، ولكنه دفعها بسرعة، فالمجد المؤثّل الذي يسعى له يتطلب أكثر من هذا، ثم لا أحد سيعلم بهذا العمل الجبان.

ما سيشيع بين العامة هو أنّ قومه اشتبكوا مع ركب النصراني في غيابه، وأنّه وصل بعد أن هدأت المهارشة، ثم أخذ دَوْرَه المناسب، مُدافعاً عن كرامة مجموعته التي أهانها امهّادي، وجعل النصراني وأعوانه يفكرون في الاعتداء على علمائها ووجهائها.

استيقظ لمُعَيِّدَل من سِنْتِه، ثم وقف ينفض عن جنبه الحصى، فَطَنَ حركةً تُسَدُّ دوائرَ الصَّوِّء المنفلت بين أغصان الشجر في أطراف الوادي، رَكَزَ نظره أكثر، فعرف أنها حركة شيءٍ ما قادم من تلك الجهة. ولم يلبث أن ظهرت له ملامح رجالٍ قادمين على الجِمالِ، أخبر قومه بما رأى، التفتوا فتأكدوا أنهم هم، شَمَّرُوا ملابسهم وتمنطقوا عليها بسيور جِلْدِيَّةٍ، ثم قرروا أن ينشغلوا بإعداد رواحلهم للسفر، حتى لا يفطن ركبُ النصراني لأهبتهم المسبقة.

أنيخت الجمال متقاربة، وبدأ كل واحد منهم يُعِدُّ راحلته ومعه أحد العبيد. تناقشوا أثناء ذلك في ما سيفعلونه، قال لهم لِمَ رابِطٌ وكأنه قائد جيش يشرح خطة عسكرية:

- لا تبدوؤهم بالمواجهة، دعوهم حتى نعرف نِيَّاتِهِمْ، سيتكلمون معي لأنني أكبركم سناً، ولأنني سبب المشكلة، وإذا حاولوا الإمساك

بأي أحد منا، فسأعطيكم الأمر ببدء المواجهة.
تفاجأ النَّاجِي من كلامهم، وهو الذي لم يكن على علم بالخطة
المُبَيَّتة، مع أنه منذ ذهابهم أمس يلاحظ تلاطمًا غير مفهوم، قال
مُغْضَبًا:

- لماذا نواجههم؟ أحس كأنكم بيئتم أمرادوني، أخبروني بما يدور
بينكم أيها المخادعون!
قال له أَجْمَلَه همدوء ليس من طبعه:

- أنت تعرف أننا نتوقع مجيء النصراني لاعتقال من وَقَعُوا تلك
الرسالة التي تطالبه بالاعتذار عما فعل لِمَرَابِطُنَا، وتسريع أعمال
«الْحَصْرَه» حتى نوغل جنوبا نحو المراعي الخصبية، ولا شك أنه
الآن قادم لاعتقالنا.

أظهر النَّاجِي اقتناعا بالحجة التي قدمها أَجْمَلَه، وإن كان لا يزال
مرتابا في داخله. ولما أدرك أنه صار أمام الأمر الواقع، قال، وشفته
السفلى ترتجف خوفا، فهو رجل لين البدن لا يقدر على العراك:

- كيف نواجههم؟ وليس لدينا سوى العِصِيِّ والسَّكَاكِين، وهم
لديهم بنادق في ما يبدو؟
- يبدو أن لديهم بندقيتين فقط.

قالها لِمُعَيِّدَل وهو يشد وسطه بالفتيل الجلدي، ثم تابع مبتسما من
الرجفة التي بدأت تحتاح الناجي:

- أنا سأقف إلى جنب أحد أصحاب البنادق ويقف أَجْمَلَه غير
بعيد من الآخر، فإذا بدأت المواجهة انتزع كل واحد منا بسرعة
بندقية الذي يقف إلى جواره.

فهقه أَجْمَلَهَ وكأنه لا يكثرث بالخطر الذي أصبح قاب قوس واحدة منه، وقال:

- سأنتزعها منه وأعطيها للنَّاجِي.

كانت مزحة ثقيلة، لم يضحك منها سوى امبِيرِيك، قال لمُعِيدَلَّ معلقا على كلام أَجْمَلَهَ:

- وإذا انْتُرَعَتْ بنادقُهم وبقي الرجال في مواجهة الرجال، فيمكنكم حينها أن تطيلوا سَكْرَاتِ الإبريق تحت ظل هذه الشجرة الظليلة، وأن تحتسوا شايكم، وتلوكوا حبيبات الفستق المقشر بأناة، فأنا وأجْمَلَهَ كافيَيْنِ لتقيدهم بالحبال وتركهم في هذا العراء.

كانوا ينصتون إلى كلماته فتمنحهم الثقة والثبات، فلمُعِيدَلَّ معروفٌ في الحي بأربعة أمور؛ الشجاعة المبهرة والقوة الخارقة وإتقان حفظ القرآن والمهارة المذهلة في صنْعَتِهِ، هذا إلى خلق سَمَحٍ وأريحية أَسْرَةٍ. وقد قال عنه لِمُرَابِطُ ذات يوم إنه لو كان ابن عائلة كبيرة، ولم يكن صانعا تقليديا لاستحقَّ زعامة المجموعة بجدارة.

- أتظن أنك قادر على صَرْعِ سَانُقُو أم تريدني أن أصْرَعَهُ لك؟

رمق لمُعِيدَلَّ صاحبها أَجْمَلَهَ بنظرة فيها عتاب مَرِحٌ، وقال:

- وهل سَانُقُو أقوى من قاطع الطريق الذي كان يريد سَلْبَ متاعنا لما تركنا القافلة في غابات الجنوب وَسِرْنَا وَحِيدَيْنِ؟

ضحكا معا، كان لمُعِيدَلَّ يشير إلى قصة حصلت له مع أَجْمَلَهَ قبل عشر سنين، إذ اشتبكا مع قُطَّاعِ طُرُقٍ باغتوهما في أدغال الجنوب حينما كانا قَادِمَيْنِ من مدينة حَآيٍ، كان فيهم قاطع طريق معروف بالقوة والشجاعة، وحين اشتبك مع لمُعِيدَلَّ، لم يزد على أن ضغط ذراعه بيده

فأغمي عليه.

- أين سلماتي؟ لقد تأخر كثيرا.

- لعله خرج يقتني أثر جملة الذي يبدو أن عقاله انحَلَّ البارحة،
فاتخذ سبيله في الوادي هربا.

مسح لمرباط لحيته بِكَفِّهِ، وقال في اقتضاب حاسم:

- لن يبتعد كثيرا، انشغلوا بِحَمَلِ أُمَّتِكُمْ، وَأَكْثُرُوا من ذكر الله،
حَوِّقُوا وَاسْتَرْجِعُوا، وإذا اشتبكتم معهم فلا تنسوا التكبير أثناء
ذلك، فإنه سَيُرْبِكُهُمْ وَيَقْتُلُ فِي أَعْضَادِهِمْ.

سكت هنيهة وكأنه يستذكر شيئا نسيه، ثم قال:

- انتبهوا أيها الرِّجَال، إذا خطفتم بنادقهم فلا تستخدموها،
أفرغوا رصاصها في الهواء بسرعة ثم استخدموها عِصِيًّا إذا احتججتم
إليها، ولا تستخدموا السكاكين إلا في حالة الضرورة القصوى.

كان لِمَرْبَاطٍ يَخْشَى أن يدفع ضَغْطُ اللَّحْظَةِ ورُعْبُهَا رجاله إلى
استخدام الرصاص أو السكاكين فيقتلوا أحد النصارى أو أعوانهم،
لأن ذلك سيعطي المسألة بُعدًا أكبر من مشاجرة مع غَاضِبِينَ رَافِضِينَ
للاعتقال البارد.

رأى كَزَافِيئَهُ وأَعْوَانَهُ أشباحهم الباهتة من بعيد، بدؤوا في عينيه كأنهم
رسومٌ تشكيليَّةٌ لِإنسان العصر الحجري، كان يحمل بين جوانحه كثيرا
من الاحتقار لهذه المجتمعات البدوية البائسة. ومع أنه تلقى - قبل
قدومه إلى أرض البيضان - محاضراتٍ عديدةً في فرنسا، وفي سينلوي
حول ثقافة وطباع وحياة هؤلاء الناس، فإنَّ النظرة التي أخذها في
التعليم الأساسي عن بربر الصحراء ظلت عالقة بذهنه. لم يكن يتوقع
أي مواجهة، فامْهَادِي أرسل إليه خبر سَفَرِهِمْ قبل أن يكتشف أنهم

تجسسوا على اجتماعه، ولذلك لم تتضمن برقيته الإعلامية سوى أنهم سبعة أشخاص من بينهم أربعة عبيد، لم يكن امتهادي على علم حينها بأن لمعيذل واجمله خرجا معهم.

ثم تضمنت الرسالة أسماء الرجال الثلاثة: سلماتي والتاجي ولمرابط، ووجهتهم وهدف رحلتهم، هذا ما أعطى كزافيه شعورا بالاطمئنان أنه لن تكون هناك مواجهة تستدعي الحذر، لذلك كانت أوامره للأعوان خالية من أي خطة للمواجهة، بل كانت أوامر عادية:

- قيدهم جميعا ثم أشعوهم ضربا، وبعد ذلك أطلقوا سراحهم باستثناء سلماتي ولمرابط اللذين يجب أن يُحمّلوا مقيدين إلى مركز تامشكط من أجل محاكمتهم.

كان يحمل بندقية خفيفة معبأة بالذخيرة الحية، وكان سائقو حارسه الشخصي يحمل بندقية أخرى، أما البقية فلم يكن معهم سوى السكاكين والعصي والأحزمة العسكرية الغليظة، وكان الفرنسي الآخر أعزل إلا من سكينه المسمومة. كان حديث عهد بالمنطقة، فقد جاء من فرنسا في دورة تدريبية على إدارة المراكز الاستعمارية، فقد كانت الإدارة الفرنسية في سينلوي تفكر في إقامة مركز إداري قرب الجبل المسمى «بوكبش»، من أجل رصد تحركات مقاومي «الكدييه» الذين بدأت شوكتهم تشتد. كان برتبة ضابط أيضا، وكانت الصحراء لا تزال تمارس عليه سحرها المهيب ورعبها الأسطوري، فيحملك بنظراته السريعة في كل اتجاه، خوفاً من خشاش الأرض الذي يقشعر منه بدنه، حتى ليخيل إلى الناظر أنه أبله أو مجنون.

مرّ موكب النصراني إزاء سلماتي فتكوّر على نفسه بين الأغصان حابسا أنفاسه، وحين تجاوزه آخرهم انحرف داخل مخبئه قليلا، حتى

أصبح قادرا على متابعة ما سيجري بين الفريقين. ولما أصبح رَكْبُ النصراني قريبا من لِمَرَابِطٍ وقومه توقفوا عن شَدِّ الرَّحَالِ، متظاهرين بأن المشهد قد فَاجَأَهُمْ، تقدم كَزَافِيئُهُ يتبعه من مسافة قريبة سَانُقُو حارسه الأثير. أخذ لِمُعِيدَلٌ وَاَجْمَلَهُ مَكَانِيهَا كَمَا تَقْتَضِيهِ الحُطَّةُ، طلب النصراني من المترجم أن يسألهم، هل من بينهم من اسمه سَلْمَاتِي، أمَّا لِمَرَابِطٌ فقد عرفه، كان رآه مرتين أو ثلاثاً آخرها يوم أمر أعوانه بإخراجه من الخيمة لما سأله عن خَطْرِي.

- هل من بينكم رجل اسمه سَلْمَاتِي؟

قالها المترجم وهو يعقد حواجبه غضبا.

ابتسم لِمَرَابِطٌ هازئاً من نبرة التخويف الواضحة في كلمات الجندي المترجم، ثم قال رافعا رأسه في اعتزاز مقصود:

- ليس معنا، ولكن كلنا سَلْمَاتِي، وكلنا يمكن أن ينوب عنه في ما يطلب لأجله خيرا كان أو شرا.

حين تُرْجِمَ كَلَامُ لِمَرَابِطٍ ثَارَ الغضب في وجه كَزَافِيئِهِ، فأوماً لأعوانه بأن يعتقلوه، صَفَّ سَانُقُو قدميه ووضع أطرافَ أَنَامِلِ يَمَنَاهِ على جبينه، ثم رفع رجله اليمنى، وَصَكَ فخذَه بيده مؤدِّياً التحيَةَ العسكرية لِأَمْرِهِ.

كان لِمُعِيدَلٌ يَرُقُبُ حركته بِدِقَّةٍ. وما إن خَطَأَ نحو لِمَرَابِطٍ حتى صَكَّهُ بِقبضة يده على العُنُقِ، وخطف بندقيته بسرعة، وأفرغها في الهواء، ثم رماها نحو الأرض. رَغَا سَانُقُو كبعير يُنْحَرُ، وسقط مُضَرَّجًا بِقِيئِهِ. وقبل أن يمد كَزَافِيئِهِ يَدَهُ لبندقيته، أمسكه أَجْمَلُهُ من عُنُقِهِ. وفي لحظات جَحَظَتْ عيناه ومدَّ لسانه هَاذِيًا. خطف بندقيته أيضًا، وأفرغ جعبتها في الهواء. كل ذلك حصل بسرعة فائقة. وما إن بدأت المعركة

حتى ركب النَّاجِي جملته وَرَكَضَهُ راجعا نحو الحي .

كان الضابط الجديد قد أمسك لِمُعِيدَل من خلفه، وبدأ يتعاركان، أما أَجْمَلَه فقد ظل واقفا يخنق كُزَافِيَه يمينه، واللَّعَابُ يسيل من فمه المفتوح، مدافعا بيسراه ضرباتٍ بقية «كُومِيَات» الذين هجموا عليه ليخلصوا كُزَافِيَه ولكن دون جدوى.

أشار لِمَرَابِطُ -المنشغل بالتكبير منذ بداية الاشتباك- إلى العبيد بالمشاركة في المواجهة. فرمى امبِيرِيك عَصَاهُ الغليظة في الهواء ثم قفز نحوها قَدْرَ مِتْرَيْنِ، مطلقا صرخة مفزعة، ثم نزل بها على جمجمة أحد «كُومِيَات»، تداعى للسقوط ثم ولى هاربًا. تقافز العبيد الآخرون واشتبك كل واحد منهم مع أحد الأعوان.

كان لِمُعِيدَل قد تغلب على الضابط الجديد، حَلَّ منطقته وقيده بها، ثم نهض نحو أَجْمَلَه الذي كان يهتز من شدة الضحك للبول الذي بلَّل بَنَطْلُونِ النصراني، وللهديان الذي يطلقه لسانه بلا وعي. ناوله حَبَلًا فَشَدَّ وثاقه، ثم أمر العبيد بتقييد بقية «كُومِيَات»، كان سَانُقُو الضخم لا يزال طريحًا لا حراك به من أثر ضربة لِمُعِيدَل، ظنوه قد مات ففزعوا لذلك، لكنه فتح عينيه فجأة.

رَكِبُوا جمَاهُمُ وساروا نحو «اجحافيه». تنفسوا الصعداء، وقال

لمرابط:

- لقد أعدتُم لهذه المجموعة كرامتها، اليوم سيعرف امهادي أن مجموعة أهل بوطرُومَه لا تخضع لغير الله.

قال لِمُعِيدَل وهو يمسح أصحابه بعيونه:

- أين النَّاجِي؟ عساه بخير.

أجابه أَجْمَلَه وهو يتسم:

- يبدو أنك فقدت عقلك يا لمُعَيِّدَلْ، النَّاجِي هَرَبَ أول لحظة،
ركب جَمَلَهُ وانطلق نحو الحي. إن واصل الرَّكْضَ الذي خرج به
فسيكون الآن مع امهَادِي يُقْصُّ عليه ما حدث.

حين تأكد سَلْمَاتِي أن رفقته قد ذهبت خرج من مَحْبِيَّةِ بِلُطْفٍ، نَفَضَ
الترابَ عن جسده، ثم جاء يهرع إلى النصارى وأعوانهم وهم متناثرون
في القيود، كانوا مرهقين وشاحين، وكان كُزْأَفِيَّهُ مُكَبِّاً على وجهه، غير
قادر على الجلوس لشدة الوثاق الذي يجمع يديه ورجليه.

مسحه بعينيه الممتلئتين بالحِصَى، تَدَكَّرَ أنه رآه من قبل، استعداد شريط
أيامه بسرعة، فتَدَكَّرَهُ أكثر، إنه سَلْمَاتِي غريم امهَادِي، الرجل الطموح
للقيادة، وصديق لِمَرَابِطُ ورفيقه في هذه الرحلة، فما الذي أَخْرَهُ عن
قومه! لا شك في أن له نِيَّةً أخرى. فَكَّرَ بسرعة في أنه يمكن أن يعتمد
عليه في مستقبل الأيام، لكن قبل ذلك عليه أن يحطّم كبرياءه، فقال له
بلهجة عسكرية أَمْرَةً:

- فَكَّ عَنَّا القيودَ أيها الغيبي.

ابتسم سلماتي وقال له بفرنسية مُكَسَّرَةً:

- أَمْرُكُ أيها الضابط كُزْأَفِيَّهُ.

ثم أكب عليه يَفُكُّ قيوده، عندما أصبح طليقاً أخذ بندقيته، مسح
عنها الغبار، ثم فتح كيس الذخيرة المُعَلَّقَ على الجمل، عبّأها برِئُلٍ
من الذخيرة الحية، وأمره أن يفك قيد الضابط الفرنسي الآخر. جلس
إزاءه وبدأ يَفُكُّ قيوده. فجأة بصق الضابط على وجه سَلْمَاتِي فتقرز
زاجرا إياه، لكن كُزْأَفِيَّهُ وَكَزَهُ بمؤخرة البندقية. لما انتهى من فك قيود
الضابط، وقف إلى جنب كُزْأَفِيَّهُ الذي أمره أن يخلع ملابسه.

ارتبك أولاً قبل أن يُصَوِّبَ نحوه البندقية، خلع ملابسه كلّها،

بقي عارياً على الهيئة التي خرج بها إلى الدنيا، وضع يديه خلف ظهره، وشدَّهُما بحبل بلاستيكي مَطَّاطٍ، ثم أخذ قِيدًا حديديا وجعله في رجليه. أخرج بَدَلَتَيْنِ عَسْكَرِيَّتَيْنِ نَظِيفَتَيْنِ من حقائبه، وحمل قِرْبَةً من الماء تركها موكب لِمَرَابِطٍ، واختفى وراء الشجر، ثم سكب الماء على جسده المليء بالتراب والقيء والدم والبول، رَتَّبَ هِنْدَامَهُ، ووضع قَبَّعَتَهُ وعلق بندقيته، ثم أشار إلى الضابط الآخر أن يذهب للاستحمام.

وقف أمام جنوده المقيدين والدم يسيل من أنوفهم وأفواههم، كان مشهداً مُخْزِياً، وَبَّخَهُمْ جميعاً على انهزامهم وضعفهم أمام أولئك الرجال العُزَلِ، ثم هددهم بالقتل. وحينما رجع الضابط الآخر أمره أن يَفُكَّ قِيودَ الجنود والأعوان. تحلقوا حوله مُطْرِقِي الرُّؤوس مُنْكَسِرِي الخواطر. كان كَزَافِيئِهِ قد أحسَّ بالخطر بعدما حصل له وجنوده صباح اليوم، ولم يعد يأمن أن يكون هناك كمين ينتظرهم في أي مكان، ثم إنه لا يدري أي وجهة سيذهب إليها لِمَرَابِطٍ وموكبه بعد أن فعلوا فعلتهم تلك. إنه يحتاج إلى حركة سريعة ودقيقة، وقد جاءت الأقدار بهذا الرجل الطموح الماكر، فهو يريد الاستعانة به في القبض السريع على الجناة، والتعاليم البوليسية تقول إنه يجب أن تهين كرامة العَمِيلِ وتدوس على شرفه قبل أن تُوَضَّفَهُ، فالعميل لا يتقن عمله الدنيء وبين جنييه نفس نبيلة.

ترك كَزَافِيئِهِ سَلْمَاتِي بينهم عَارِياً، تتدلى على صدره حزمة من المربعات الجلدية، هي تئاتمه التي يتحصن بها من الشر، وتبدو عورته المُعْلَظَّةُ. أمرهم أن يَبْصُقُوا على وجهه، وأن يتحرشوا بأشياءه العارية، وكان يأمره بالضحك أثناء ذلك، كل ذلك من أجل تحطيم كبريائه. هدده بالقتل أكثر من مرة، و صوب نحوه البندقية، حتى أيقن بالموت، صَبَّوْا بعض

السَّمْنِ على ذَكَرِهِ وَعَانَتْهِ ثم تركوه نَهَبًا لكبار النَّمْلِ، كانوا يقهقهون كلما تمعَّر وجهه لقرصات النَّمْلِ المحتشد على عضوه الحَسَّاس، ولأن يديه كانتا مقيدتين لم يكن يستطيع أن يَحْكَّ مكان القرصة، فكان يحرك مقعدته وفخذه.

شدوا أمتعتهم وأحزمتهم ثم نهضت بهم الجمال، وتركوه عَارِيًا مُقَيَّدًا يأكله النمل المُعْرَى بالسَّمْنِ العَبِق. كان مندهشا شاحب القسما، يبدو في عينيه كثير من الفزع والمهانة، لقد جرت المقادير بما لا تشتهي نفسه، وبما لم يكن يتوقعه. كان يأمل أن يصبح زعيما لمجموعته، وأن يدوس على كل أقرانه في سبيل ذلك، وفي مقدمتهم امهَّادي، وفكر في أن يضحي بدم أخيه خَطْرِي في سبيل ذلك الطموح، لكنه الآن في ذُلٍّ لا يجسد عليه، يسيل البصاق التَّنُّ على أنفه وخديه، ويعبث النمل بعورته العارِيَّة. تمنى لو أتهم قتلوه فعلا، وتمنى لو كان قادرا على قتل نفسه، لكنه مقيد اليدين والرجلين. فكَّر لو أن أحداً مرَّ به وهو على هذه الحال، كم سيخسر من المكانة والأبهة! أحس بالنعمة على الجميع، وعلى نفسه أيضا.

فجأة ظهر له كُرَافِيَّة عائدا إليه صحبة أحد «كُومِيَّات». تمنى لو أفرغ فيه بندقيته وأراحه من عاقبة هذا الموقف الدليل.

- من أنت؟

تماسك وعاوده بعض العنَادِ الفطري:

- فُك عَنِّي القَيْدَ أولا، ثم نتحدث بعد ذلك.

صفعه على الخدين مرات، ثم أعاد عليه السؤال مُصَوَّبًا البندقية نحوه، وبنبرة أكثر صرامة:

- من أنت؟

كان يريد من خلال هذه الأسئلة المهينة أن يزرع في نفسه قناعةً أنه لم يكن قد عَرَفَهُ أَوَّلَ وهلةٍ، وأنه لو كان عَرَفَهُ لما أهانه بهذه الطريقة، فذلك أَدْعَى لأن يغفر له هذه الإهانة التي عَرَّضَهُ لها، وأوثق بأن تظل آلامها النفسية والبدنية سَيِّفًا من الذل والخوف مُسَلِّطًا عليه بقية عمره.

- اسمي سلماتي، أحد أعيان حي أهل بُوطرُومَه، وقد التقيتُ بِكَ مَرَّاتٍ.

أخفى يديه في جيبي بنطلونه ثم استدار به يَمُطُّ شفثيه متظاهرا بالتفكير، ثم قال له بلهجة فيها نبرة عتاب اعتذاري:

- لِمَ لَمْ تخبرني بذلك أوَّل الأمر، لو كنت أخبرتني لما فعلت بك هذا، فُكَّ عنه القيد.

ارتدى ملبسه الخفيفة، فضفاضة وسراويل قصيرة، ثم وقف إلى جنب كُرْأَفِيَّه الذي افتعل الغضب مرة أخرى، وقال له بنبرة زاجرة:

- أنتَ خرجتَ مع المجرمين، فَلِمَ غِبْتَ عن الاشتباك، ولماذا جئنا بعدما ذهب أصحابك، أتظن أنك سَتَنْصِبَ لَنَا كَمِينًا آخَرَ؟ اليوم سأقتلك. ثم صوب نحوه البندقية.

ارتعدت فرائص سلماتي، وارتجف جسده:

- كنا ذاهبين في تعزية أحد الأعيان، ولم يكن في نيتنا -أو في نيتي على الأقل- شيء مما حصل، ولو كنت حاضرا لما اشتبكوا معكم.

- وَلِمَ غِبْتَ عن الاشتباك، وقد كنت معهم قبله بقليل؟

- صدقتي يا مِسْيُو كُرْأَفِيَّه، والله لقد خرجت في طلب جَمَلِي الذي انحَلَّ عقاله ليلاً ثم ذهب في نواحي الوادي البعيدة.

- لن أصدقك في شيء من هذا حتى تدلني الآن على أقصر طريق

يمكن أن أدرك به أولئك المجرمين قبل أن يتحصنوا في مجموعات
«الجحافية».

- هذا أقل ما يمكن أن أساعدك به، ولو وثقت بي فستجد مني
مساعات أكبر من مجرد دلالة على مكان مجرمين.

الفصل الرابع عشر

وصل النَّاجِي إلى الحي بعد ظُهرِ ذلك اليوم فزِعًا، بدأ بخيمة امهَادِي، مُخَلِّقَ حوله الرجال، قَصَّ عليهم ما شهدته من بداية الاشتباك، وأنه فَرَّ قبل أن تنتهي المواجهة، حَدَّثَهُمْ عن الضربة العاتية التي وَقَعَهَا لمُعِيدَل على رَقَبَةِ سَانُقُو، وكيف سَقَطَ مَغْشِيًا عليه.

أثارت تلك الأخبار كثيرا من القلق في أرجاء الحي، وأدخلت الحزن على أسر كثيرة، ونزل الكمد الأليم على قلب امهَادِي. لم يحزن لأبناء عمومته الذين سييطش بهم النصراني الغاضب، ولا للحيِّ الذي يتوقع كل وقت أن يرجع إليه الأسد الجريح فيعيث فسادا في أرجائه، كل ذلك كان بالنسبة إليه ثانويًا، كان يحزنه فقط أن هذه الحادثة ستكون آخر عهده بزعامة المجموعة.

وجد في اجتماع الرجال العفوي في خيمته فرصة الذهبية لنُقْث اللَّهَبِ المضطرم بين جوانحه، قال إنه كان يرى هذه النهاية الدامية للمجموعة، وأنه حاول جُهْدَهُ أن يتفادها، ولكن أصحاب النِّظَرِ القاصِرِ - كما سمَّاهم - لم يتركوه، بل ظلوا ينفخون النار حتى التهبت، فرموا فيها الحي الذي أشعلوا الحزازات بين أُسْرِهِ، فقطعت الأرحام،

وهاهم الآن يرمون فيها أنفسهم، ثم ألح إلى قضية خَطْرِي، وأنه كان الأحسن أن نفقد رجلا واحدا -رغم مكانته-، من أن نفقد رجالنا كلهم.

قال النَّاجِي وبقايا قشور الفُسْتَقِ تتطاير من بين شفثيه.

- دعونا من الماضي، ماذا علينا فعله الآن؟

أجابه امْهَادِي ووجهه يابس شحوب:

- أقترح أن أذهب أنا لكي أعرف الأمر بنفسي، وبعد رجوعي ننظر ماذا نحن فاعلون بناء على مستجدات الأخبار.

هز الجميع رؤوسهم موافقين على المقترح، نبهه عبده الأثير النَّائِمِي على أنه قد أعدَّ الراحلة، خرج دون أن يُودِّعَهُمْ، تركهم هناك يموج بعضهم في بعض، حيارى بلا رأس، تلاوموا وتشاتموا ثم تسللوا مشى وفرادى مع أول خيوط الليل.

يجلس لِمَرْوَرِح على طَرَفِ السرير الخشبي المهترئ المنصوب أمام خيمة خَطْرِي، وعلى طرفه الآخر تجلس العالِيه، أمَّا تَرْبَه فَال فقد ذهبت إلى صاحبها لِعِنَادِ زوجة سَلْمَاتِي مستطلعةً تفاصيل ما تنامي إلى مسمعها من الأخبار التي جاء بها النَّاجِي، ولكي تترك الخَطِيبِينَ وحدهما يتبادلان أطراف الحديث.

كانت هذه أول زيارة يقوم بها لِمَرْوَرِح لأهل العالِيه بعدما أصبحت الخطبة رسمية. عندما بقيا وحيدين رمت إليه بوسادة جلدية حديثة العهد بالتطريز، لا تزال روائح الجلد المدبوغ والأصباغ نفوح منها، رائحة زكية حسب ذوق أهل البادية، قال لها بعد أن غرز مِرْفَقَهُ في الوسادة مضطجعا:

- هل هذه الوسادة بعض متاع خيمتنا الذي تُجَهِّزُهُ تَرْبَه فَال!

غرزت مرفقها في وسادة أخرى، وارتفعت ووجهها الفردوسي إليه، ثم ابتسمت قائلة:

- لم أسمع ما قُلْتَهُ آنفا.

كانت تود أن تسمع تلك الكلمة الحاملة مرة أخرى، أعاد عليها السؤال، فتبسمت ضاحكةً من قوله، حاولت أن تتكلم ولكن الحياء عَقَدَ لِسَانَهَا. مديده نحوها وبها خرقة قماش مستطيلة، أمسكت الخرقة فتناول أناملها الرَّخِصَةَ خِلْسَةً، ابتسمت زاجرةً له، كان في الخرقة عودٌ بِشَام، ظنته هديةً بمسوالك، شَمَّتَهُ فلم تجد به عِطْرَ البشام الطري، تأملته في ضوء الشفق الذي لا يزال رمقٌ منه في الأفق الغربي، كان يابساً ما يدل على أنه قديم جداً، سألته باستغراب:

- ما هذا يا لَمْرُورِح؟

نطقت اسمه بعد طول تَأْتَأَةٍ، تَمَنَّى لو ظلت تلوك أحرفه بين شفثيها، أخصب قلبه ربيعاً في لحظة، لم يرد أن يفقد الخيطَ السحريَّ لحديثها الممتع:

- أعطيكِ فرصةً أخرى للتفكير في شأن عود البشام هذا، وإذا عرفتِ قِصَّتَهُ كتبت لك «طَلَعَهُ» حوله.

- هذا مُمْمَغِرٌ، أيها الساحر الخَلَّابُ.

- لماذا تَأْتِيكِ التَأْتَأَةُ في الكلمة الأولى ثم ينفلت باقي كلامك بسرعة؟ أود لو تَأْتَأَتْ في كل كلمة.

فهمتُ ما يرمي إليه، ولكنها أرادت أن تستمتع بسماحه منه:

- وما الفائدة من تَأْتَأَتِي؟ أود لو كنت فصيحاً مثل صديقتي رَيْبَعَه بنتِ أَحْمَدُونَا.

- تَأْتَأَتُكِ تسحر القلوب، هي خير من كل فصاحة.

أطلقت ضحكةً ملؤها السعادة، ولكنها لم تستطع رفع صوتها بها خوفاً من أن يسمعها أحد، ثم سألته مرة أخرى عن شأن عود البشام. قرر أن يغزو قلبها بالكلمات، فهو يعرف أن الفتاة لا تنهزم أمام شيء مثل الكلمة الحلوة، وأن الرجل البارع يستطيع بكلمةٍ أن يُدمرَ كيانَ امرأة، ويستطيع بكلمة أخرى أن يبنيَ حُطامه. وهو شاعرٌ مشبوب العاطفة خبير بمسارب القلوب.

عدّل من جلسته حتى أصبح متربعا، وقال بنبرة هادئةٍ مسترسلة:
- أتذكرين ذلك المساء قبل عامين، في الخريف عند مَدَافِعِ سَيْلِ «العَاكِرِّ»، كنتِ أنتِ وِصُوءِيْجَاتِكِ تتفرجن على هدير السَّيْلِ، طلبتِكِ مسواكاً كان بيدك، رفضتِ أولاً، ألححت عليك، فرميتيني به؟
رحلت بها كلماته إلى عوالم بعيدة، كانت كل كلمة تشد وثاق قلبها الصغير بميثاق حب، وتنبت شجرة من الشوق إلى أحضان ذلك الفتى الخلاب.

قالت وكأنها تستزيده من ذلك الكلام المعسول:

- أيوه؟

- ذلك المسواك هو هذا العود اليابس، لما رجعت طلبت من الفَارَاهِ بنتِ لِمَعِيدَلٍ أَنْ نَحِيْطَ لِي مِخْلَاةً عَلَى قَدْرِهِ ففعلت، ووضعته فيها، وقبل ذلك وضعته في قلبي ودَثَّرْتُهُ بِأوردته، هذا أول شيء أمتلكه منك يا غَالِيَّتِي.

ودت لو عانقته، لكنها اكتفت بمَرَسِ الْعُودِ فِي كَفِّهَا. وضعته في المخلاة، ثم مدته إليه. لما تناول يَدَهَا قفزت من فوق السرير زاجرةً مُتَأَفِّفَةً تُكْرِّرُ:

- إلهذا يا لِمَرْوَرِح.

اعتذر لها، ثم طلب منها الجلوس حيث كانت، وبدأ يحدثها عن موعد العرس، وعن عزمه على أن يقع في هذا الخريف الذي بدأت بواكيره في أطراف المنطقة، وعن نيته في استدعاء الفنانين والشعراء، وأن يكون أشهر عُرْسٍ في أَفَلَهُ كُلِّهِ.

قالت له إنها لا يمكن أن تتزوج إلا بعد أن يرجع أبوها خَطْرِي من غيبته، ثم طلبت منه أن يترك عندها العُودَ وَمِخْلَاتَهُ، وأنها ستعيده له، رماه إليها، ثم ودعها وتواعدا عند السمر.

أخبرت لِعِنَادَ تَرْبَهُ فَالَ أن النَّاجِي قال إن سَلْمَاتِي لم يكن حاضرا لحظة المواجهة بين النصراني ورجال الحي، وكانت قلقة جدا لذلك، فما الذي يجعله يغيب عن رفاقه في مشهد مثل هذا، حاولت أن تطمئننها أن الأمر سيكون خيرا. ولعله لحظة الاشتباك كان خارجا يبحث عن جَمَلِهِ أو لقضاء حاجة ما، ولعله التحق بهم أثناء الاشتباك، فالناجي لم ينتظر لحظة واحدة، ولعل فَرَعَهُ يجعل كثيرا مما قاله عن الاشتباك غير صحيح.

بينما كانت تَرْبَهُ فَالَ مسترسلةً في سَوَاقِ الحُجَجِ على ما قاله النَّاجِي، قاطعتها لِعِنَادَ مستفسرة:

- لقد ارتعب أهل العُرْسِ حينما رأوك متجهةً نحوهم، وفي يدك سكين، لماذا كنت تحملينها؟

ابتسمت نصف ابتسامة ثم قالت:

- وما الذي سأفعله؟ أنا لست مجنونةً، وإن كان جنوني ليس مُسْتَعْرَبًا، فأنا امرأة عَدَرَهَا أَخُوهَا، وخذها أهل زوجها، ودليل

ذلك أن أهل الحي يتوقعون مني كل فعل مريب، فلو كانوا يعرفون
أني امرأة مَكْفِيَّةُ الْهَمِّ في شأن زوجها المغدور لما داخلهم أي خوف.
كان واضحا أنها تعني امهَّادِي وسَلْمَاتِي، فلم يَرُقْ لها تلميحها بأن
زوجها خذل قضية أخيه، فهي تعرف أنه مهموم بهذه القضية منذ
حدوثها، لم تستطع ازدراد التلميح فسألتها بتشنج:

- لماذا تقولين إن سَلْمَاتِي خذل قضية أخيه؟ ما مظاهر ذلك يا ابنة
عَمِّي الغالية، أو ليس قائما بشؤون أسرة أخيه منذ اختفائه أحسن
قيام، أو لم يضرب أكباد الإبل في كل جهة بحثا عنه أو عن أخباره،
أو لم يخاصم بني عمومته في هذا الحي وأولهم أخوك، سبحانه الله،
بعد كل هذا تقولين إنه خَذَلَهُ.

لم تُردِّ تَرْبَهُ فَالْ إعلان شكوكها حول تَغْيِيرِ نية سَلْمَاتِي، الذي أصبح
منذ بعض الوقت يحرکه طموحه للزعامة أكثر من بحثه عن خيط يَدُلُّهُ
على مصير أخيه، قالت بنبرة فكاهية:

- سمعت أن لِمُعِيدَلْ كان أول من بدأ الاشتباك، وأنه ضرب
سَانُقُو العاتي العنيد ضربةً طرحته أرضا.

قالت لِعْنَاد ونوبة ضحك هيسيرية تقطع كلامها:

- ضربة الجبان قاتلة دائما، لأنه يضرب وهو يخاف أن يَكُرَّ عليه
خصمه، فلا يَدَّخُرْ جُهدا للقضاء عليه بأول ضربة، والحمد لله أن
ليست بيده المطرقة وإلا كان قَتَلَهُ.

ثم استدركت ضاحكة:

- ليست في لِمُعِيدَلْ أي خصلة من خصال لِمُعَلْمِينِ سِوَى جَشَعِهِ
وَحُبِّهِ للطعام، لولا ذلك لأعطيته مَرِيَامَه ابْنَتِي ونسبته إلى إحدى

أسر أهل بُوَطْرُومَه، فهو حافظ متقن للقرآن، وشجاعٌ لا يرتجف قلبه، وكريم حَدَّ الإسراف، ولكنه يفقد وعيه في حضرة الطعام. لاثت تَرْبَه فَالَ طرف ملحفها على فمها وهي تهتز من الضحك، فقد تذكرت موقفاً لِلْمَعِيدَل من حُبِّ الطعام، وكيف يفقد تركيزه إذا رآه أو اشتمَّ رائحته. كان يومَ دَجْن بعد غيث هَتُونٍ، والحي نازلون في ضواحي جبل «الْيَجُوج»، ذبح خَطْرِي خروفاً سميناً، ثم أوقد حُفْرَةً من الحطب ودَسَّ فيها أَطَايِبَهُ، فاحت رائحة الشواء زكيةً، وكانت النسائم العليلة تحملها نحو خيمة أهل لِمُعِيدَل، اخترقت منخريه فهاجت نفسه، وقف مستطلعاً من أيِّ الخيام تأتي تلك الرائحة الطرية. رأى ألسنة اللهب عند أهل أَحْمَدُونَا، فظنهم أصحابَ اللحم المشوي، فانطلق نحوهم وجلس يشرب الشاي منتظراً الشَّوَاء. كان عبيد أَحْمَدُونَا قد أوقدوا النار لوسم بعض الدواب، بعد ساعات من الانتظار واحتساء الشاي بنكهة المشوي المُتَوَقَّع، عرف أن الحفرة التي عند أهل أَحْمَدُونَا أوقدت لوسم الدواب، وأن حفرة الشَّوَاء عند أهل خَطْرِي، كان ذلك بعد فوات الأوان، فقال كلمته التي صارت مثلاً:

- لقد اختلطت عَلَيَّ الحُفْرُ، أحمدونا إياك أن تَسِمَ الدَّوَابَّ وفي الحي من يشوي أطايب اللحم.

ذكرتها بالقصة فضحكتنا معا. قالت لِعِنَاد متعجبة:

- لماذا «لِمُعَلِّمِينَ» يفقدون الوعي على المائدة، ولماذا هم جنباء، ولماذا يكثر فيهم النفاق والكذب؟

- ليسوا كلهم كذلك في الحقيقة، وليس خاصاً بهم، هي طباع توجد في كل البشر، من كل الأعراق والفئات والطبقات الاجتماعية، ولكن المجتمع منح كل فئة بعض الطباع والأخلاق،

وأصبح بناءً على ذلك التوزيع المُسَبِّق للقيم والأخلاق يحيل لكل فئة من القصص والحكايات ما يناسب ما أعطاه لها من تلك القيم والطباع. فمثلا لو كان صاحب هذه القصة شريفاً أو زاوياً أو ابن قبيلة محاربة، لقام الحاكي بنسبتها إلى صانع تقليدي لأن المخيلة الاجتماعية ستقبل ذلك منه، ولو قام صانع تقليدي بعمل بطولي لنسبه المخيال القصصي إلى ابن قبيلة محاربة أو إلى شريف النسب، ولو قام ابن القبيلة المحاربة بنصب مكيدة شر لنسبها لمخيل المجتمع إلى ابن قبيلة زاوية.

مدت لِعِنَادُ القَدَحِ الخشبي الموضوع بين يديها إلى العبد الذي جاء يحمل قَعْبًا مليئًا بلبن البقر، ثم قالت:

- صحيح ما قلتِه، ولذلك تعرفين أن لِمَعِيدَل معروف في هذا الحي بالشجاعة الفائقة، ومعروف أيضا بصدق الحديث، فليس في هذا الحي أحد لا يُرْتَابُ في ضبطه وصدق روايته مثله، وقد سمعت لِمَرَابِطُ يقول مرات إنه لو كان يصح في الشريعة أن يستعاض عن الشاهدين بشاهد واحد، لقبيل شهادة لِمَعِيدَل.

قالت تَرَبَّهُ فَالٌ وهي تغمز بعينها في الظلام:

- يبدو أنك ستعطينه ابتك مَرِيَامَه التي لم تجد زوجها في شبابها؟
أجابتها لِعِنَادُ ضاحكةً:

- الآن سنعمل على تجهيز ابتك العَالِيَه لِلمَرُورِح، وبعد العرس نرى كيف سنزوج مَرِيَامَه، وبالمناسبة هل زاركم لِمَرُورِح بعد الخُطْبَةِ؟

استوت تَرَبَّهُ فَالٌ على السرير، تناولت قَدَحًا صغيرا فيه بعض اللبن، سكت عليه قليلا من الماء ثم عَبَّتْ منه بضع مرات، مسحت شفيتها

بطرف ثوبها، ثم قالت:

- تركته الآن عند الخيمة هو وخطيبته، وعلَيَّ ألا أتأخر كثيرا عنهما حتى لا يظن أنها أصبحت زوجته. قالتها مبتسمة مازحة.

- دعيهما يتحدثان بعض الوقت، فهذه أول ليلة يلتقيان فيها وهما يشعران بالأمان، هي ليلة العمر بالنسبة إلى كل فتاة، لا تعلق عليها إلا ليلة ترف إليه وسط ضجيج الزغاريد والبنادق وجلبة الصداق والقرائب، هل مازلت تذكرين شيئا من ذلك الزمن يا تَرْبَه فَالْ؟ جللها الحياء فجأة رغم كبر سنها النسبي فهي تناوش الأربعين، ورغم أنها تتحدث مع إحدى صديقاتها الحميات، أشرق السرور في قسامتها الوسيمة، ثم قالت:

- أذكر أنني ليلة الخطبة أصبت بإسهال شديد من شدة الخجل، وأمضيت أسبوعا والناس تعودني، وأنا طريحة الفراش. وبعد أن شفيت زارني ذات ضحوة، كنت وحدي في خيمتنا، ولما دخلت خرجت وتركته وحيدا، ولو عادت الأيام القهقري لجلست معه وتطارحنا أحاديث الغرام.

- ومتى سيكون عرس العالِيَه وَلِمَرْوَرَحْ؟

- لست أدري والله، فالحال ما ترين، والحي لا ندري ما ينتظره في الأيام القادمة، خاصة بعد الاشتباك الأخير، والعالِيَه تُصِرُّ على أنها لن تتزوج وأبوها مجهول المصير، وأنا لا أحب أن أرغمها على شيء لا تريده، وَلِمَرْوَرَحْ - حسب ما قالت أمه - مستعجل على العرس. أناخ الجملُ أمام الخيمة، ففَزَ من فوقه رجلٌ قصير القامة رشيق الحركات، يشبه رعاة الإبلِ الحِفافَ، نهضت لِعِنادٍ وبدأت تَجْرُ حَصِيرًا

من داخل الخيمة وهي تبادلته التحية، انسلت تَرَبَهُ فَأَلْ نحو خيمتها.
بَاغَتْهُمَا وهما يتطارحان أحاديث الغرام، قالت وكأنها تريد أن ترفع
الحرص الذي جثم عليهما فجأة:
- كيف حال العروسين؟

سألها لِمَرُورِجٍ عن صاحب الجمل الذي أَنَاخَ لِلتَّوِّ عند خيمة
سَلْمَاتِي، لم يظفر عندها بطائل. وَدَعَّهْمَا ثم جلس إلى الرجل الغريب.
كانت طريقة نُطْقِهِ للكلمات وبعض المفردات التي يستخدم توحى
بأنه ليس من أهل المنطقة، يتحدث عن مشاهداته دون أن يُسأل، ليس
ذلك غريباً في مجتمع البدو. ذكر أنه مرَّ بالوادي الفُلَانِيّ فلمح فيه بقرات
من صفتهم كذا وكذا، وعليها وَسْمُ بَنِي فُلَانٍ، وأنه رأى من بعيد بعض
الإبل لم يتبين وَسُومَهَا بدقة، ولكنه ظن أنها تحمل وَسْمًا لا يعرفه في هذه
المنطقة، فاعلها بعض الضَّوَالِّ.

أثناء ذلك السرد الدقيق لمشاهداته قال إنه مرَّ بجمل يُجْرُ حَبْلًا قصيرا
في ذراعه الأيمن، فلعله قَيَّدَ لم يحكم فأنحَلَّ، وأن عليه وَسْمُ القبيلة
الْفُلَانِيَّةِ، ووسم آخر لعله يختص ببالكه، كان يعني جَمَلٌ سَلْمَاتِي، وأنه
مرَّ بعد ذلك بِرَجُلٍ مُقَيَّدٍ تحت شجرة، ولم يقترب منه خوفاً من عواقب
ذلك، وصف ملامحه الجسمية وهَيْئَةَ لِبَاسِهِ.

كانت لِعِنَادٍ تنصت له بتوتر، فقد كان الخبر مُقْلِقًا إلى أقصى حد.
سأله لِمَرُورِجٍ عن المكان الذي رأى فيه الجَمَلَ الطَّلِيْقَ، والمكان الذي
رأى في الرجلِ المُقَيَّدِ، فوصف له المكانين بدقة:

- الرجل لمحتة في وادي «أَيْزَن»، أما الجمل فمررت به وأنا أعبر
مسيل «التِيكِفَايَه».

أيقن لمُرُورِ ح أنه سلماتي، ولكن لماذا هو مُقَيَّدٌ في مكان المعركة، هذا يناقض ما رواه النَّاجِي، فالنَّاجِي قال إنه كان غائباً لحظة الاشتباك. سأله مُسْتَفِصِلاً عن الهيئة التي رأى عليها الرجل المقيد، انتبه الضيف أن أَمْرًا مَّا وراء أسئلة الشاب، فأخذ حذره:

- في الحقيقة لست متأكدا من أنه كان مُقَيَّدًا، فقد مررت بعيدا منه، هكذا خيَّل إلي فقط.

تمتم له مطمئنا أنه لن يخبر أحدا بأنه كان مصدرَ الأخبار التي سيعطيه، مدعياً أنه أخو الرجل الذي تحدث عنه، وأنهم فقدوه منذ يومين بعد مشاجرة مع مجموعة من رجال الأحياء المجاورة. فأحسَّ الضيف بشيء من الصدق في كلام الشاب الوسيم، وأطمأنت نفسه إلى ما قاله، فهمس له سرا:

- حين تهدأ حركة الناس سأخبرك بكل شيء.

الفصل الخامس عشر

- آه آه آه، أووه، يا لله، يا لله.

- سوف ترى أشدَّ من هذا، العذاب لم يبدأ بعدُ.

- أعطوني جرعة ماءٍ فقد أهلكني العطش.

ما إن يكمل توسلاته حتى تندلع فرقعات الشياطين على جسده، يصحبها سيلٌ من الشتائم البذيئة.

كان لمُعِيدِلٍ مشدودا بين الرَّحْلِ وَعُنُقِ الْجَمَلِ الْقَارِحِ الذي يحمله، بدنه يُشكِّلُ دائرةً حول الرَّحْلِ، بطنه ووجهه تجاه مُقَدِّمَتِهِ، بينما تلتقي يده ورجلاه الموثقتان بحبل جلدي من خلفه. وضعية مؤلمة جدا، فَعَارِبُ الْجَمَلِ الحادُّ يضغط على أضلعة بصفة دائمة، تاركا ألما لا يُحْتَمَلُ، بينما يجلس اَعْمِيرَاتُ مرتاحا في حضن الراحلة التي يلتف حولها جسد لمُعِيدِلٍ، يُدَخِّنُ تَبَعَهُ ثم ينفض جمره التَّبِغِ الفَائِيَّةَ على جسده شبه العاري، فينتفض صارخا من لسعة النار، يختلط صراخه بترنيمات اَعْمِيرَاتٍ بالأغاني والمواويل البدوية.

كان هناك جمل آخر معقود زمامه بمؤخرة الجمل الذي يُوثَّقُ فوقه لمُعِيدِلٍ، يحمل عبيد أحدهما لِسَلْمَاتِي والآخر لاجْمَلِهِ، وُضِعَ كل منهما

في حاوية جلدية غطت جسده حتى الرقبة، لم يبق بارزا إلا رأسهما، ثم شدا بطريقة تتركهما واقفين إلى جنب الجمَل، لا يستطيعان دفع أعصان الشجر التي يحتك بها الجمَل فتخدش وجهيهما تاركة جراحا ودما نازفا. أما بقية القافلة فهي ثلاثة جنود يمتطي كل واحد منهم فرسا أصيلا، ويمتشق بندقيّة مُعبّأَةً بالذخيرة الحية، لديهم الأوامر الصارمة بإطلاق النار دون تردد على من يعترض طريقهما.

اعْمِرَاتُ أحد «كُومِيَات» الذين جاء بهم كُزَافِييَه منذ تعيينه على مركز تَامَشِكُط، هو في الأصل جندي برتبة رقيب، ولكنه تعلم الفرنسية لطول ما صحب الفرنسيين فأصبحوا يستخدمونه مترجما أيضا. رجل بيضانّي مربع القامة، قصير الأعضاء مكتنز العضلات، تخدش وجهه المدوّر آثار جراح كثيرة، توحى بتاريخ مليء بالشجار وسوء الخلق، ويرقد في أدغال عينيه الغائرتين ذئبٌ مفترسٌ نذالَةٌ وشراسة. كان يُعِدُّ السير نحو قلعة تَامَشِكُط، فلديه أوامر من كُزَافِييَه أن يُودِعَ الثلاثة في السجن، ريثما ينتهي من ترتيب الأمور المنفلتة بعد حادثة وادي «أَيِزَن».

التقوا في طريقهم برجل يبحث عن ضوَال، سألمه عنها واحدةً واحدةً، لم يلمح لمُعَيَدَلٌ وجهه، فقد كان موثوقا ووجهه إلى الرّحْلِ، لا يرى إلا ما خلف الجمَل الذي يحمله، لكنه عرف الرجل من صوته. أخبره أن ضوَالَهُ كانت قبل أسبوع في حمى منطقة «لِفُدَه»، حيث يقيم أهل بُوطِرُومَه، ثم حمّله رسالةً مقتضبةً بِاسْمِهِ وَوَجْهَتِهِ، قبل أن يصفعه سَانُقُو بالسوط كي يسكت، ويهدد الرجل إذا هو تحدث بشيء مما قاله له.

يجلس كُزَافِييَه في منتصف الليل على صخرة تسلقُ تَرْفُوةَ جبل «الْبِيَجُوج»، حيث تقيم مجموعات أولاد بُوظْفِيرَه المُحَارِبَه، التي

يعتقد أن لِمَرَابِطُ وَأَمْبِيرِيكُ تَحَصَّنَا بِهَا بَعْدَ مَطَارِدَةِ الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ، أَمَّا جَمَلُهُ فَقَدْ تَأَكَّدَ أَنَّهُ أَفْلَتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، لَا شَكَّ فِي أَنَّهُ الْآنَ يَجْلِسُ مَعَ رِفَاقِهِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ الْمُتَحَصِّنِينَ فِي الْكَهُوفِ وَعَلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ.

أمر جُنْدُهُ بِالانتِشَارِ الْحَفِيِّ فِي أَطْرَافِ السَّفْحِ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ إِذَا أَمْسَكُوا بِأَيِّ طَارِقٍ أَنْ يَقِيدُوهُ، وَأَنْ يَأْتُوهُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَكْلُمُوهُ أَوْ يَخْلَعُوا لَهُ ثُوبًا أَوْ لثَامًا أَوْ أَيَّ شَيْءٍ. تَأْمَلُ الْقَمَرَ الَّذِي بَزَغَ حَاجِبُهُ فِي أَسْفَلِ الْأَفْقِ، وَكَأَنَّهُ عَيْنَ فَارِسٍ يَرْتَقِبُ الْخَطَرَ، تَعَالَى الْقَمَرُ قَلِيلًا فَامْتَدَّتْ ظِلَالُ الْأَشْجَارِ وَالْأَشْيَاءِ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، لَكِنَّ جَمَالَ الْمَشْهَدِ لَمْ يَبْعَثْ فِي نَفْسِهِ سِوَى الْكَمَدِ. فَالاضْطِرَابَاتُ الَّتِي حَدَثَتْ بَعْدَ اخْتِفَاءِ خَطَرِي بَلَغَتْ ذُرُوتَهَا فِي حَادِثَةِ وَادِي «أَيَزِنُ»، وَالْأَنْبَاءُ الَّتِي تَصَلُّهُ مِنْ عَيُونِهِ الْمَبْثُوثِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ لَا تَبْشُرُ بِخَيْرٍ، فَلِمَرَابِطِ رَجُلٍ دِينٍ خَطِيرٍ، اعْتَقَلَهُ قَدْ يَفْجُرُ الْوَضْعُ، وَتَرَكَهُ طَلِيقًا غَاضِبًا بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُحَارِبِينَ، الْمُؤْمِنِينَ بِصَلَاحِهِ وَبِرَكَاتِهِ، قَدْ يُوَسِّسُ لِمَقَاوِمَةٍ دِينِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

وَضَعُ مِرْفَقَهُ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَوَضَعَ ذِقْنَهُ فِي كَفِّهِمْهُمُومًا، التَّفَتَّ حَوَالِيهِ مُنْتَظِرًا الرَّجُلَ الَّذِي وَاَعَدَهُ الْبَارِحَةَ أَنْ يَأْتِيَهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ عِنْدَ هَذَا الْمَكَانِ، وَتَعَهَّدَ لَهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُ بِالْخَبَرِ الْيَقِينِ عَنِ مَكَانِ اخْتِبَاءِ لِمَرَابِطُ وَأَمْبِيرِيكُ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ الْوَصُولُ إِلَيْهِمَا دُونَ أَنْ يَقَعَ اشْتِبَاكٌ مَعَ السَّاكِنَةِ.

- أُووُوف، لَقَدْ تَأَخَّرَ هَذَا الثَّعْلَبُ كَثِيرًا!

نَزَلَ مِنْ فَوْقِ الصَّخْرَةِ وَبَدَأَ يَدُورُ بِهَا، بَيْنَمَا تَدُورُ فِي جَمْعِمَتِهِ عَشْرَاتُ الْإِحْتِمَالَاتِ وَالْخَوَاطِرِ الْمُتَنَاقِضَةِ، أَخْرَجَ مِنْ يَدِهِ قُصَّاصَةً كَانَتْ كَتَبَ بِهَا قَائِمَةٌ بِأَسْمَاءِ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَنْبَغِي التَّحْقِيقَ مَعَهُمْ فِي حَادِثَةِ وَادِي «أَيَزِنُ»، قَائِمَةٌ أَعْطَاهُ إِيَّاهَا سَلْمَاتِي قَبْلَ يَوْمٍ: «تَرَبَّهُ فَالْ، لِمَرُورُحْ،

امْهَادِي، سَدُومٌ وَلَدُ النَّكَرَائِي، لِمَرَابِطُ، اَجْمَلَهُ، لِمَعْيَدَلٌ وَخَطَّارِي،
 لفت انتباهه اسم لِمَرَابِطُ وَاْمَهَادِي. أخرج قُصَاصَةً أُخْرَى بِهَا قَائِمَةٌ
 مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي كَانَ امْهَادِي قَدْ أَعْطَاهَا إِيَّاهَا قَبْلَ أَشْهُرٍ، طَالِبًا إِرْسَالَ
 تَحذِيرَاتٍ لَهَا وَمِرَاقِبَةَ نَشَاطَاتِهَا، لَاهْتِمَامِهَا بِمَوْضُوعِ خَطِّيرِي، وَجَدَ بِهَا
 أَيْضًا أَسْمَاءً: «سَلْمَاتِي، لِمَرَابِطُ، النَّاجِي وَأَحْمَدُونَا».

وقف مشدوها يحاول الجمع بين المتناقضات، كلا الرجلين يتهم
 خَصْمَهُ، هَذَا شَيْءٌ مَفْهُومٌ، فَالْقَضِيَّةُ فِي عَمَقِهَا لَيْسَتْ سِوَى صِرَاعٍ بَيْنَهُمَا
 عَلَى زَعَامَةِ مَجْمُوعَتِهِمَا، وَلَكِنِ الشَّيْءُ الْمُرَبِّكُ هُوَ اعْتِبَارُهُمَا لِمَرَابِطُ عَدُوًّا
 مَشْتَرِكًا.

بعد تقليب النظر عرف سِرَّ عداوة كل واحد منهما لِلِمَرَابِطُ،
 فَاْمَهَادِي يَعَادِيهِ لِمَوْقِفِهِ الْحَادِّ مِنْ قَضِيَّةِ اخْتِفَاءِ خَطِّيرِي، وَسَلْمَاتِي يَعَادِيهِ
 لِأَنَّهُ يَقِفُ حَجَرَ عَشْرَةٍ أَمَامَ بَرَاكُمَاتِيَّتِهِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الْحُدُودَ.

قال بصوت مرتفع رغم أنه وحده:

- قَاتِلَهُ اللَّهُ، حَتَّى تَرَبَّهُ فَالْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ الْمَسْكِينَةُ الَّتِي خُطِفَ
 رَوْجُهَا، وَلَا تَدْرِي عَنْهُ أَيُّ خَبْرٍ، يَزْجُ بِهَا فِي قَائِمَةٍ يَطْلُبُ التَّحْقِيقَ
 مَعَهَا، بِمَا يَعْنِيهِ ذَلِكَ مِنْ مِضَاقِيَّةٍ وَاعْتِقَالٍ.

عَضَّ عَلَى شَفْتِهِ الْعُلْيَا وَهَزَّ رَأْسَهُ كَمَنْ أَشْرَقَتْ فِي ذَهْنِهِ فِكْرَةٌ رَائِدَةٌ،
 تَتِمُّ فِي دَاخِلِهِ:

- هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الْمُنَاسِبُ، إِنَّهُ أَهَمُّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا مِنْ امْهَادِي، لَكِنِ
 لَا بَدَّ مِنْ أَنْ أُسْتَدْرَجَهُ بِبُطْءٍ مَدْرُوسٍ، حَتَّى أَجْعَلَهُ يَدْعَنَ لِأَكْثَرِ
 الشَّرُوطِ إِهَانَةٍ.

أَمْسَكَ الْجُنُودَ الْمَبْثُوثُونَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ بِرِجْلِ مُلْتَمِّمْ يَلْبَسُ خِرْقًا

باليه، لا يشك الرائي في أنه مجنون تائه في الصحراء، جاؤوا به إلى كُزافييه مُقيِّداً، هَذَى بكلمات مُفكِّكة، كانت كلمة السر. فطلب منهم أن ينزعوا قيوده ويتركوه بين يديه، وأن يرجعوا إلى أماكنهم، استبقى واحدا منهم مترجماً، لم يثر الأمر استغرابهم، فقد تعودوا على مثل هذه المَقَالِبِ الأمنية.

- مَا الَّذِي أَحْرَكَ؟

نزع سَلْمَاتِي لثامه، فبدا وجهه متعباً تحت ضوء القمر الساطع في صحو الصحراء.

- كنت أحاول الوصول إليك دون أن يلمحني أحد، فرجال أهل بُوظْفِيرِه مبهوثون في كل مكان تحسباً لأي اقتحام قد تقومون به طلباً لِلْمَرَابِطِ.

لم يهتم كُزافييه بأسلوب التهويل الذي بدأ به سَلْمَاتِي، فجواسيسه يجبرونه بمعلومات لا تصل إلى هذه الدرجة، لكنه لم يعلق على ذلك، قفز نصف قفزة ثم جلس على التواء الصخري المرتفع قَدْرَ متر ونصف، ورجلاه متدلّيتان لا تلامسان الأرض، ثم قال بنبرة صارمة:

- وكيف يمكن أن نصل إلى لِمْرَابِطِ وَاْمَبِيرِيكْ؟

- اْمَبِيرِيكْ ليس معه للأسف، تلك معلومة مغلوبة، أما هو فقد لَقِيْتُهُ، إنه مقيم عند خيمة شَيْخِ أَهْلِ بُوظْفِيرِه، وقد اجتمعوا اليوم وتعاهدوا ألا يُسَلِّمُوهُ ولو حَطَّقَتْهُمُ الطَّيْرُ.

أصابته المعلومة الأخيرة بصدمة، فجمع كَفْيَهُ تحت ذقنه، وهو يطرق حافة الصخر بكَعْبِ حذائه الخشِن:

- وهل طلبت منهم شيئاً أو حدثتهم بموقفك منه؟

- لا، كنتُ أظهِرُ لَهُمْ أَنَّهُ شَيْخِي وَحَلِيفِي فِي الْبَحْثِ عَنِ أَخِي
خَطْرِي، وَرَفِيقِي فِي الرَّحْلَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا حَادِثَةٌ وَادِي «أَيَّزِنُ».

أَنْزَلَ ذِرَاعِيهِ وَشَبَّكَهُمَا حَوْلَ رَجْلَيْهِ، وَقَالَ وَهُوَ مُسْتَعْرِقٌ فِي التَّفْكِيرِ:
- أَحْسَنْتَ، أَحْسَنْتَ، مَاذَا تَقْتَرِحُ إِذْنُ؟

عَرَفَ سَلْمَاتِي أَنَّ هَذِهِ فِرْصَتُهُ، فَأَيُّ مَقْتَرِحٍ يَنْقُذُ الْمَوْقِفَ سَيَكُونُ لَهُ
أَثْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِ كَزْأَفِيئِهِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ هَذَا الْمَقْتَرِحِ آخِرَ خَطْوَةٍ لَهُ
نَحْوَ مَنْصَبِ امْتِهَادِي.

نَهَضَ ثُمَّ جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ عَلَى الصَّخْرَةِ، ثُمَّ أَطْرَقَ هَنِيئَةً.

- لِمَاذَا لَا تَتَكَلَّمُ يَا سَلْمَاتِي؟

- مَا زَلْتُ أَفْكَرُ فِي الْمَقْتَرِحِ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَمْنَحَكُمْ خُرُوجًا
مُشْرَفًا مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، وَيَجْنِبْكُمْ زِيَادَةَ تَوْتِيرِ الْأَوْضَاعِ، وَيَسْمَحُ
بِالْقَضَاءِ عَلَى خِصُومِ الْعَدَالَةِ، أَنْصَارِ الْفَوْضَى وَالسَّيِّئَةِ.

أَرَادَ كَزْأَفِيئِهِ أَنْ يَسْتَدِرَّ مِنْ ذَهْنِهِ أَذْكَى صَيْغَةَ لِلْحَلِّ، فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ
ذَاكِرَةَ الْبَيْطَانِي لَا تَبْدَعُ إِلَّا تَحْتَ بَرِيقِ الْمَصْلُحَةِ:

- الْحَقِيقَةُ أَنَّ امْتِهَادِي لَمْ يَعُدْ صَالِحًا لِلْمَهْمَةِ الَّتِي كَلَّفَنَاهَا، وَالَّتِي
عَلَى أَسَاسِهَا مَنَحْنَاهُ زِعَامَةَ مَجْمُوعَتِهِ، بَلْ جَعَلْنَاهُ الدَّلَكَّةَ عَلَى شِيُوخِ
الْمَنْطِقَةِ مِنْذُ عَامَيْنِ، وَهِيَ أَطْوَلُ فِتْرَةٍ يَسْمَحُ بِهَا قَانُونُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ.

كَانَتْ الرِّسَالَةُ وَاضِحَةً، يُمْكِنُكَ أَنْ تَكُونَ شَيْخًا لِمَجْمُوعَتِكَ إِذَا
وَاصَلْتَ تَعَامَلْكَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ، أَزْدَرَدَ سَلْمَاتِي الطُّعْمَ بِسُرْعَةٍ،
وَكَانَ وَاعِيًا بِأَنَّهُ يَزْدَرُدُ طُعْمًا، لَكِنَّهُ فَعَلَهَا مَدْفُوعًا بِحُبِّ الزَّعَامَةِ الَّذِي
يَسْكُنُ جِوَانِحَهُ مِنْذُ سَنَيْنِ، وَالَّذِي أَزْدَادَ طَمَعَهُ فِيهِ حِينَ بَدَأَ تَحْرِكَاتِهِ بَعْدَ
اخْتِفَاءِ أَخِيهِ.

- الحقيقة أن الفكرة التي يمكن أن تجنبنا بقاء لِمَرَابِطٍ بين ظهراني هؤلاء محرّضا على الإدارة الفرنسية تحتاج ذهنا وقادًا ووقتا طويلا .

- نشكر لك تعاونك معنا، فقد دَلَّلْتَنَا على مكان مجرمي حادثة وادي «أَيَزِن»، وَتَمَكَّنَّا من مباحثتهم واعتقال بعضهم، ولم يفلت منا في الحقيقة إلا أَجْمَلُهُ، أما لِمَرَابِطٍ فَأَنَا متأكدٌ أَنَّكَ ستجد لنا طريقةً مُثَلًى للقضاء عليه دون ضجيج، وإذا فعلتها فستكون رَجُلَنَا الأَوَّلَ في المنطقة.

رمى سَلْمَاتِي نظره نحو الأرض وقال بصراحة وقحة:

- هل ستجعلني شَيْخًا على مجموعة أهل بُوطْرُومَه؟

ضحك كُزَافِييَه، كان ضحكه مزيجا من الاستغراب والاحتقار:

- نعم، إذا نجحت في القضاء على لِمَرَابِطٍ بطريقة ذكية تجعل المجتمع لا يُحْمَلُنَا مَسْؤُولِيَّتَهَا، فسأجعلك شَيْخًا على مجموعتك.

لا يزال سَلْمَاتِي يمسح الأرض ببصره، مطرقا خجلا من نفسه، ولكنه لم يَعُدْ يملك سوى مواصلة السقوط، فالانحدار لا قاع له:

- سأريحك منه، أعطني أسبوعا واحدا لإنجاز المهمة.

- هَلْ سَتَقْتُلُهُ؟

ارتجفت أوصال سَلْمَاتِي لوقع الكلمة، فاختار كُزَافِييَه أن يُغَيِّرَ مجرى الحديث، حتى لا يجهز على ضميره دفعة واحدة، فقد تعلم قواعد الاستدراج من محاضرات علم النفس التي تلقاها في الكلية العسكرية بفرنسا، قال له وهو لا يزال غارقا في صمته المرتجف:

- وهل يمكن أن نعرف بالضبط مكان أَجْمَلِهِ وأمْبِيْرِيك؟

ظن سَلْمَاتِي أن كُزَافِييَه تَحَلَّى عن فكرة تكليفه بالتخلص من لِمَرَابِطٍ،

لما رأى ارتجافه من كلمة (القتل). حزن لذلك كثيرا، ولام نفسه في السر، لاحظ كُزافييه ذهوله وحزنه، أراد أن يضمّد جراح الكرامة التي نزت في نفسه، حتى لا تنزف بعد ذلك لشيء، قال وكأنه حكيم يعطي قواعد للحياة:

- الرجل القوي الذي يعشق المجد لا بدّ من أن يحمل قلبًا صَحْرِيًّا، ونَفْسًا لا تعرف الرحمة، أبناء الملوك يُعَوِّدُونَ على القتل منذ صباهم، لأن المُلْكَ شجرة لا تسقى إلا بالدم، هل سمعت عن نظرية فُقَّازِ الحَرِيرِ؟

- لا، أيها المِسِيُو كُزافييه، لم أسمع عنها فما هي؟

- هي نظرية في السياسة تعلمناها من الإنجليز، تقول إنه ينبغي للقائد المحنك أن تكون له قَبْضَةٌ من حديدٍ في فُقَّازٍ من حَرِيرٍ، فهو يبطش بخصومه ولكن بطريقة لينة لا تمنحهم السند الأخلاقي للثورة عليه.

نادى أحد الجنود طالبًا الإذن بالاقتراب، أمره كُزافييه أن يبقى مكانه، فهو لا يريد لغير ذلك الجندي المترجم أن يتعرّف على أن الذي معه هو سَلْمَاتِي، الذي جاؤوا به قبل ساعة ملثما ومتخفيا في زي معتوه. كان امهَادِي على فرسه يمسك به جنديان، نزل عن الفرس وأدى التحية العسكرية، تعمد كُزافييه ألا يبدي له أي احتفاء بقدمه. كان يريد من وراء ذلك أن يُهَيِّنَهُ، وبذلك تزداد نغمته على رجال قومه الذين سيعتبرهم السبب في إضعاف علاقته بالإدارة الفرنسية، وحينها سيكون مستعدا لتقديم أكبر الخدمات الأمنية لاستعادة الثقة. لقد عَلَّمَتْهُ سنواتٌ من التعامل مع شيوخ وقادة هؤلاء البيضان أن الإهانة هي أقصر وسيلة لاستعداد بعضهم على بعض:

- ما الذي جاء بك الآن، قل حاجتك بسرعة فأنا مشغول.

تفاجأ من الكلمات الحاسمة والنبرة المستعجلة التي خاطبه بها. كان يظن أنه سيكون متحرّقا للقائه، خاصة أنها لم يلتقيا بعد حادثة وادي «أَيَزِنْ». خطر في نفسه أنه ربما يتهمه بالتواطؤ مع لِمْرَابِطٍ وجماعته، ولكن كيف يظن به ذلك وهو كان يوافيه بتحركاتهم أوّلا بأول، حاول أن يستدرجه للحديث حول القضية:

- جئت لأساعدكم في القبض على المجرمين الذين اعتدوا على هيبة الإدارة.

قال له وكأنه غير مهتم:

- ما هي الأسماء التي ترى أنه علينا البدء باعتقالها؟

- كما قلت لك سابقا، لِمْرَابِطٍ وِسَلْمَاتِي، لكن لَتَعْلَمَ أيها الضابطُ النبيلُ أن سَلْمَاتِي رجل خطير، وأنه إذا لم يوضع تحت الرقابة أو في المعتقل فسيقوم بما هو أخطر من حادثة وادي «أَيَزِنْ».

قال في نفسه مستغربا: «يالهما من شخصين ماكربين، ما قيمة تلك السُّبْحَةِ الألفية التي يَجْرُّهَا كل واحد منهما، وأين صلاة الليل التي يداومان عليها دون فتور، إنها مصابان بانفصام الشخصية، فدينهما لا يأمر بهذا النفاق!» تمنى لو جمع بينها في صعيد واحد ثم استمع إلى ما سيقوله كل واحد منهما عن الآخر، وما سيقولانه معا عن لِمْرَابِطٍ الذي يظهران أمامه الود والمحبة والتقدير، ويضمران له هذا الحقد كله، وبعد أن يستمع إلى هرائهما السخيف يقتلها رَمِيًا بالرصاص.

صرف عن ذهنه هذه الخواطر الثائرة، فمصلحة فرنسا تقتضي التعامل مع الرجلين لتحقيق أكبر اختراق وسيطرة على هذا المجتمع

البدوي الغريب.

- لو استطعت أن تقنع لِمَرَابِطُ بأن يترك التحريض ضدنا،
مقابل أن نسمح لك باصطحابه إلى حَيِّ أهله.
علت وجهه إشراقة الأمل بعد يَأْسٍ، ثم انحنى بجزئه العلوي،
وقال بنبرة فيها كثير من إظهار الضَّعْفِ:
- أَمْرُكَ أَيُّهَا الْمِسِيُّ كَزَافِيئِهِ.

رجع نحو حَيِّ أولاد بُوظْفِيرِهِ مُنْتَشِيًا بالحوار الذي جرى بينه وبين
كَزَافِيئِهِ، حَسِبَ الأَمْرَ هِبَةً مِنَ القَدْرِ الكَرِيمِ جاءت لَتُنْقِذَهُ، إن عودته
إلى الحَيِّ مصطحبًا لِمَرَابِطُ، وقد نال عفواً من النصراني رغم عِظَمِ
جُرْمِهِ؛ إن هذا الإنجاز سيعيد له كثيرا من الهيبة التي صدَّعتها سنةٌ
من الصراعات بسبب اختفاء حَظْرِي. لكن تحركات سَلْمَاتِي الغامضة
تُنغِّصُ عليه فَرَحَهُ، فهو يعرف مَكْرَهُ ودهاءه، ويعرف لسانه العذب
الساحر، وقدراته الباهرة على لعب الأدوار المتناقضة في وقت واحد،
ويعرف أنه سيستغل حادثة وادي «أَيَزْن» لصالح طموحه الذي لا
حدود له.

كان سَلْمَاتِي لا يزال في مكانه الذي تركه فيه كَزَافِيئِهِ يُقَلِّبُ فِكْرَهُ
كيف سيتعامل مع الزوابع العاصفة للأيام المقبلة. ولما عاد إليه وقف
أمامه، وقال له دون مقدمات:

- كيف سَتَقْتُلُ لِمَرَابِطُ؟

تماسك حتى لا يرتجف مرة ثانية، فيفقد ثقة النَّصْرَانِيِّ الذي ينطق
كلمة (القَتْل) بنَشْوَةٍ، كما لو كانت لازمة أغنية غَرَامِيَّة، لكنه في الحقيقة
لم يكن يمتلك حُطَّةً جاهزةً.

لاحظ كُزافييَه استعدادَه، ولكنه عرف حيرته في الحُطَّة التي سينفذ بها عملية قتلٍ لِمَرابِطٍ فأسعفه بها، شرح له تفاصيلها، وأخبره أن لِمَرابِطٍ سيرجع مع امهَادِي بعد غد إلى الحَيِّ، وأن عليه أن يدبر العملية قبل ذلك. أعطاه لُفَافَةً من الكَاغِدِ فيها مسحوقٌ بُنِّيٌّ، ثم أمره بأن يعيد لثامه، ويذهب باتجاه حَيِّ أهل بُوَظْفِيرَه حيث يقيم لِمَرابِطٍ، وتواعدة بعد ليلتين غير بعيد من «الدِّيَكْدِيكْ»، حيث يحتمل أن يكون اجْمَلَه وامِيرِيك يتحصنان، من أجل مساعدته في تعقبهم، والقبض عليهم، ثم ألمح له بأن إنجاز تلك المهمات سَيُتَوَجَّحُ بتقلده منصب زعيم أهل بُوَظْرُومَه خَلْفًا لامهَادِي.

الفصل السادس عشر

انتبه لمُعَيِّدَلْ ضُحَى، كان جَسَدُهُ كله يؤلمه، جراء الوضعية القاسية التي كان محمولا بها على الجمل، في كل شبر منه كَدَمَةٌ أو جُرْحٌ، مضت له في هذا المكان ليلة ونصف يوم، لم ينتبه خلاهما من شدة التعب والإرهاق. استسلم للنوم منذ دفعه سَانَقُو بعنف إلى هذه الزنانة الموحشة، ثم وضع قُفْلًا نحاسيا ثقيلًا على العمود الذي يغلق بابها الخشبي السميك، قَبْرٌ صَيِّقٌ من الطين، مِتْرَانِ فِي مِتْرٍ وَاحِدٍ، لا يتجاوز ارتفاعه مِتْرًا وَنِصْفًا، ما جعله لا يستطيع الوقوف بقامته كاملة.

فتح عينيه فرأى خَيْطًا من النور منبعثًا من الجدار المقابل للباب الأَصَمِّ، كان القيد صَيِّقًا في يديه ورجليه، احتال حتى وقف، ضربت أخشاب السَّقْفِ يَأْفُوخُهُ فَارْتَجَّ دماغه. وبعد أن تَجَاوَزَ الدَّوْرَانَ الذي أصابه، خَفَّضَ قَامَتَهُ قَلِيلًا، ثم نظر من خلال الثُّقْبِ الصغير، فرأى أبنية مركز تَامَشِكُطْ تَلُوْحٌ من خلفها الأشجار الكثيفة الخضراء، كان مشهدا غريبا ومثيرا وممتعا في الوقت نفسه. إنها أول مرة يرى فيها تلك القرية منذ أصبح بها مركز إداري فرنسي، هناك عربات لِحْرِّ الماء، وأخشابٌ مِتْرَاكِمَةٌ، وَحُفْرٌ من الطين المخلوط بروث الدواب، تستخدم

لَطْلِي المساكين الطينية حتى لا يذيبها المطر، عبيدٌ شبهُ عرّاةٍ يحملون كِبِنَ الطِينِ وَسَطْلَ الحَمِيرَةِ على رؤوسهم، وآخرون يُرْتَبُونَ اللَّبْنَ، وَيَطْلُونَ الجدرانَ والسقوفَ، سيارةُ زرقاءَ مركونة عند المدخل الرئيسي وعلم فرنسا يرفرف فوقه .

لاحظ حركةً نَشِطَةً عرف من خلالها أن ضيوفاً وصلوا حديثاً، أو أنهم في طريقهم للوصول، خطر في نفسه أنهم ربما يكونون الوفد الفرنسي الذي كانوا يسمعون عند امتهادي أنه سيأتي تلك الأيام .

أحس بالجوع والعطش يجتاحانه، دق الباب بعنف، تعب من الضرب بيديه الموثقتين، دون أن يجيبه أحد، فالباب كَوَّحَ خشبي سُمُكُهُ خمسة وعشرون سنتيمتراً، لا يسمع طرقة من الخارج، ولا يسمع الداخل فيه أي حركة خارج زنزانته، إنه بابٌ أَصَمُّ أَبْكُمْ .

جلس والعرق يتصبب من جسده . حَفَرَ بأظفاره تحت الباب حتى أحدث فتحة صغيرة في الأرض، وضع أذنه عليها يتحسس الأصوات، كانت تصل إليه ضِحْكَاتٌ وأحاديثٌ ونكهةٌ شايٍ وروائحٌ تَبِغٌ، توحى بأن مجلساً مُنْعَقِداً غير بعيد من زنزانته الموحشة . وبالفعل كان هناك حارسان يجلسان في ظل الزنزانه غير بعيد من الباب، مُرْتَفِقَانِ على الأرض، يقيمان الشَّايَ وَيُدْخِنَانِ، ويتبادلان الأحاديث عن الثلاثة الذين جاء بهم سَانِقُو وجنوده مساء أمس .

قال أحدهما إنهم قد جيءَ بهم من الأطراف الغربية لأفْلَه، وَعَلَّقَ الآخرُ مُسْتَغْرِباً لماذا يعتقلون ثلاثة عبيدٍ، والعبيد أتباع لأسيادهم، فأجابه الثاني بأن أحدهم يِظَانِيٌّ، لعله سيُدْهُمًا، هز الآخر رأسه مستغرباً:

- ظننتها مجرد ثلاثة عبيد، فقد كلفني سَانِقُو بأن أودِعَ اثنين منها في زنزانه العبيد التنتة، لكنني لم أعرف أين ذهبوا بالثالث، لعلمهم

استبقوه للخدمة.

- ثالثها رجل بِيْطَانِيٍّ، أَوْدَعْتُهُ أَمْسَ هذه الزنانة، ولعله استيقظ قبل قليل، أما سمعت طرقة الباب.

- لا، لم أسمع أي شيء.

- أما أنا فقد سمعته، فقد عودتني سنوات من حراسة نزلآء هذه الزنانة أن أسمع أي حركة داخلها، رغم سُمْكِ الباب الذي يحجب الأصوات خارجة وداخله.

شفط الحارس الزائر كأس الشاي شفقةً حرَّكَتْ مُخَّ لِمُعِيدِّ الذي كان في غاية التوق إلى كأس شايٍ مُعْتَقٍ، ثم قال:

- أحب دائما أن أتولى حراسة السجناء العبيد والصناع التقليديين واللحمة وغيرهم، وأكره حراسة السجناء ذوي النسب والمكانة والعراقفة في قبائلهم.

سحب الآخر نفساً من عُليُونِه العظميِّ إلى صدره، ثم ترك الدخان يفوح من فمه ومنخريه، قال:

- صدقت، إنهم يجر جوناك، فأنت لا تستطيع أن تهنئهم خوفا من عاقبة الأيام، ولا يمكنك التسامح معهم خوفا من عقوبة النصارى، وسجيني هذا الذي جاء البارحة، لم أعرف بعد من أي الأصناف هو، ولكن أول نظرة تقول إنه شريف النسب، وإذا كان كذلك فلن أعامله إلا بالحسنى.

ضحك الحارس الزائر، وقال بنبرة هازئة:

- وقد يكون صناعا تقليديا، فالطارقات بالحصى تُقْلَنَ إِنَّ ملامح شريف النسب والصانع التقليدي تتشابه في سُجْفِ الغيب، فإذا أرتم الكهانة أن امرأة سيتزوجها شريف فإنه قد يتحول في الواقع

إلى صانع تقليدي، والعكس صحيح.

استطاع لِعَيْدَل أن يَتَيَّنَ من خلال الثقب تمتمة أحدهما وهو يسأل صاحبه عن خبر الرجل المسجون في البئر منذ فترة. فأجابه الآخر إن سجينَ البئر يجب أن يُعَيَّرَ اسمه «خَطْرِي» الذي كان صادقاً على هيئته القوية وجسمه المكتمل أيام قدومه، نظراً لما فقدَ من وزنه في تلك البئر الموحشة.

رَنَّ الاسمُ في أُذُنِهِ فَانْتَسَتْهُ المفاجأةُ الآمَهُ وجوعه، وغرق في تفكير عميق، هل يمكن أن يكون خَطْرِي مسجوناً منذ اختفائه في بئر؟ ولماذا يعاملونه بهذه القسوة البالغة؟ وكيف يمكنه أن يلتقي به؟ تمنى لو استطاع أن يهمس لَسَلْمَاتِي وتَرْبَهُ فَالَ بهذا الخبر.

قطعت تفكيره حركة سَحَبِ الباب الذي انفتح عن رجلٍ قصير القامة عريض المنكبين، تحال وجهه صفيحةً نُحَاسِيَّةً صِدَّةً، تشام بملامحه الجامدة، فتمتم مستعيذاً من يوم يبدأ بهذا الوجه القَمَطْرِي، قال له الرجل بجمودٍ وكأنه يخاطب غيره:

- كيف مَيِّتَكَ البارحة؟

أجابه بطرافته المعهودة:

- هل سمعت بقصة مقييل الأرنب عند أخوالها؟

ضحك الرجل حتى انحنى مستنداً إلى الجدار، ثم قال وبقايا ضحكه تتخلل كلماته:

- ذلك يوم مشهود، هل تحتاج إلى الذهاب إلى الخلاء، لقد جئت

كي أصطحبك إذا كنت تحتاج إليه؟

فهقه لِعَيْدَل مُعْضُّناً جبهته للألم الذي سَرَى في ظهره، ثم قال وهو

يميل إلى جنبه الأيسر:

- وما الذي في بطني كي أستفرغه، أنا منذ يومين لم أفتح فمي إلا بأهة أو أنين.

ضحك الرجل مرة أخرى طويلا، ثم غاب عنه لحظات، وجاء بسطل فيه ماء، وحباب من الفستق، وبعض التمر اليابس، وحفنة من الدخن الأبيض، حين وضع هذا بين يديه قال له وهو يتسم:

- ظننتك عاقلا أول مرة، ولكنني الآن بدأت أشك في عقلك.

قال الحارس مندهشا من أريحيته:

- كيف ذلك أيها السجين الطريف؟ من أي القبائل أنت؟

عرف لمعيدل من خلال استراقه السمع حديث الحارسين، أن صاحبه سيبيء معاملته إذا عرف أنه مجرد صانع تقليدي مغضوب عليه من كزافييه العنيد، فاحتال ليستغل حالة جهله به:

- جنني بألة التدخين وبكأس من الشاي! فأنا رجل مُبتلّ بالإدمان على التبغ والشاي وقص الطرائف.

ناوله العليون وصرّة التبغ، ثم جاءه بشهاب قبس، ووعدته بكأس شاي إذا أرخى الليل سدوله، فنوعه من السجناء لا يسمح لهم بتناول الشاي.

ملا فوهة العليون تبغا ثم سدّها بجمرة الشهاب الذي في يميناه، وسحب الدخان طويلا حتى غارت لحمتا شديقه، تركه يتردد في صدره لحظات ثم أخرجه تدريجيا وعيناه تغرورقان بدمع المتعة، سأله:

- وهل السجناء هنا غير متساوين؟

- نعم، السجناء هنا نوعان، فأصحاب النزاعات القبليّة

والممتنعون من الضرائب وأمثال أولئك يسجنون في ذلك الحَوْشِ
المُسَيِّجِ بالأسلاك الشائكة، وهم أحرار داخل الحَوْشِ، يطبخون
ويقيمون الشاي والأسرار، أما الذين يعتقلون بسبب الشغب على
الإدارة، أو الاعتداء على أحد الأعوان، أو على الفرنسيين فإنهم
يسجنون في هذه الزنازين الصغيرة، وأحيانا يوضعون في زنازين
تحت الأرض، يأتيهم الطعام والشراب، ولكنهم يمنعون من تناول
الشاي.

كان لمُعِدِّل يحاول أن يتأكد من اسم خَطْرِي الذي سمعهم يتمتمون
به قبل أن تفتح الزنزانة، قال له:

- الحمد لله أنهم لم يضعوني في تلك البئر، هل هناك من هو
مَسْجُونٌ فيها؟

انكمش وجه الرجل فجأةً، فأمر ذلك السجين مُحَاطٌ بِسِرِّيَّةٍ عالية،
ليس في المركز من يملك عنه خبرا سوى الرئيس كَزَافِيَّة، ولا يعرف
أمره من حراس المركز سواه، أو صديقه الحارس الذي أسرَّ إليه بأمره
واستكتمه، وأي معلومة تسرب تعني نهاية حياته، تظاهر بالبراءة
وقال:

- لا، كان فيها بعض السجناء، ثم انتهت مدة محكوميتهم،
وأطلق سراحهم، لم يسجن فيها أحد بعد ذلك، لكنك لم تخبرني عن
اسمك ونسبك؟

- اسمي لمُعِدِّل، وأنا صانع تقليديٌّ لشرفاء أهل بُوطْرُومَه.
بعد لحظات استعجل الحارس مُتَعَلِّلاً ببعض المشاغل، ثم أغلق
عليه باب الزنزانة ومضى.

كان لمُعَيِّدَلْ قد وجد في أرضية الزنزانة قطعةً حديدٍ بها جاذِبٌ مَغْنَاطِيٌّ، رَكَّبَ فيها أسلاكًا من القماش أخذها من ثيابه، ثم أنزله مع الثُّقْبِ الصغير الذي في أعلى الزنزانة، وجذب به قضيبًا حديديا كان مرصيا خلفها، ثم دسها في تراب الزنزانة، منتظرا الليل كي يبدأ عمله.

مَرَّت الأيام قاسيةً على حَيِّ أهل بُوطرُومَه، فقد عمته الفوضى منذ حادثة وادي «أَيَزِنْ»، لم يبق في الحي سوى ضعفاء الرجال ممن لا يأبهون جدا لمثل هذه الأمور، أما الرجال الأقوياء والقادة فقد ذهبوا كلهم في اتجاهات مختلفة. ذهب بعضهم إلى حَيِّ أهل بُوطْفِيرَه حيث يقيم لِمَرَابِطُ، وذهب أقاربُ أَجْمَلَه يتحسسون أخبارَه بعدما سمعوا أنه أفلت من الكمين الذي نصبه كُزَافِييَه وجنوده لهم. أما النساء فقد اندلعت بينهن الشائعات المحزنة، وصرن في حالة حِدَادٍ مستمر، كُنَّ يتوقعن كل لحظة أن يجتاحهنَّ فَيَلْقُ من «كُومِيَاتٍ»، ويعبث بالناس والأشياء، ويغتصب من قَدَرَ عليها منهن، فرغم أن عقوبة «التَّسْيِبِ» لم تُطَبَّقْ في تلك المنطقة، إلا أن بشاعتها القادمة من العَرَبِ والشَّعَالِ جعلت مجرد التفكير فيها من جوالب الحزن والغم. يجتمعن كل يوم من وقت الضحى إلى وقت الغروب في خيمة أحد الرجال الغائبين، ويقتسمن عَشْرَةَ أَمْدَادٍ من الدُّخْنِ الأبيض، وَيُفْرَغْنَ أَوْعِيَتَهَا فِي أَوَانٍ أُخْرَى حَبَّةً حَبَّةً، ومقابل كل حَبَّةٍ دَعَاءٌ على كُزَافِييَه بالموت، ولرجالهن بالرفعة والسلامة، يعتقدن أن هذا الطقس الدُّعَائِيُّ مُجَرَّبُ النَّفْعِ.

مرت أربعة أيام وهن على هذه الحال، اجتمعن عند منازل الرجال الأربعة: سَلْمَاتِي وَخَطْرِي وَلِمَرَابِطُ وَأَمْهَادِي، قبل غروب اليوم الرابع الذي كُنَّ فيه عند خيمة أهل امهَادِي، سألتهن لِعِنَادِ:

- أين سيكون اجتماعكن غدا؟

أَجَبْنَهَا جَمَاعِيًّا: «سنعود إلى من بدأنا به؛ أهل خَطْرِي». قالت الفَارْهَة بنت لُمَيْدَل وقد تَمَلَّكَهَا الاسْتِعْرَابُ من إجماعهنَّ على ذلك، وكان أباهَا الغائب لا يستحق يومَ دعاء:

- هل نسيتم أبي لُمَيْدَل، الذي لا نعرف الآن عنه أي خبر، أم هو لا يستحق دَمْعَكُنَّ ولا دُعَاءَكُنَّ! ما كنت أظنُّ أبي أَحَبَّ إِلَيَّ من رَجَالِكُنَّ، ويعلم الله أني أدعو لهم جميعا في ليلى ونهارى، وكنت أظنُّكُنَّ كذلك.

ساد وجوم طويل، وترامقن في ما بينهن بعيونٍ فيها بعض الغضب والخجل المُخْزِي، قالت عجوز مُتْرَبَّعَةٌ في آخر المجلس، وقد انحنى ظهرها حتى ليخيل إليك أنها ساجدة:

- يا ابنتي الفارهة، هذا أمرُ الشريعةِ المحمديةِ، فمنازل لِـمَعْلَمِينَ لا يرتفع منها دعاء إلى السماء. علقت امرأة أخرى:

- قال لي أبي رحمه الله إن الصَّلَاةِ في منازلهم أشدُّ كراهةً من الصلاة في معاطن الإبل، وكان يَسْتَحِبُّ الإعادةَ لِمَنْ صَلَّى فيها. قالت أخرى في طرف المجلس، كأنها لا تريد لكلامها أن يُسْمَعَ، وقد وضعت يدها على أنفها مُتَأَفِّفَةً:

- هذا حكم يعرفه الجاهل، فـلِـمَعْلَمِينَ خَلَقُوا من رَوْثِ حِمَارٍ عَزِيزٍ عليه السلام، وأنَّى لِمَنْ خُلِقَ من النَّجَاسَةِ أن يَطْهَرَ! كانت الفَارْهَة تتابع حديثهن وهي تتميز من الغيظ، كل هذا الكلام سَمِعْتُهُ من قبل، وتعرف أن المجتمع ينظر إلى أسرتها باعتبارها في طبقة أدنى، ولكنها لم تكن تظن أن الأمر يصل إلى هذه الصراحة الوقحة،

طوّفت بذاكرتها في تاريخ أسرتها، فلم تجد مَعْمَزًا في دين ولا خُلُقٍ. تذكّرت والدها لِمُعَيِّدَل، وعرفت أن الرجال الذين هؤلاء زوجاتهم وبناتهم سيخذلونه، وسيتركونه مُهْمَلًا في سِجْنِ النَّصَارَى وعذابِهِمْ، لأنهم يرونه ناقص الإنسانية، ليست له عَصَبَةٌ نَحْمِيَّة، وليست لهم ضائِرٌ نَعَطُهُمْ عليه.

انفجرت باكية، ثم وقفت تُلقِي عليهم حَمَمَ البراكين التي كانت تتقد بجوانحها منذ عقلت هذه الدنيا:

- أي فضل لأُسْرٍ هذا الحي على أسرتنا، أليس جَدِّي رحمه الله هو الذي كان يقطع خَشَبَ الألواحِ لِأَبَائِكُنَّ ويكتب لهم فيها القرآن، هل في هذا الحي حَافِظٌ يشار إليه لم يدرس عليه، هل أُمَّهُم طيلة عمره المديد بنقيصة، ألم يقيم بشؤونهم أيام كانوا أطفالاً أيتاماً؟ هلا سألتنَّ أراملكنَّ من الذي عَطَفَ عليهنَّ، وكان ينفق عليهن من عائدات عمل يده النبيل! وهذا أبي لِمُعَيِّدَل الذي تتجاهلن اليوم كُرْبَتَهُ، وتَحْرِمُنَهُ دعاءً عند ربِّ كريم، أو ليس أبي خير رجال هذا الحي، مروءةً وشجاعةً ونُبُلًا! هل في هذا الحي أحفظ منه لكتاب الله أو أخشع منه في صلاة! الفرق بينه وبين آبائكنَّ هو أنه يعيش من عمل يده، وآباؤكن -إلا من رحم الله- يعيشون من استغلال عباد الله باسم الدين وباسم النسب. هل في جُوالِقَاتِ خِيَامِكُمْ إلا حبوب مزارع العبيد، الذين يتعبون فيها، وتأخذونه أنتم بالحيلة والمكيدة! وهل في عرصاتكم إلا ما جمعتم بالهدايا والأحجبة والأوراد من المستضعفين! أي فضل لكم علينا، وبأي كتاب أم بأي سُنَّةٍ حُزْتُمْ ذلك الفضل! إذا كان الفضل بالعلم والدين، فأبي -والله- من أكثركم علماً وأزكاكم نفساً، وإذا كان الفضل بالشجاعة والإقدام،

فأبي -والله- لا يهتز جناؤه ولا ترعد فرائضه، وحادثه وادي «أيزن» تشهد بذلك، وقبلها أحداث تعرفنها ولا تتركزها، وإذا كان الفضل بالغنى عن الناس، فأنتم المحتاجون إلينا، نصنع أوانيكم وفرشكم ونزينا نساءكم، فأينا الغني عن الآخر!»

قذفت الفأزّه نفّاة صدرها، ثم جلست وتركتهن واجبات، يترامقن بنظرات الدهشة والاستغراب، استفقن على زغردة وتصفيق فاطمه الخادم -أو فاطمه المجنونة، كما أصبحت تُعرف- وهي تتخطى رقابهن. كانت تكرر بلكنتها البمبارية: «أيوه، زبيتكم، البيوان (البيضان، هي تنطق الظاء واوا) ويلكم من زهنم (تنطق الجيم زايا) مولانا الرقيب (الرقيب، تنطق القاف كافا)، أوووه، مد زايكم (جايكم)». قالت كلماتها المعبرة ثم غابت في دعائها الأثير الذي لا تفتقر عنه: «يارب امسعيعد تمشي بيه بعيد»، مالت النسوة بعضهن على بعض، بعضهن من شدة الضحك، وبعضهن من شدة الموعدة. وقبل أن يغادرن خيمة امهادي جاء رجل عليه أثر السفر، يقتعد بعيرا، وقف أمام الخيمة ثم قال:

- التقيت برجل منكم اسمه لمعيدل، يحمل «كوميات» النصرى مقيدا على جمل، ويتجهون به نحو تامشكط.

صرخت الفأزّه ثم نهضت مستعجلة تجر ملحفتها نحوه، وقفن نحو الرجل الذي حرك زمام جملة مغادرا، كان هذا أول خبر يصلهن بعد الناجي منذ حادثة وادي «أيزن» ومغادرة امهادي نحو «أجحافية» لتقصي الحقائق. رمين إليه بأسئلة كثيرة، وكان يلقي بكلماته بجلافة قاسية:

- كان مقيدا والدم ينزف من وجهه... إذا كانوا حقا سيذهبون به

إلى تَامَشِكْطُ على تلك الحال فلا أظنه سيصل هناك إلا جُثَّةً هامدة.
لم تعد رجلاها قادرتين على حملها، جلست ممسكة وجهها بكفيها،
والدموع تنهمر من وجنتيها، نُحَلِّقَنَ حولها يحاولن تثبيت قلبها الممزق
بأكثر من سِكِّينٍ، عرفن من خلال ما قاله الرجل البدوي عن مُعَيِّدَلُ أن
مصيرَ بقية رجاهن لن يكون أحسن. واتفقن أخيرا على أن تقام جَلَسَةٌ
دعاء الغد عند أهل مُعَيِّدَلُ، جَبْرًا لخواطرهم في أيهم الذي اعتقله
النَّصَارَى، وترميا للعلاقة بتلك الأسرة التي جرحت مشاعرها بعنف،
لم يخرج عن إجماعهن إلا اثنتان، إحداهن أخت لِمَرَابِطُ، والأخرى
بنت أخته، فقد كانتا متعصبتين للمأثورات الخُرَافِيَّةِ التي يرون أنها جزء
من الفقه الشرعي.

يجلس لِمَرَابِطُ في وسط خيمة وَبَرٍ فسيحةٍ، أعدها أمير أولاد
بُوظْفِيرَه تكريما له، وإمعانا في تكريمه أجلسه على مَهَادِهِ الجلدي الوثير،
يتحلق حوله أعيان المجموعة، يستفتونه في نوازلهم الفقهية، ويسألونه
الدعاء والبركة. فمنذ قدومه إليهم لاجئا من مطاردات كُزَافِيَّه وتلك
الخيمة مُحَجَّجٌ للرجال من مختلف الفئات والأعمار، والموائد المختلفة تغدو
وتروح عليها، فِلِمَرَابِطُ ذو سمعة كبيرة في المنطقة كلها.

هناك أيضا امهَادِي وَسَلْمَاتِي، يفكر كل واحد منهما في الطريقة التي
سَيَنْفِذُ بها ما كلفه به كُزَافِيَّه بشأن لِمَرَابِطُ، امهَادِي يحاول إقناعه
بالرجوع إلى الحَيِّ، وهو يحمل وَعَدًا شفويًا من كُزَافِيَّه بعدم ملاحقته
على ما جرى في حادثة وادي «أَيَزِنُ»، أما سَلْمَاتِي فيفكر في قتله دون أن
يُكْتَشَفَ سببُ الوفاة.

كان جالسا خلفه يُدَلِّكُ كتفيه، ويناديه بين الحين والآخر بِمَرَابِطُنَا،
ويذكر بعض مناقبه لأهل المجلس، وكان لِمَرَابِطُ بدوره يثني على

سَلْمَاتِي مُعَبَّرًا عَنْ حَبه لَهُ، وَحَبه لِأَخِيه خَطْرِي. أَمَا امْهَادِي فَكَانَ مُغْتَاظًا لِجَمِيلِ الْوَدِ الَّذِي يَجْرِي بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ، يَحْسِبُ الْوَدَ بَيْنَهُمَا حَبْلًا مَشْنَقَةً يُطَوَّقُ مُسْتَقْبَلِ اسْتِمْرَارِهِ فِي زَعَامَةِ الْمَجْمُوعَةِ، وَلَكِنَّه كَانَ مَرْتَاخًا شَيْئًا قَلِيلًا، فَإِنْقَاذَهُ لَهُ مِنْ بَطْشِ كَزَافِيئِهِ سَيَعِيدُ الْوَدَ بَيْنَهُمَا لَا مُحَالَةً.

اشْتَرَطَ أَمِيرُ أَوْلَادِ بُوظْفِيرِهِ وَثِيْقَةً عَفْوٍ مُوَقَّعَةً مِنْ كَزَافِيئِهِ، وَإِلَّا فَاِنَّهُمْ لَنْ يَسْمَحُوا لِامْهَادِي بِأَنْ يُخْرِجَ لِمِرَابِطٍ مِنْ حِمَايَتِهِمْ، حَاوِلًا امْهَادِي مَعَهُمْ بِكُلِّ الطَّرْقِ، وَلَمَّا اسْتِيَاسَ مِنْهُمْ خَلَصَ نَجِيًّا بِهِ. لَكِنْ لِمِرَابِطُ أَحَالِ الْأَمْرِ إِلَى الْأَمِيرِ الَّذِي يَسْتَضِيْفُهُ وَيَحْمِيهِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ بُدٌّ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَى كَزَافِيئِهِ لِكِتَابَةِ وَتَوْقِيعِ وَثِيْقَةِ الْعَفْوِ. وَعَدَهُمْ امْهَادِي بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِرَدِّ النُّصْرَانِي فَجَرَ الْيَوْمَ الْمُوَالِي.

كَانَ سَلْمَاتِي مَرْتَبِكًا فِي دَاخِلِهِ، فَقَتَلَ لِمِرَابِطٍ لَيْسَ قَضِيَّةً عَادِيَّةً، كَانَ يَخِيلُ إِلَيْهِ أحيانًا أَنَّهُ فِي حَلْمٍ، فَيَحْرِكُ رِجْلَهُ لِيَسْتَيْقِظَ، ثُمَّ تَلْقِي الْخَوَاطِرَ فِي رَوْعِهِ أَنَّ الْأَمْرَ انْتِقَامَ مِنَ اللَّهِ لِامْهَادِي الَّذِي كَانَ خَطَطَ لِقَتْلِهِ عَنْ طَرِيقِ امْبِيرِيكٍ، فَهِيَ هِيَ الْآنَ سَيُوءَ بِدَمِ عَالَمٍ مِثْلِ لِمِرَابِطٍ. نَفَى تِلْكَ الْخَوَاطِرَ عَنْ ذَهْنِهِ، فَالْمَوْضُوعُ لَمْ يَعُدَّ قَابِلًا لِلتَّرَاجُعِ، لَا فَكَاكَ إِذْنٌ مِنْ قَتْلِ لِمِرَابِطٍ سَبِيْلًا لِاسْقَاطِ امْهَادِي عَنِ الزَّعَامَةِ، وَتَقْلُدِ الْمَنْصَبِ مِنْ بَعْدِهِ.

كَانَتْ نِسْوَةٌ حَيَّةٌ أَهْلُ بُوظْفِيرِهِ يَتَسَابَقْنَ إِلَى إِعْدَادِ هَدَايَا لِتَوْدِيعِ لِمِرَابِطٍ، بَعْضُهُنَّ طَرَّزْنَ أَوْعِيَّةً جَلْدِيَّةً لِحَفْظِ وُرَيْقَاتِ الشَّايِ، وَأُخْرَى لِلْفَسْتَقِ وَيَابِسِ الْخُبْزِ، وَبَعْضُهُنَّ أَعْدَدْنَ حَافِظَاتٍ صَغِيرَةً لِلْإِكْسِسُورَاتِ الْبَدْوِيَّةِ مِثْلِ الْمَوْسَى وَمِنْقَاشِ الشُّوكِ، كَمَا أَعْدَتِ إِحْدَى الْعَجَائِزِ قَدْرًا مِنَ النَّشُوقِ بِطَرِيقَةٍ جَيِّدَةٍ كِي تُهْدِيَهُ لَهُ، فَهِيَ يَدْمُنُ عَلَى اسْتِخْدَامِهِ.

دخل طفلاً يحمل صُرَّة النَّشُوقِ وقال:

- لِمَرَابِطُ، أُمِّي تطلب منكم الدعاء وتهديكم هذا النَّشُوقَ،
وتنبهكم إلى أنه لا يزال يحتاج إلى قليل من الشَّمْسِ والهواء، لكنها
خشيت أن تغادروا قبل أن يصلكم.

مسح لمرابط يده على فَرْعَةِ الطفل، ثم دعا لها بالنصر وصلاح
العيال، تناول سلماتي الصُّرَّةَ ثم خرج بها لِيُنْشَرَهَا تحت أشعة الشمس
كما أوصت العجوز.

بقيا وحدهما في الخيمة بعد المغرب، فهذا وقت انشغال رجال البادية
بتفقد مواشيهم وحلبها وإعداد العشاء. نهض سلماتي نحو النَّشُوقِ
المنشور عند الطَّنْبِ الجنوبي للخيمة، أخذ مِلءَ كَفٍّ منه وخالطه
بالمَسْحُوقِ السَّمِّي الذي أعطاه كُزَافِييَه، ثم جعله في صُرَّة قماشٍ
صغيرة، وجاء للمَرَابِطِ بالجميع. اقترح عليه أن يحتفظ الصُّرَّةَ الكبيرة
في الجِوَالِقِ الذي يجمع فيه هداياه، وأن يحتفظ بالصُّرَّةَ الصغيرة كي
يستخدمها إذا نفذت صُرَّة النَّشُوقِ التي بين يديه.

دعا له لِمَرَابِطُ كثيراً، فقد أحس في أيامه الأخيرة بقربه منه، سأله
خافضاً صوته عن أخبار الرجال الذين كانوا معه في حادثة وادي
«أَيَزِن»، وأخبره أنهم أرسلوا لِمُعَيَّدَلْ واثنين من العبيد إلى سجن
تَامَشِكُطْ، وأن البحث لا يزال جارياً عن أَجْمَلَه وامْبِيرِيكْ، وأنه هو
التقى بَكُزَافِييَه وهدده بتحريض المجتمع إذا هو لم يتراجع عن قرار
معاقتهم، وأنه وعده خيراً.

شكره لِمَرَابِطُ وشجعه على قوة شخصيته، وصرامة موقفه مع
النَّصَارَى، ثم اقترب منه متمتماً:

- لعل هذه الحادثة تكون سبباً في إفراج النَّصَارَى عن أخيك

خَطْرِي.

لم تعد عودة خَطْرِي مهمةً بالنسبة إليه، بل أصبح منذ فترة يشعر أنها ستقف عائقًا أمام طموحه للزعامة، لكنه تظاهر بالاهتمام، ثم أشد بنبرة مشفقة بيتي كعب بن سعد الغنوي:

أَخِي مَا أَخِي لَا فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ

وَلَا وَرِعٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبُ

أَخِي كَانَ يُغْنِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي

عَلَى نَائِبَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ

اهتز لِمَرَابِطُ طَرْبًا لفتوة سَلْمَاتِي في إirاده المناسب للبيتين، ثم استأنف أول القصيدة منشدا بخشوع:

تَقُولُ سُلَيْمِي مَا لِحِسْمِكِ شَاحِبًا

كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الشَّرَابُ طَيِّبُ

بينما كان لِمَرَابِطُ مستغرقا في إنشاده الفصيح الخاشع للقصيدة، ارْتَجَّتْ جَنَبَاتُ الخيمة بِحَوَافِرِ الحَيْلِ، فوقفا معًا فَرَعَيْنِ. فارسان يمتشقان بندقتين تقليدتين، أرسلهما أمير الحَيِّ لحراسة لِمَرَابِطُ، فقد وصله أن كُرَافِيئِهِ المُعَرَّس غير بعيد منهم. ربما يفكر في اقتحام الحي لاعتقاله.

الفصل السابع عشر

تَعَصُّ خِيْمَةَ أَمِيرِ أَوْلَادِ بُوظْفِيرِهِ بِعَشْرَاتِ الرِّجَالِ، يَتَوَسَّطُهُمُ الْأَمِيرُ نَفْسُهُ جَالِسًا إِلَى جَنْبِ لِمْرَابِطٍ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ أَمْهَادِي مَادًّا يَدَهُ بِوَثِيْقَةِ الْعَفْوِ الَّتِي وَقَعَهَا لَهُ كُزَّافِيِيَهُ الْبَارِحَةَ. بَدَأَ الْأَمِيرُ يَتَكَلَّمُ فَاشْرَأَبَّ إِلَيْهِ مِنْ فِي الْمَجْلِسِ، صَامِتِينَ سَاكِنِينَ لَا يَتَحَرَّكُ مِنْهُمْ سِوَى الْحَدَقِ الْمُصَوَّبَةِ إِلَيْهِ، مَدَّ سَلْمَاتِي يَدَهُ خِلْسَةً إِلَى صُرَّةِ النَّشُوقِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ فَخْذِ لِمْرَابِطِ الْمَلَاصِقَةِ لَهُ، ثُمَّ دَسَّهَا فِي جَيْبِ سَرَاوِيلِهِ دُونَ أَنْ يَلْمَحَهُ أَحَدٌ.

أَتْنَى الْأَمِيرُ عَلَى لِمْرَابِطِ الَّذِي أُوَى إِلَيْهِمْ، وَاعْتَبَرَ ذَلِكَ إِكْرَامًا وَإِكْبَارًا لِشَأْنِهِمْ، «فَلَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّنَا نَسْتَطِيعُ حِمَايَتَهُ لَمَا لَجَأَ إِلَيْنَا» - قَالَ الْأَمِيرُ -، ثُمَّ شَكَرَ أَمْهَادِي زَعِيمَ مَجْمُوعَةِ أَهْلِ بُوظْرُومَةَ الشُّرَفَاءِ عَلَى عَقْلِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَقَدْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنْ كُزَّافِيِيَهُ الْكَافِرِ وَثِيْقَةً بِالْعَفْوِ عَنْ شَيْخِ أَفْلَهَ وَعَالِمِهِ أَمْرَابِطِ أَتْلَامِيْدٍ.

رُزِّمَتْ الْجِمَالُ وَحَمِلَتْ عَلَيْهَا الْهَدَايَا الْكَثِيرَةَ الَّتِي مَنَحَتْ لِلْمِرَابِطِ مِنْ سَاكِنَةِ الْحَيِّ، وَالَّتِي احْتِاجَ حَمْلُهَا إِلَى جَهْلِ آخِرٍ، تَبَرَّعَ بِهِ أَحَدُ رِجَالِ أَوْلَادِ بُوظْفِيرِهِ. تَبِعَهُمُ الْأَمِيرُ وَرِجَالُهُ يَمْتَطُونَ صَهْوَاتِ خَيْلِهِمْ. كَانَ

لِمَرَابِطٍ يَسِيرُ بَيْنَهُمْ مُمَسِّكًا بِخَطَامِ جَمَلِهِ. وَحِينَ أَصْبَحُوا خَارِجَ الْحَيِّ
وَدَعَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأُنِخَ جَمَلُ لِمَرَابِطٍ لِيُرِكَبَ عَلَيْهِ. وَدَعَا سَلْمَاتِي
مَعْتَذِرًا عَنِ مِرَافِقَتِهِ بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ يَنَاقِشُ مَعَ كَزَافِيئِهِ مَوْضِعَ رِجَالِ الْحَيِّ
الَّذِينَ شَارَكُوا فِي حَادِثَةِ وَادِي «أَيَزِن».

انْطَلَقَ امْهَادِي وَلِمَرَابِطُ وَالنَّانُومِي صُوبَ «لِفَدَه»، حَيْثُ لَا يَزَالُ
حَيُّ أَهْلِ بُوْطَرُومَه مَقِيمًا، كَانَ الْوَقْتُ عَصْرًا، وَهَمَّ يَسِيرُونَ عَكْسَ اتِّجَاهِ
الشَّمْسِ، الَّتِي انْكَسَرَتْ سَوْرَةٌ حَرَارَتِهَا مَفْسُحَةً الْمَجَالِ لِبَعْضِ النِّسَاءِ
الْمَحْمَلَةِ بِرَوَائِحِ الْأَشْجَارِ النَّدِيَّةِ.

رَاقَهُ الْجَبُّ وَاعْتَدَلَ مَزَاجُهُ، أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ بَحْثًا عَنِ صُرَّةِ النَّشُوقِ
الْمُسْتُخْدَمَةِ، وَلَمَّا لَمْ يَجِدْهَا فَتَحَ الصُّرَّةَ الْأُخْرَى الَّتِي أَعَدَّهَا لَهُ سَلْمَاتِي،
وَنَشَقَّ مِنْهَا مَرَّتَيْنِ. يَبْدُو أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ بِطَرِيقَةٍ جَيِّدَةٍ. نَشَقَّ مِنْهَا مَرَّةً
أُخْرَى ثُمَّ اسْتَعَاذَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَبَدَأَ يَتْلُو قِرْآنَهُ. كَانَ امْهَادِي
مَنْشَغَلًا فِي الْحَدِيثِ إِلَى عِبْدِهِ الْأَثِيرِ النَّانُومِي، يَسْأَلُهُ عَنِ آخِرِ أَخْبَارِ
ضَوَّالٍ مَا شِئْتَهُ.

عِنْدَمَا كَانُوا يُعَافِسُونَ السُّفُوحَ الرَّمْلِيَّةَ لِجِبَالِ «تِنْكَارَه»، صَاعِدِينَ
نَحْوَ الطَّرِيقِ الْجَبَلِيِّ، لِمَحْمَدِ امْبِيرِيك. كَانَ مُنْهَكًا بِالْجُوعِ وَالْعَطَشِ،
فَهُوَ مِنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ يَعِيشُ بَيْنَ الْجِبَالِ وَالْغَابَاتِ خَوْفًا مِنْ كَزَافِيئِهِ الَّذِي
لَمْ يَفْلِتْ مِنْ «كُومِيَاتِهِ» إِلَّا بِأَعْجُوبَةٍ. كَمَنْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى تَأْكُدَ أَنَّهُمْ
وَحْدَهُمْ. جَاءَ إِلَيْهِمْ يَطْلُبُ الْمَاءَ وَالطَّعَامَ، فَسَأَلَهُ لِمَرَابِطُ عَنِ اجْمَلَةِ،
فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَمْ يَرَهُ مِنْذُ بَدَأَ «كُومِيَاتُ» كَزَافِيئِهِ مَطَارِدَتَهُمْ. طَلَبَ مِنْهُ
لِمَرَابِطُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ، لَكِنَّهُ كَانَ خَائِفًا مِنْ أَنْ يَعْجِزُوا عَنْ حِمَايَتِهِ
مِنْ كَزَافِيئِهِ الْغَاضِبِ، أَعْطَوْهُ قَرْبَةً مِنَ الْمَاءِ وَشَيْئًا مِنَ التَّمْرِ وَالْفُسْتَقِ
وَالْقَدِيدِ، ثُمَّ ذَهَبَ كُلُّ إِلَى سَبِيلِهِ.

حين اشتدت ظلمة الليل، تسلل سلماتي خارج حي أهل بوظفيره. خلع ملابسه العادية ثم لبس أثواب المجنون التي أوصاه أول مرة أن يتخفى فيها حين يذهب للقائه. كان ذهنه مشغولاً بالجريمة التي ارتكبها ضد شيخه لمرابط، أحس بنقمة جارفة على الحياة والناس. تمنى لو قتل نفسه.

فَكَرَّ أَنْ لِمُرَابِطٍ سَيَكُونُ انْتِشَقُ مِنَ الصُّرَّةِ الْمَسْمُومَةِ قَبْلَ الْغُرُوبِ، هَذَا يَعْنِي أَنَّ السَّمَّ سَيَبْدَأُ مَفْعُولَهُ ضَحَى الْغَدِ، وَسَيَكُونُ قَدْ وَصَلَ الْحَيِّ لَتَوْهُ. تَخِيلَ السَّمَّ يَسْرِي رَوِيدًا فِي جَسَدِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْوَقُورِ، تَضَعْفُ قَوَاهُ تَدْرِيجِيًّا، يَسْخَنُ رَأْسُهُ ثُمَّ تَسْرِي الْحَرَارَةُ إِلَى جَسَدِهِ الطَّاهِرِ، يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُهُ وَعَوَادُهُ، مَشْدُوهِينَ لَا يَعْرِفُونَ عِلَّتَهُ، ثُمَّ يَسَلِّمُ الرُّوحَ لِبَارِئِهَا دُونَ أَنْ يُعْرِفَ سَبَبُ مَوْتِهِ.

جلس على صخرة في الظلام الدامس، وضع كفيه تحت ذقنه متحسراً، ثم ترك الدمع مسبلاً على لحيته. كان دقق الخواطر المؤلمة يغزوه رغماً عنه: «ماذا سأقول غداً لله، إذا جئته أحمل دم هذا الشيخ الرباني، وماذا سأقوله لنفسي بقية عمري، وماذا سأقوله لمئات الطلبة الذين أيتمتهم بهذا الفعل اللعين، سينزل خبر موت لمربط عليهم صاعقة. وماذا سأقول لبني عمه وبني عمي؛ أهل بوظفروم الذين كان لهم أبا وأماً وعالم شرع وشيخ سلوك. وماذا سأقول أنا لنفسي، أنا الذي كان يحنو علي ويحني، أنا الذي خاصم من أجلي ومن أجل أخي خطري قريبه وصديق طفولته امهادي. ويل لك يا سلماتي، سيظل هذا الشعور يمنعك الهناء، ليت أمك يا سلماتي لم تلدك».

همَّ بِأَنْ يَقْتَعِدَ ظَهَرَ جَمَلِهِ ثُمَّ يُغْدُّ خَلْفَهُمْ كَيْ يَدْرِكَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْتَشِقَ ذَلِكَ الْمَسْحُوقَ الْمَشْؤُومَ، لَكِنْ بَرِيقَ خَاتَمِ «أَشْيَاخِهِ» الْمُنْدَهَبِ كَانَ قَدْ

انطبع على بصيرته فأعماها، وقيّد إرادته فلم يعد يمتلك سوى مشاعر يائسة. وضع لثامه حتى لم يعد ظاهراً منه سوى عينيه، كان الظلام دامساً، ولكن التعليقات كانت هكذا، نهض ماشياً نحو مكان إقامة كُزافييه، بينما هو يتسلل بين الأشجار إذ أمسك به الجنود، عرفوا أنه صاحبهم قبل ليلتين، فجاؤوا به إليه. كان مضطجعا على سرير حديدي أمام خيمة وبرٍ صغيرة، يلاعب كلبه في الظلام، أشار لهم أن يذهبوا ويتركوه، انصرفوا جميعاً، وبقي المترجم كالعادة، نزع سَلْمَاتِي لثامه ثم جلس.

ظل كُزافييه يلاعب الكلب غير عابئ بالرجل الذي يجلس جوارَه، كان لا يزال ذاهلاً من هَوْلِ ما فعله بلمرابط، مضى وقت غير قليل وهو يفترش الأرض عند طرف السرير الذي يضطجع عليه كُزافييه وكتبه. وبعد ساعة نام الكلب وبقي كُزافييه يتأمل مهرجان النجوم في السماء الصافية، وكأن الجالس عند رأسه لا يستحق إلا فُضُولَ الوَقْتِ.

امتعض في داخله، ولكنه لم يُبدِ أيَّ تَدَمُّرٍ، فهو يعرف أن هذا الفرنسي النَّزَقُ يتلذذ بإهانتته، ويعرف أن طريق «أشياخت» البيضان تمر بالعبودية للفرنسيين، بل وتمرُّ بدم العلماء والصلحاء.

- ماذا فعلت برجل الدين العنيد؟

هكذا خاطبه كُزافييه وهو يرتب فراش نومه، دون أي تحية أو مقدمات.

لم يترك له الأسلوب المقتضب والنبرة الحاسمة التي خاطبه بها أيّ فرصة للاستفاضة في الحديث، قال والخزي يُجَلِّلُ وجهه:

- لقد وضعت له السُّمَّ في نَشُوقِهِ، ولا أراه إلا انتشقه هذا المساء، أظن أن أخبار مَوْتِهِ ستأتينا غدا.

- شكرا جزيلا، يمكنك أن تنصرف الآن، سأتصل بك عند اللزوم.

ولى ينهب خطوه في الظلام، يحترق قلبه حزنا على كبريائه المحطمة، ويعتصر قلبه ألما على شَيْخِهِ الذي بَاعَهُ بلا شيء، كان واضحا أن كَرَأْفِيَّه قد غَرَّرَ به، وأنه امتلكه بلا مقابل، وأَوْقَعَهُ في شِرَاكِه، فاستدرجه حتى ارتكب أفظع جريمة، ثم تركه لأحزانه دون أي مكافأة، فأين هذه المعاملة القاسية من الزعامة التي كان يَعِدُّه بها! لم يُفَقِّ إلا أمام خيمة صديقه في حَيِّ أهل بُوظْفِيرَه، ارتمت على السرير الخشبي المهترئ، ثم أسلم نفسه للأرق والأحزان.

وصل لِمَرَابِطُ وهو في الرَّمَقِ الأخير، وجهه المحمرّ وقسماته الشاحبة لا تنبئان بالخير، فالصداع والحُمَّى اللذان أصاباه فجأةً كانا حَادِيَيْنِ، لكنه كان صابرا رغم الألم. طلب أن ينزل عند خيمة سلماتي، الرجل الذي يجبه كثيرا ويقدره. حاول امهَادِي أن يذهب به إلى خيمته، ولكنه أَصَرَ على أن يُنَزَلَ حيث أراد، فنزل عند إرادته، وأقام معه عند خيمة غريمه سَلْمَاتِي مُكْرَهًا.

تخلَّق حوله رجال الحي وعلى وجوههم الحزن الفاجع، يتبادلون الحديث حول العلاج المناسب لحالته، وبين الحين والحين يلتفت أحدهم ليمسح دمعةً تحدرت على وجنته. كان جسده يرتجف من صَهْدِ الحُمَّى، يَعْضُ شَفْتَه السفلى من شدة الألم، ويحبس الأنين في صدره، متمثلا ما قرأه عن طاووس في أن الأنين شَكْوَى. وبدأت تتنابه إغماءات متقطعة، وأَحَسَّ بأنّ هذا مرض موته. كان يحاول الكلام بين كل إغماءتين موصيا الحيّ بالوحدة والتماسك. وكان في إِفَاقَاتِهِ المتقطعة تلك يشني على سَلْمَاتِي، مُشِيدًا بمواقفه النبيلة والشُّجَاعَةِ، وأنّه من الأفذاذ الذين

يسهرون على كرامة المجموعة، وتحركهم العصبية للنسب والدم، وأنّ
مما يميزه كُرهُهُ لِلنَّصَارَى وإبَاؤُهُ فِي التَّعَامَلِ مَعَهُمْ، مَعَ عَقْلِ لَا يَخْفَى
وحنكة في تدبير الأزمات.

كان آخر ما قاله، وهو يمسك بركبة تلميذه لِمُرُورِ الْجَالِسِ عِنْدَ
رَأْسِهِ، وَقَدْ بَدَأَتْ نَفْسُهُ تُقَعِّعُ:

- إِذَا مُتُّ فَلَا تَنْسُوا ابْنَ عَمِّكُمْ خَطْرِي، وَلَا تَنْسُوا مُحْظَرَتَكُمْ،
فَهِيَ الَّتِي تَحْفَظُ لَكُمْ هَذِهِ الْمَكَانَةَ السَّامِقَةَ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنْتَ يَا
لِمُرُورِ الْجَالِسِ أَعْطَيْتَ تِلْكَ الرِّسَالَةَ لِسَلْمَاتِي.

أخذهم الفضول لطبيعة هذه الرسالة التي يوصى بأن تعطى
لِسَلْمَاتِي. رَمَقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي اسْتِغْرَابٍ، وَلَكِنِ اللَّحِظَةُ كَانَتْ أَقْسَى
مِنَ الْاسْتِنْفَاسِ. تَشَهَّدَ كَثِيرًا ثُمَّ فَاضَتْ رُوحُهُ، فَضَجَّ الْحَيَّ بِالنَّحِيبِ.

احتشد الجميع حول خيمة سلماتي، يجللهم رداءً الفجيعة المرّة، لم
يُمرَّ عَلَى حَيٍّ أَهْلٍ بُوَطْرُومَهُ يَوْمَ أَقْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَمُوتَ لِمُرَابِطٍ
لَيْسَ حَدَثًا عَادِيًّا، إِنَّهُ فَجِيعَةٌ حَلَّتْ بِكُلِّ أُسْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ الْحَيِّ.

كان لمرابط يَسُدُّ اخْتِلَالَ مَا تَحْرِمُهُ صُرُوفُ الدَّهْرِ فِي كُلِّ بَيْتٍ مِنْ
بِيوتَاتِهِمْ، كَانَ أَبًا لِأَيَاتِمِهِمْ وَزَوْجًا لِأَرَامِلِهِمْ وَأَبْنًا لِثِكَالِهِمْ، وَلِذَلِكَ
تَسَاوَى النَّاسُ فِي النَّحِيبِ عَلَيْهِ، وَكَانَ فَوْقَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْجَامِعَ بَعْلَمَهُ
وَحِلْمَهُ وَعَقْلَهُ.

قَالَتْ إِحْدَى الْعَجَائِزِ وَهِيَ تَزْحَفُ عَلَى مَقْعَدِهَا نَحْوَ النَّسْوَةِ
الْمُتَحَلِّقَاتِ أَمَامَ الْخِيْمَةِ يَطْقَطْنَ فِي سُبُحَاتِهِنَّ، وَيَنْشِجْنَ أَسَى عَلَى مَوْتِهِ:

- رَحِمَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ بِمَوْتِهِ أَلَّا يَرْتَفِعَ الدُّعَاءُ عِنْدَ أَهْلِ
لِمُعِيدَلٍّ، وَلَوْ هَمَّ مُتُّنٌ بِالِدُعَاءِ عِنْدَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى لَقَرَعَتْ الْحَيَّ فَاجِعَةً
أَطْمً.

ضربتها عجوز أخرى بطرف سُبْحَتِهَا طالبةً منها أن تشغل بالتسييح،
فأمامهن سبعون ألف هَيْلَلَةٍ ينبغي أن يُكْمَلْنَها قبل أن يرحن المكان،
يسمى ذلك التقليد بـ«الفِدْيَة»، هو تقليد خاص بالنساء، يعتقدن أنهن
يفدين الميت من النار بإهداء ثوبها له.

كان سَلْمَاتِي يقطع وادي «البُطْنَان» باتجاه جبل «الدِّيْكَدِيْغْ»، يتفقى
من بعيد أثر أَجْمَلِه، بالتنسيق مع كُزَافِيِيَه الذي أكدت عيونه أنها لمحتة
فيه، طلب منه إذا لقيه أن يظهر له النَّصْح، وأن يستدرجه للنُّزُولِ
باتجاه «اَكْرِيْسِلْ»، فالطريق من هناك سالكةً باتجاه كهف «سِيْدِيَاتْ» في
أطراف «عَيْنُ قَرْبِه». وكان كُزَافِيِيَه قد كَمَنَ مع رجاله على أطراف المَعْبِرِ
الوحيد، الذي وصلو إليه فجرا متسللين عبر طريق آخر، ومدججين
بأسلحتهم المعبأة بالذخيرة.

تسلق سَلْمَاتِي الجبل مراوحا بين الزحف والمشي على أربع، فالمكان
وعر لا طريق سالكة به. جلس على طرف إحدى صخور السفح لاهثا
من شدة التعب، كان الوقت عصرا وأشعة الشمس تضيء أشجار
الوادي الواقع في السَّفْح، فتمنحها اخضرارا ساحرا، يزيده العشب
المتفتق للتَوَّهَاء. كاد ينسى تعبَه حين ثارت في وجدانه ذكريات الصِّبَا
والشباب في هذا المكان، تقافزت الصور في ذهنه تَقَافَزَ العصافير على
الأغصان اللدنة، ساحت به تلك الخواطر الندية لحظات، لكن شَبَحَ
لِمَرَابِطِ اعترض في ذاكرته كما يعترض الموج العاصف هدوء السفينة
الماخرة. واجتاحه فضول عارم لمعرفة أخباره. تَمَنَّى أنه لم يستعمل
النَّشُوقَ الْمَسْمُومَ، لكن ضميره كان يجاججه بعنف، كيف تكون أمينتك
صادقةً وأنت تُغْدِي السيرَ بحثا عن ابنِ عَمِّكَ أَجْمَلِه كي تسلّمه بالخدعة إلى
أعدائه! عاوده الطموح إلى «أشْيَاخِه» وتخيّل نفسه جالسا بين الفرنسيين

يَعُدُّ عَشُورَ قومه. التهبَ حماسه لإكمال مهمة نَصْبِ الفَخِّ لاجمّله.

حين استوى على السهل الجبلي لمحّه اجمّله فعرّفه، هرع إليه فرحاً، تعانقاً طويلاً وتبادلاً بعض الأخبار بسرعة. قال له سَلَمَاتِي إنه جاء متسللاً من أجله كي ينقذه، وإن كَزَافِيَّه قد ذهب يبحث عنه شمالاً. ونصحه - كما أمره كَزَافِيَّه - بالنزول من جبل «الديكديك» نحو «الكريسل»، والالتحاق بمقاومي «الكديه» هناك، قبل أن يؤوب كَزَافِيَّه من جهة الشمال. فشكره على النصيح، وحمله رسالةً لزوجته وأبنائه، ثم مضى يُعِدُّ السير باتجاه معبر «الديكديك»، حيث أحاط به كَزَافِيَّه وجنوده، وبعد اشتباك عنيف أمسكوا به، فقيدوه ونكّلوا به.

التقيا قبيل الفجر بقليل، كان كَزَافِيَّه مُغَضَّباً، وبّخه توبيخاً كثيراً، تفاجأ سَلَمَاتِي الذي كان يتوقع منه المكافأة، فهذه العملية الثانية التي يقوم بها لصالحه في أقلّ من أسبوع. يخلق كَزَافِيَّه عقدةً جديدة كلما توقع سَلَمَاتِي حلّ عقدةٍ سابقة، مثل روائيٍ يلعب بأبطال في خياله. سار أمامه بين الصخور، وتبعه سَلَمَاتِي مُنكّس الرأس والخاطر، هي حركة اعتيادية هدفها الترويض، وكسّر محالب هذا النسر الذي كان قبل فترة قليلة يُحلق في الأعلى، وكان مصدر إزعاج للسياسة الفرنسية منذ اختفى أخوه خَطْرِي.

جلس على صخرة مرتفعة ثم أمره بأن يجلس على الأرض، رفع وجهه ناظراً إليه حتى كاد يافوخه أن يلامس ظهره. بدا كَفَرُخ يَفْعَرُ فاهُ لتزقّه أمّه. نظر إليه كَزَافِيَّه وهو على تلك الهيئة الحقيرة فابتسم، ظنّها سَلَمَاتِي بداية الفتح.

- لماذا لم تخبرني أننا نواجه وحشاً من حديد لا رجلاً من لحمٍ ودم!

- كيف ذلك؟ قالها متجاهلاً ما يرمي إليه كَزَافِيَّه.

- هل تعلم أن هذا الوحش كَسَرَ أَذْرُعَ ثلاثةٍ من رجالي وهو جريح، فماذا سيفعل بنا لو كان سَوِيًّا! على كل حال، شكرالك على جهودك في خدمة الجمهورية الفرنسية الخالدة.

- تستحقون أكثر، مَسِيُو كُزَافِيِيَه.

جعل قبعته في يمينه ثم قال وهو يحركها:

- سأكافئك مكافأةً لم تكن تتوقعها.

ابتسم سَلْمَاتِي حتى بدت أسنانه في ضوء القمر الباهت، الذي لم يبق منه سوى خمس ليال، ثم قال وكأنه طفل حصل على مَرْغُوبِه:

- وما هي؟

- سأطلق لك سَرَاخَ أَخِيكَ خَطْرِي.

فغرفاه مندهشا، واهتزَّ بدنه كَمَنْ باغته رُعبٌ، ثم غَارَ الدم في وجهه فجأة، فليست هذه قطعاً أحسنُ مكافأةٍ ينتظرها. لم يَحْفَ ما حصل له على كُزَافِيِيَه. وقبل أن يواصل الحديث معه، أدَّى أَحَدُ الجُنْدِ التحية، ثم رماه بكلمات فرنسية مقتضبة، فمضى وتركه وحيدا يلوك دهشته.

استلم الرسالة التي جاء بها أحد الجنود من تَامُشِكُط، فتحها وبدأ يقرؤها بعينيه:

«حضرة الضابط الكريم كُزَافِيِيَه،

لقد تمكنت من إقناع السجين خَطْرِي بالعمل معنا، وقد تحققت بأكثر من وسيلة بأنه صادق في ما يقول، فقد مَلَّ السجن، وصار يتطلع إلى مستقبل سياسي واجتماعي هادئ، وقد أردت أن أحيطك علماً بهذه الأخبار بشكل مستعجل، لعلها تساعدك في تسيير الأزمة التي تعمل على تفكيك عُقْدِهَا منذ حادثة وادي «أَيَزَنْ».

الرفيق مُونِيِيَه أَلْبَرْتُ»

الفصل الثامن عشر

رجع كَزَافِيئِهِ مستعجلاً إلى «لِفُدِهِ»، بعد أن أرسل أَجْمَلَهُ إلى سجن تَامَشِكُطْ، صحبة أربعة من رِجَالِهِ، كانت المجموعات القبليّة المدعوة لـ«الْحَضْرَهُ» قد ملّت المقام هناك، وقد بدأ موسم الأمطار، وأي تأخير لهم عن المسارح الخصبية قد يدفعهم إلى التذمر.

كانت الصحراء قد بدأت تلبس حُلَّةَ عُرْسِهَا السنوي الخضراء، وبدا الأفق فَاتِنًا بِسُحْبِهِ البيضاء والزرقاء، وكان الوقت عصرا، سار خارج مكان إقامته يتأمل الظلال الطويلة، مستنشقا عَبَقَ الأرض الطهور المبللة. جلس على حافة أَصَاةٍ صخرية، يتابع حركة السَّرَاطِينِ والديدان الصغيرة وهي تلعب وسط الماء، كان منتشيا وقلقا في الوقت نفسه، سرح خياله في أحداث الأيام الأخيرة: «لقد حققتُ انتصارا كبيرا على المشاغبين، وأعدت للجمهوية الفرنسية هَيْبَتَهَا بين هؤلاء البداية، كما استطعت أن أستدرج ثعلب الصحراء سَلْمَاتِي إلى فِخَاخِي. بل أكثر من ذلك فقد نجحتُ في التخلص من رجل الدين العنيد بأيدي بني قومه، «امْرَأِبُطْ اَتْلَامِيدُ» الذي كان التخلص منه مطلبا ملحا للإدارة المركزية في «سِينلُوي»، وكذلك لمركز «اللِّيَوَانَهُ»، سأبعث لهم رسالةً

بذلك، لا شك في أنهم سيكافئوني. لكن تلك المجموعة الزاوية المعاندة لن تهدأ نائرتها وخيرة رجالها قيّد الاعتقال، فإذا كانوا قد نسوا خطري لغموض ظروف اختفائه، ولطول عهد غيابه، فإنّ جراح المعتقلين على خلفية أحداث وادي «أيزن» لا تزال طريّة، ومكان اعتقالهم معروف. لا بدّ من أن أمسح على أهل بوطرومه بيد حريريّة بعد اليد الحديدية التي أدبتهُم بها.»

استدار بالأضواء متتبعا الطائر الملوّن الذي ينقر جثث السراطين والدود على حوافّها. توقف فجأة وهو يهز رأسه: «الأمر بسيط للغاية، لا شك في أن امهادي أصبح مقتنعا بتقاسم «أشياخه» عملياً مع سلماتي، خاصة بعد تواصله الكثيف معنا بعد حادثة وادي «أيزن». سلماتي في الحقيقة هو رجل المرحلة، إنه يحمل ملامح الجيل الثاني من المتعاونين البيضان الذين تحدث عنهم الإستراتيجي العسكري لورين دامبير في منشور داخلي. إنه جيل يشترك مع الجيل الذي قبله في عراقه محتده في بني قومه، ولكنه لا يملك إباء الجيل الأوّل ونبله، فهو أكثر رشاقة في تنفيذ المهمات القدرّة. إن ما قام به سلماتي لصالحنا في غضون أسبوع، هو ما لم يستطع امهادي فعله على مدى سنتين، إنه مستعد ومتعاون، ولكنه بطيء وحذر، ثم إنه يتحرّج أحيانا من تنفيذ بعض المهمات، لذلك كنا حين نعجز عن إقناعه بالمهمة نكتفي باستكثامه، وقد كان متميزا في حفظ الأسرار.»

دنت الشمس للغروب فعاد إلى خيمته، كان الضابط المتدرب جالسا أمامها عاريا إلا من سراويل لا يتجاوز الثلث الأعلى من فخذه، كان يتأفّف من احتباس الرياح، أخبره كزافييه أن مناخ موسم الأمطار يكون دائما هكذا، وأن هذا الاحتباس يدل على أن سحبا ممطرة تتخلّق

في الجو. حَدَّثَهُ عن خبر تأجيل الوفد الفرنسي زيارته لتأمشكط هذا العام، وعن ضرورة عودتهم سريعا إلى هناك إذ ينبغي أن تتم محاكمة أولئك السجناء، وأنه قبل ذلك لا بد من أن ينهي إجراءات «الحصْرَه»، فيأخذ العُشورَ ويسمح للمجموعات المحصورة بالانطلاق نحو مسارحها الخصبية.

شرح له إجراءات استلام العُشورِ وحدد له طائفةً من «كُوميات» لمرافقته، وأسماء المجموعات التي سيتولى «تَعْشِيرها»، ثم أخبره بأن عليهم أن يبدؤوا عملهم من الغد، وأن يُنْهَوْهُ في يومين أو ثلاثة في أقصى الآجال، واختار كُزافييه أن تكون مجموعة أهل بوطرُومَه ضمن مجموعاته هو التي سيسرف على «تَعْشِيرها»، ثم أرسل اثنين من جنوده لدعوة سَلْمَاتِي وامْهَادِي.

رجع موكب التعزية الذي خرج باتجاه محظرة «الآنْحَاب» حيث تقيم أسرة لِمْرَابِطٍ وأخواته وبعض أقاربه، يُتِمَّت المحظرة، وبدأ بعض الطلاب يفكر في المغادرة. كان النَّاجِي قد أعلن من أول يوم أنه سيقوم هناك خَلْفًا لِلِمْرَابِطِ، لكن مَكَانَةَ لِمْرَابِطِ في النفوس ومَكَانَهُ في العلم لا يمكن أن يُخْلَفَا.

رجع الموكب إلى الحي الذي لا يزال مقبها في «لِفْدَه»، كان معهم لِمُرُورِخ الذي جاء يحمل معه الرسالة التي أوصاه لِمْرَابِطٍ لحظة احتضاره أن يعطيها لسَلْمَاتِي. وكان سَلْمَاتِي مُتَحَرِّقًا لاستلامها، فقد حَدَّثَهُ لِمْرَابِطٍ عن مضمونها في تلك الليلة التي كانت صبيحتها حادثة وادي «أَيَزَن». إنها وثيقة تثبت ضلوع امْهَادِي في اختفاء خَطْرِي، لكنه الآن لم يَعُدْ يريد لها ليعلمها للناس، بل أصبح يريد لها كي يخفيها إلى الأبد، فعلاقته الجديدة مع كُزافييه تلزمه ألا يفعل ما يثير المجتمع على

الفرنسيين، ودُّوهُ من تحقيق طموحه في «أشْيَاخه» لا تخدمه عودة أخيه خَطْرِي، ذلك الشاب الطموح ذو العلاقات الواسعة والتأثير الغريب. كان امْهَادِي أيضا يَحْتَرِّقُ فُضُولًا لمعرفة مضمون تلك الرسالة، فهو لم يسمع عنها قبل ذِكْرِ لِمَرَابِطُهَا في لحظاته الأخيرة، ولكنه يعرف أنها ستكون وثيقة مهمة، فِلِمَرَابِطُ لَا يَقْتَنِي تَوَافِهَ الْأَشْيَاءِ.

جاء رسولاها لِلْمُرُورِ فِي وقت واحد، كان هو الآخر يتطلع بشدة إلى معرفة تفاصيل تلك الرسالة اللُّغْزِ، التي سلمها له رجلٌ غريبٌ قبيل اختفاء خَطْرِي بأيام معدودة، ولا يزال يتذكر بكاء لِمَرَابِطُ وهو يستلمها منه في تلك الليلة الحزينة.

قرر أن يخبرهما بأنه لم يعثر عليها بين كتب الفقيد، وألا يذهب إلى أحدهما حتى لا يتهمه الآخر بأنه سَلَمَهَا لخصمه، لم يمض كثير من الوقت حتى جاءه سَلَمَاتِي، ولم ينتهيا من تبادل التحية حتى وقف امْهَادِي أمام الخيمة مُسَلِّمًا.

وصل اَجْمَلَه إلى تَامَشِكْطُ يَرْسُفُ فِي قيوده، رَمَوْا به مع لِمُعِيدَلٍ فِي زنزانه واحدة. وجد كل واحد منهما أنيسه، فَهَوَّنَ ذلك عليهما ظلام السجن وضيقه، كان اَجْمَلَه لا يزال يعاني من ألم ضيق القيود الحديدية المستديرة في رجليه ومعصميه. نبش لِمُعِيدَلٍ فِي تراب الزنزانه ثم استخراج بعض الأدوات الحديدية، التي استطاع أن يجلبها بواسطة الجاذب المغناطيسي، واستطاع أن يقطع بها قيوده بطريقة لا يفطن لها السجنانون، فيخلعها إذا كان وحده، وإذا سمع حركة الباب أعادها فلم يفطن السجنان لشيء. بدأ يفعل الطريقة نفسها بقيود اَجْمَلَه، الذي مازحه قائلاً:

- أنت «امْعَلَم» حتى في السجن.

ضحك لِمُعَيِّدَل، وتوقف عن العمل مُهَدِّدًا اَجْمَلَه بترك قيد الرجل اليسرى دون توسيع:

- لو لم أكن «امْعَلَم» لبقيت هنا تتن من ضيق القيد، فأنا من أنقذك.

مضى وقت وهما يتحدثان عما جرى لكل واحد منهما وكيفية اعتقاله، وأخبره لِمُعَيِّدَل بأنه تأكد أن خَطْرِي مسجونٌ في بئر داخل المركز، ولكنهم يشددون عليه الرقابة حسب ما سمع من حراس السجن، كما أخبره بأنه أرسل إليه رسالة مع أحد الحراس، وما زال ينتظر رده.

قال له اَجْمَلَه وكأنه أَحَسَّ بتناقض في كلامه:

- كيف أرسلت إليه رسالة وهو مسجونٌ في بئر أيها الكذَّاب الأَشْرُ؟

ضحك لِمُعَيِّدَل حتى غرقت عيناه في الدموع. مسحها ثم قال:

- أفنعت الحارس الغبيّ بأنه إذا أراد أن يظل سَجِينُهُ أليفاً لا يفكر في الهرب، أن يقول كلما دخل عليه، كلمة (كِنْعَيْدَك)³، وأن هذا اسم جَنِّي الزنازين، وقد بدأ ينطقها كلما فتح عني. سترى ذلك حين يأتي بعد الظهر ليفتح عنا، ولكني لم أعرف بعد هل ينطقها عند غيري كما أوصيته.

قهقهه اَجْمَلَه حتى ألمه بطنه:

- شيطان والله أنت، سيضيع عقل الحارس المسكين بين داهيتين.

فُتِحَ باب الزنازة عن الحارس وهو يقول مبتسماً:

3- هي مقلوب (لِمُعَيِّدَل) في الأبتشية، فاللام يقابله الكاف، والميم تقابلها النون، والياء لا مقابل لها تكتب بنفسها، والذال يقابله الذال، وهكذا.

- كِنْعَيْدَكَ، الْحَكَّازُ (لِعَيْدَلٍ، حَطْرِي)

قال له لِعَيْدَلٍ بذكاء، وقد فهم معنى كلمة «الحكَّاز»:

- ما شاء الله، لقد أصبحت ماهرا في أسماء جنِّ الزنازين، سأعطيك اسما آخر أقوى منهما.

- وما هو أيها لِمَعْلَمَ اللطيف؟

- شَمَوَزَتْ⁴ (سَنَهَرَبْ).

طرب الحارس لهذا الاسم الجديد، فقد بدا على لسانه أسهل من الأسماء السابقة، وضع لهما الطعام وبعض الماء، ثم أغلق الباب وسمعاه وهو يكرره: «شَمَوَزَتْ، شَمَوَزَتْ، شَمَوَزَتْ».

حين انتصف الليل وسكنت حركة الناس والماشية، أخرج لِمَمْرُوحَ الرسالة اللُّغَزَى؛ مربع جلدي صغير لا يكاد يظهر في الكَفِّ، قَطَعَ السيورَ المُخَاطَ بها، أَلْفَى وسطه قُصَاصَةً ورقِّ صفراءَ، بها ثلاثة أسطر مكتوبة بمداد تقليدي، بدأ يقرؤها في صمت: «حصلنا على رسالة يوافق فيها النصرارى الكَفَّار في «اللِّيَوَانَه» على طلب تقدم به كَزَافِيَه رئيس مركز تَامِشِكُّط. يطلب كَزَافِيَه في رسالته التي حصلنا على جوابها بمنحه الإذن بقتلك أنتَ وبُوتِيَّب لما تمثلاله من إزعاج لسياساته الاستعمارية، ولما تقومان به من تحريض، ويبدو أن امهَّادي وأربعة من شيوخ المجموعات وافقوا على مقترحه. فانظر ماذا أنت فاعله». تحت هذه الأسطر كتبت كلمة: (المجاهدون).

لم يذق النوم ليلته تلك، بات يُقَلِّبُ فِكْرَهُ في مضمون تلك الرسالة الغريبة، وفي السبب الذي جعل لِمَمْرَابُط لا يرمي بها في وجه امهَّادي

4- تعني باللغة المشفرة: (سهنرب)، فالشين مقابل السين، والميم مقابل النون، والواو مقابل الهاء، والزاي مقابل الراء، والتاء مقابل الباء.

فيفضحه، هو يعرف أنه سيكون قد حَدَّثَهُ عن مضمونها أو أشار إليه، وكيف سيفعل هو بها الآن، لقد أصبح في ورطة، ندم على فتحها بل على استلامها من ذلك الرجل الغريب أول مرة. تمنى لو أعطاها إلى سَلْمَاتِي وتركه يتحمل مسؤولية التعامل معها، فَكَّرَ في أن يُمَرِّقَهَا وينساها كما لو أنها لم تصل إلى يده، لكنها بدت له فكرةً خائنةً، كيف يدفن مصير خَطْرِي بهذه الطريقة، وكيف سينظر في عيني العالِيَه وقد أطفأ البصيص الذي انفتح في عَتْمَةِ مأساة أبيها. تراجع عن فكرة التمزيق، فَكَّرَ أيضا في أن يجمع رجالَ الحَيِّ ويقراها عليهم، لكنَّ نَحْيَل ما استثيره من بلابل جعله يتراجع عن هذا القرار، أخيرا قرر أن يُسَلِّمَهَا لِتَرْبِه فَالُ زوجة خَطْرِي، فهي أول من تعنيه هذه الوثيقة.

انفلق الصبح في شِعْبِ «صِيْرَاطَه»، تسللت أوائل خيوطه فبدا جبل «التِيْدَاتِن» أخضر معشوشبا، تظهر من ورائه التلال البيض، وبينهما تترامى وديان «أُمُ مَغَيْرِيف» و«أشْبَار» و«اللَّقْفَه»، ومجاري السيول الدافقة من «تِنَكَارَه» تُوَاصِلُ هديرها منذ هزيع البارحة.

مسح امبيريك عينيه المحمرتين، لم يَطْعَمَ النومَ ليلته تلك، فقد بات مستيقظا لا يحجبه شيء عن المطر الهاطل، كانت تلك ليلته الرابعة في ذلك المكان، وليلته العاشرة وهو يتسكع بحثا عن ملجأ ينجيه من بطش كَرَأْفِيَه. ألقى نظرة على مَبَاهِج الطبيعة أمامه، فتحركت في نفسه أشجان الأمس الوديع، فله في كل شبر من هذه الأرض ذكرى حُلُوَّةٍ أو مُرَّةٍ، كل ذلك بدا الآن سعادة قصوى لو رجع إليه، حتى ذكريات العمل الشاق والإهانات اللفظية، والاحتقار الذي يلმسه من الساكنة. حدَّق في المشاهد الخُضِرَ أمامه، أخذ حَرَبَتُهُ الحَادَّةَ التي عملها من خشب الشَّفَلَح، أحاطها بقبضتي يَدَيْهِ ثم وضع ذقنه فوقهما، ثم استسلم

لشجونه الحزينة: «أنا الآن ضائع بلا وجهة ولا أمل، كُرَّافِيَّه يطاردي بعدما فعلتُ بجنوده في حادثة وادي «أَيَزَن»، ورجال أهل بُوطَرُوْمَه الذين قاتلتُ من أجلهم خَدْلُونِي، حتى لِمَرَابِطُ على جلالته وفضله لم يعرض علي الأَمَانُ لما لقيني هنا قبل يومين، بل اكتفى بطلب الذهاب معه، وبتزويدي ببعض الطعام والماء. لكن لعله لا يملك سوى ذلك، لقد سَأَحْتَهُ، فَلِمَرَابِطُ رجلٌ نبيلٌ وصادقٌ، لكن ما يحيرني هو سَلْمَاتِي ذلك الرَّجُلُ الذي كان يريدني أن أَقْتَلَ له امهَادِي، والذي خَدَمْتُهُ قبل وبعد اختفاء أخيه خَطْرِي، والذي عَبَّرَ لي أكثر من مرة أنه يعتبرني بمثابة ابنه. لماذا يتركني أتسكع بين الجبال، أبيت بين الأفاعي والضَّبَاعِ، ما أقسى هؤلاء البيضان، ألا يدركون أنه ليست لي في هذه الأرض رَحِمٌ سواهم، أليست لهم قلوب فيرحموا ضياع هذا الغريب الذي خَدَمْتَهُمُ ودافع عنهم، لو كنت من صميمهم لما تركوني لهذا الضياع».

سمع حركةً خلفه فالتفت، نِمْرٌ كَاسِرٌ يَنْسَلُّ من تحت الصخرة القريبة منه، تَمَدَّدَ نَاعِسًا وهز رأسه فتطاير بعض الشعر الشوكي من شفتيه وخيشومه، مسح خديه بلسانه من الجوع، ثم هرول نحوه. قَرَفَصَ امبِيرِيكَ ينتظر اقترابه، وما إن صار منه على مسافة أربعة أمتار حتى رَمَاهُ بالحربة فاستقرت في جبهته، زجر قافزا يَتَخَمَّطُ في دمه، شَخَرَ طويلاً ثم هَدَأَ مَيَّتًا. نزع الحربة من جبهته ثم مسحها على بعض الأعصان.

أحس بنشوة عارمة، وقَدَّرَ فروسيته الفريدة. تراءت في خاطره تلك المَأْنَدِيغِيَّةُ الحسناء، لا تطوفه خواطرها إلا عند نشوة الفرح أو تبريجه الأسي، كأن صخرة الحب راسية في أعماق النفوس لا تحركها إلا الأمواج العاتية.

أدخل الحَرْبَةَ في عُرَى قَرْبَتِهِ الصَّغِيرَةِ ووضَعها على منكبِهِ، ثم نزل من الصَّخُورِ بِاتِّجَاهِ مَحْظَرَةِ «الْأَنْحَابِ» لعلَّهُ يجد ما يمتطيهِ نحو «تَأْمُورِ تِ لِكُورٍ» حيث تقيم تلك السُوداءُ الفاتنة، وحيث يمكنه أن يعيش بعيداً عن سُلْطَةِ كُزَّافِييَّةِ، فقد عرف أن لا أحد يهتم لمصيره في هذه الأرض. وجد في طريقه فرسين لِلْمَرَابِطِ ترعيان في سفح جبل «التَّيْدَاتِنِ»، ائْتَمَطَى صهوةً إحداهما، ثم علَّقَ قَرْبَتَهُ في عنق الأخرى لعلهم يعرفونها إذا رجعت إليهم، ثم انطلق كالسهم لا يلوي على شيء.

بدأ الحي يستعدُّ لمجيء كُزَّافِييَّةِ وجنوده، كان قد كلف سَلْمَاتِي وَاْمَهَادِي في اجتماع سابق أن يهيئا الأجواءَ لزيارته، إذ سيعزي أهل الحَيِّ في وفاة لِمَرَابِطِ، ويأخذ العُشُورَ ويعلن بعض القوانين الجديدة. اتفق سَلْمَاتِي وَاْمَهَادِي أن يَبْنِيَا خيامًا خاصة لاستقباله خارج الحَيِّ، بعد أن لم يقبل أحد منهما أن ينال الآخر شرفَ استضافة كُزَّافِييَّةِ وموكبه.

صُرِبَتْ الخيام على مسافة غير بعيدة من الحي، ووضعت فيها منصة خشبية خاصة بكُزَّافِييَّةِ واثنين من حراسه، وتوافد إليها الناس، الرجال والنساء والأطفال. مرَّ موكبُهُ يشق خيام الحي باتجاه الخيام المعدة للاستقبال، يلبس زِيَّةَ العسكري، وتلتمع النجوم على منكبِهِ، كان يركب فرسًا بيضاءً مُطَهَّمَةً، يرفرف فوقها علم فرنسا مركوزا في حافة السرج، بينما يحيط به سَلْمَاتِي وَاْمَهَادِي، يمتطي كل واحد منهما صهوة جواده.

يلبس اْمَهَادِي جُبَّةً «أشياخه» يلتمع على صدرها خاتمها النحاسي الأصفر، بينما يلبس سَلْمَاتِي فضفاضتين بيضاء وزرقاء، كان واضحاً أنه قد أصبح مقرباً جداً منه، وخلف الثلاثة يسير الجنود والأعوان في انتظام مقصود لِبَثِّ الهيبة في نفوس العوام.

تابعت تَرْبَه فَالَ مسير الموكب كما تتابع الأم جنازةً وَحِيدَهَا، لم تكن ترى في تلك الأبهةِ وذلك الحفل الحاشد سوى مراسيمَ لدفنِ قضيَّةِ زوجها خَطْرِي. فأخوها أمهَادِي هو من سَلَّمَهُ للنصارى، وأخوه سلماتي باع قضيَّته بثمانِ بخس؛ مكانةً ومنصبٍ لدى حاكم تَامَشِكُط، ولِمَرَابِطِ الذي كانوا يهابونه أخذَه الموت.

أظلمت الدنيا في عينيها، ومات الأمل الذي كانت تعلق به نفسها كلما استبدت بها الأحزان، ارتدت أحسن ثيابها ثم خرجت إلى مكان الحشد، لم تستقرَّ في مكان واحد مثل بقية النسوة، بل ظلت تدور بالمكان، تجلس هنا لحظات ثم تقف مُتَلَفِّتَةً حولها بعينين زائغتين. بعض النسوة العاقلات لاحظن حالة التوتر التي تنتابها، همست إحداهن للأخرى:

- أخشى أن نُجَنَّ تَرْبَه فَالَ.

أجابتها الأخرى، وهي تَسْتَرْقُ النَّظْرَ إلى عينيها الملتمعتين:

- صحيحٌ للأسف، في عينيها تتقافز الشياطين.

كان الجمهور منشغلاً بالتحديق في هذا الكائن الأبيض ذي اللباس الغريب الواقف أمامهم، وكانت لغته المبهمة التي يتحدث بها مثيرةً للفضول، يتغامزون مشيرين إلى قُبَعَتِهِ وإلى النجوم الملتمة على منكبيه، ويمسحون بنظراتهم وجوه وأزياء الجنود المحيطين به. لِمَرَوْرُحٍ وحده كان منزعجا من المشهد، مُسْتَعْرِبًا كيف تحول حَيُّ أهل بُوَطْرُومَه بين عشية وضحاها من مَعْقِلٍ للمقاومة إلى منبر لإعلان السياسات الفرنسية.

وقف كُزَافِيَّةٌ على المنصة وبدأ يهدر بلغة فرنسية صعبة، كان المترجم المحترف ينقلها فوراً إلى لهجة حسانية جزلة: «أعزّيكم وأصلي

للرب من أجل الشيخ الذي مات؛ لِمَرَابِطُ، أعرف قدر الفاجعة، هي فاجعتنا جميعا، لقد أرسلت رسالة بهذا الخبر الحزين إلى إدارتنا في «الليوانة»، وستبعث ببعض الهدايا لذويه ومحظرته. ستطبق العدالة في المجرمين الذين اعتدوا على رجالنا، وسينالون جزاءهم على ما فعلوه. جنود الجمهورية الفرنسية جاؤوا هنا لتوفير الأمن ونشر السلام. الجنود سيقون معكم لاستلام العُشور، سَلْمَاتِي سيساعد امهّادي في جمعها، وبعد تسليمها يمكنكم أن تذهبوا إلى المسارح الخصبية آمنين، ترعاكم القوة العسكرية الفرنسية وتحميكم من اللصوص والناهبين. أنا سأذهب بعد غد إلى محظرة «الأنحاب» لأداء واجب التعزية لذوي الفقيد، ولتفقد أحوالها بعد موت لِمَرَابِطُ. سَلْمَاتِي وامهّادي سيلتحقان بي فور انتهاء مهمّتهما في جمع العُشور».

قبل أن يجلس رمق امرأة جميلة تشقّ الجمهور متجهةً نحوه. حاول الجنود منعها ولكنه أمرهم أن يتركوها تصعد المنصة. وقفت إلى جنبه، وقالت لمرجمه وهي تتحب جهرا:

- اسأله ماذا فعل بزوجي خَطْرِي؟

كان مشهدا مثيرا ومخزنا، همس بعضهم لبعض أن تَرَبَه قَالَ قد جُنَّتْ، فكيف تجترئ امرأة على الوقوف أمام أبناء عمها، وكيف تصل بها الوقاحة إلى السؤال جهرا عن زوجها.

قال لها كَرَأْفِيَّه مهْدوء وهو يمسح قامتها الفارعة بزرقه عينيه:

- لقد بَرَأْتُهُ المحكّمه، وسيأتيك في أقرب الآجال.

انطلقت الزغاريد ممزجة بالحمد والشكر لله، والثناء على كَرَأْفِيَّه الفرنسي الودود الذي التقوا به، المختلف تماما عن كَرَأْفِيَّه العبوس الذي كانوا يسمعون عنه.

رفعت تَرْبَهُ فَأَلَّ يَدَهَا طالبة من الجمهور أن ينصت لها، ثم بدأت
تقرأ الرسالة التي أعطها لِمَرْوَرَحَ، كانت صاعقةً مدمرةً، لقد
انكشف المستور، وفضحت تَرْبَهُ فَأَلَّ أَخاها في الملاء. نزلت عن المنصة
ثم خلعت ثيابها، وبدأت ترقص وتصرخ، لقد جُنَّتْ فِعْلاً. هرع إليها
الناس يرمون عليها قطع الثياب ويمسكونها عن الرقص، صرخت
بنتها العالِيَه التي كانت تقف مع صويمجابتها في أطراف الحَشْدِ، ثم أَكَبَّتْ
عليها باكيةً، وهي تكرر:

- أناشذك الله، ازْتَدِي ثِيَابِكَ يَا أُمَّاهُ.

الفصل التاسع عشر

استطاع لمُعَيِّدَل أن يعرف عن طريق تلك اللغة المشفرة مكان سجن خَطْرِي، كما استطاع بأدواته التي يخبئها في أرضية الزنزانة أن يحفر مَمْرًا دائريًا في الباب الخشبي، أوغل فيه حتى أصبح يمكن أن يسقط بضربة، لكن خَطْرِي انقطع عن التواصل معه خوفا من أن تكون تلك المراسلات فَحًّا ينصبه له الفرنسيون، خاصة أنه قد اتفق معهم على مسألتهم والعمل معهم.

اتفق لمُعَيِّدَل مع اَجْمَلَه على أن يخرج في هزيع الليل، وأن يستخرجا خَطْرِي من سجنه. لم يكن مستقيظا في تلك الجهة من المركز سوى رجلين، حارس الزنزانة والجندي المداوم عند البوابة الرئيسية. ضرب اَجْمَلَه الممرَّ المحفورَ في الباب فسقط. خرجا زحفا، قفز الحارس نحوهما فزعا، ضغطه اَجْمَلَه من عُنُقِه فسقط مَغْشِيًّا عليه، تَسَلَّلَا نحو الجهة التي يظنَّان أن خَطْرِي مسجون فيها، لم يجداه. بسرعة، تسلقا الشجرة التي تقع في طرف سياج الأسلاك الشائكة الدائر بالمركز، ثم قفزا منها خارج السور، أفاق الحارس وأبلغ إدارة المركز، فبدأ الاستنفار. كان خَطْرِي قد استدعا كُرَافِيَّه لِللْحَاقِ به في مقر إقامته بمنطقة

«لِفْدَه» كي يُوقَّع معه اتفاق المهادنة، ويناقشا كيف يستطيع كل واحد منهما أن يخدم الآخر كصديقين. كان بين يديه المِلْفُ الضخْمُ الذي أعدته المباحث العسكرية في المركز عن خَطْرِي، فيه تاريخُه والتهمُ الموجهة إليه، واعترافاته أثناء التحقيق، والوعودُ التي قَدَّمَهَا من أجل أن يطلق سراحه.

حين سأله عما يريدُه أجابه دون مواربة:

- أريد منك أن تجعلني «شيخ» مجموعة أهلي، أهل بُوطرُومَه.

- حسنا، وماذا ستفعل من أجلنا مقابل ذلك؟

- سأقْبَعُ لِمَرَابِطُ بأن يترك التحريضَ ضدَّكم.

فتح طرف شفته العليا قليلا، فبدت نأبه وإحدى أضراسه، لم يكن مبتسما، ولم يكن غير مبتسم، كان بين هذا وذاك:

- لمرابط مات قبل أيام.

وقف خَطْرِي من هول المفاجأة، ثم قال حين تاب إليه عقله:

- رحمه الله، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إذن لم يعد هناك ما تخافونه، فأى خدمة تريدها يا مَسِيُو كَزَافِيِيَه؟

يعرف كَزَافِيِيَه أنه بقتله لِلْمَرَابِطُ قتل روح المقاومة في ذلك الحَيِّ، بل في عموم منطقة أَفَلَه، وأن خَطْرِي فَقَدَ بموته السَّنَدَ النفسي والاجتماعي لأي تمرد، ولكنه أيضا يعرف أنه يمتلك مؤهلات قيادية وحيوية خارقة، ولن يقبل أن يكون رجلا عاديا في مجتمعه. لا بُدَّ إذن من منحه مكانة ترضي غُرُورَه، ومنصبًا يصرف فيه طاقته الهائلة، وقف يقلب صفحات الملف الورقي الكبير الذي يحملة في يديه، لمحت عينه اتهامَ خَطْرِي بالتنسيق مع مقاومي «الكدييه»، قال له:

- إننا نسعى لإطلاق حوار مع مقاومي «الكديّة» من أجل إعطائهم الأمان، مقابل تسليمهم الأسلحة وتركهم مهاجرتنا، وسأجعلك وسيطا حصريا بيننا وبينهم.

استحسن خَطْرِي الفكرة، اتفقا على كل شيء، استكتمه على المهمة التي لم يعلن عنها بعد، أخبره بأنه أعلم الحَيِّ قبل أسبوع بأنه سيطلق سراجه، وأنهم يرتقبون قدومه كل حين. وأخبره أيضا بأنهم رحلوا منذ أيام باتجاه وادي الحطب، وأنه سيزور محظرة «الأنحَاب» بعد أيام لأداء واجب التعزية لأهلها، وتقديم بعض الهدايا التي ستصله قريبا من «الليوانة»، أعطاه فرسا وملابس تقليدية ثم أذن له بالانصراف.

بات خَطْرِي ليلته تلك في إقامة كَزَافِييَه، وعند انصداع الفجر امتطى صهوة الفرس، فانطلقت تركض باتجاه وادي الحطب. تحيّل لحظة دخوله الحَيِّ، وأصوات الزغاريد المنبعثة من حناجر النسوة، وزوجته تَرَبَه فَال التي ستتظاهر -حسب التقاليد- بأنها غير مهتمة، وقلبا الخافق بالفرحة، وفيض المشاعر الذي ستغمره به حين يَبْقِيَانِ وحيدين في هدأة الليل. تحيّل بنته العالِيَه وابنه سَلَمَاتِي الصغير، وهما يمسكان بقوائم الفرس، الرجال المتوافدين على خيمته، ألسنتهم اللاهجة بالحمد والثناء، لكن لمرابط لن يكون هناك، تذكر ذلك فاجتاحه حزن عميق، اغرورقت عيناه حتى لم يَعدْ يرى شيئا، مسحها بطرف لثامه، ثم غمز فرسه مُسْتَحِثًّا فَمَدَّتْ قوائمها سابحةً في سهل منبسط.

حين كان يُعَافِسُ مَصَاعِدَ هَضْبَةِ «جَهْلِبَه» سمع صوتا يناديه من بعيد:

- يااا خَطْرِي.

التفت حواليه فلم ير شيئاً، استعاذ من الشياطين، فذلك المكان به قرية للجن كما يَشِيْعُ بين الناس، لكن ما يزال الصوت يناديه، وقد صار أقرب:

- يا ااا خَطْرِي.

التفت حواليه مرة أخرى، رأى حركة إنسان تحجبه أغصان الشجر المتداخلة. لم يلبث حتى بدأ له، إنه امْبَيْرِيكُ عبْدُهُ الأَثِيرُ، بل ابْنُهُ الذي لم يخرج من صُلْبِهِ، عطف الفرس نحوه، نزل منها وتعانق معه كثيراً، إنه أوّل شخص من أهله يلتقي به منذ خَطَفِ النَّصَارَى له. نزلا تحت شجرة طَلْحٍ ظَلِيلَةٍ، كانت لديه مواعينُ شاي وبعْضُ الفُسْتَقِ والتَّمْرِ. أثناء الشاي قَصَّ عليه امْبَيْرِيكُ بدقة عالية كل ما جرى بعده في الحيّ، إلا حادثة وادي «أَيْرِن» كتمها عنه. لاحظ خَطْرِي أن العبد متوتراً وغير مطمئن، لكنه لم يأبه لذلك، فقد يكون ذلك بسبب الفرحه المفاجئة بلقائه.

حين أكمل الشاي، ودَّعَهُ امْبَيْرِيكُ، فسأله مستغرباً:

- إلى أين أنت ذاهب؟ لعلك تبحث عن ضوَالٍ من ماشيتنا؟
نظر إليه ثم أكب يُقَبِّلُ رجليه باكياً، زاد استغراب خَطْرِي من نشيج العبد المفاجئ، فقرَّضَ ثم رفع رأسه بكلتا يديه، وقال له بصوت حزين:

- مالك يا امْبَيْرِيكُ؟ اشْرَحْ لي مُشْكِلَتَكَ.

قَصَّ عليه حادثة وادي «أَيْرِن»، ودوره هو فيها، وما فعله بجنود وأعوان كُزَافِييَهُ، ومطاردته له، وأنه لا يزال تائها في الأرض يبحث عن مكان ينجيه من بَطْشِ النَّصْرَانِي الغاضب.

- لا بدّ من أن تذهب معي، ولن يَمَسَّكَ مَكْرُوهٌ، فأنت عبدي

وفي حمايتي، وكزأفِيه أَصبح صديقي، فلا تقلق يا امْبِرِيك، إنه سَيَعْفُو عنك، خاصة أنك في النهاية عَبْدٌ مأمور، تفعل بالإكراه ما لا ترضى عنه.

أحسّ بالأمان في كلماته، فهو يعرف أن خَطْرِي رجل يتحمّل مسؤولية ما يقوله، لكنّ شوقه إلى معشوقته جعل قلبه متّجهاً جَنُوبًا دائماً، حيث «تَامُورِتْ لِكُورْ»، وحيث تنفياً تلك الحورية السوداء ظلال الأشجار راعيةً غنم أسيادها. فقرر أن يصارحه:

- سيدي خَطْرِي، لقد أحسستُ في كلماتك الصدق والأمان، وأعلم أنك ستفديني بنفسك حتى تَفِيَّ بوعدك، ولكن لدي طلب آخر، قد يفاجئك ولكنني أعرف أن رحمتك بعبدك ستجعلك تفعله. وقف ممسكا بيدي امْبِرِيك فوقف معه، حين أصبحتا متقابلين قال له بحنان:

- وما هو أيها العبدُ العجيب؟

- أريدك أن تعْتَقِنِي الآن، فلدي معشوقَةٌ في «تَامُورِتْ لِكُورْ»، لم يَعدْ قلبي قادراً على مفارقتها، أودّ أن أذهب إليها فأخطبها عند أسيادها، فإذا أعطوها لي فذلك المنى، وإذا لم يعطوها فسأهدي نفسي عبداً لسيدها، فحسبي أن أمتع ناظري منها كل صباح، وأن أستنشق أريج الهواء الذي تتنفس فيه.

كان يحدّق فيه بعينين مفعمتين دهشةً. قال له:

- هل لك في ما هو خير من ذلك؟ تذهب معي الآن ثم بعد أسبوع أو أسبوعين آخذ لك الأمان من عند كزأفِيه، ونذهب معا إليها، وأشترىها من سيدها، وأزوّجكها، وتبقى معي، فأنت لي بمثابة الابن الذي لا أحتمل فراقه.

أَكَبَّ عَلَيْهِ يَلْثِمُ قَدَمِيهِ ثُمَّ رَكِبَ خَلْفَهُ، وَأَوْغَلَ بِاتِّجَاهِ وَادِي الْحَطَبِ.
 دَخَلَ الْحَيَّ بَعْدَ الْعَصْرِ، كَانَ الرِّجَالُ قَدْ انْفَتَلُوا لِلتَّوَمِنِ مِنَ الصَّلَاةِ،
 تَعَالَتِ الزَّغَارِيدُ وَهَرَعَ الْأَطْفَالُ وَالْفَتَيَاتُ نَحْوَهُمَا، خَرَجَتِ الْعَالِيَةُ
 تَجَرُّ مَلْحَفَتَهَا السُّودَاءَ وَخَلْفَهَا أُخُوَهَا. مَا إِنْ لَمِحَهَا حَتَّى نَبِيَّ التَّقَالِيدِ
 الَّتِي تُلْزِمُهُ بِالتَّوَقُّرِ فِي اسْتِقْبَالِ أَبْنَائِهِ. نَزَلَ عَنِ الْفَرَسِ وَحَمَلَ طِفْلَهُ بَيْنَ
 يَدَيْهِ، بَيْنَمَا ضَمَّ الْعَالِيَةُ إِلَى صَدْرِهِ طَوِيلًا. كَانَتْ تَنْشِجُ وَتَمْسَحُ الدَّمَعَ
 وَالْمَخَاطَ فِي أَطْرَافِ مَلْحَفَتِهَا. تَعَانَقَ مَعَهُ سَلْمَاتِي بِحَرَارَةٍ. وَصَافِحَهُ
 بَعْضُ الرِّجَالِ، الَّذِينَ كَانُوا يَلْهَجُونَ بِالْحَمْدِ، وَيَكْرُرُونَ «الْحَمْدُ لِلَّهِ
 عَلَى عَوْدَتِكَ سَالِمًا وَغَانِمًا»، لَاحِظَ أَنَّهُمْ يَقُودُونَ فَرَسَهُ نَحْوَ خِيْمَةِ أَهْلِ
 أَحْمَدُونَا، فَعَرَفَ أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا مَّا، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُمْ.

كَانَتْ تَرْبَهُ فَالَ تَرَسُفُ فِي قِيُودِهَا مَجْنُونَةٌ، لَا تَسْكُتُ عَنِ الْهَذْيَانِ
 إِلَّا سَاعَةً يَغْلِبُهَا النَّوْمُ الَّذِي لَا تَسْتَسَلِمُ لَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْهَكَهَا الشُّهَادُ.
 أَسْبُوعٌ مِنَ الْجُنُونِ وَالْهَذْيَانِ وَالْقِيُودِ الْحَدِيدِيَّةِ غَيْرَ مَلَاحِظًا كَثِيرًا. ذَهَبَتْ
 نَضْرَةُ الْوَجْهِ الْوَسِيمِ، وَتَحَوَّلَتِ الْبَسْمَةُ الْمَشْرُوقَةُ إِلَى بَسْمَةٍ لَا رُؤَاةَ لَهَا وَلَا
 رُوحَ فِيهَا، أَمَّا صَمْتُهَا الْبَهِيئُ وَكَلِمَاتُهَا الْمَوْزُونَةُ فَقَدْ تَحَوَّلَتْ هَذْيَانًا لَا
 يَنْقَطِعُ.

خَرَجَ امْبِيرِيكُ إِلَى خِيْمَةِ خَطْرِيِ الَّتِي عَرَفَهَا مِنْ خِلَالِ الْإِمَاءِ
 الْجَالِسَاتِ أَمَامَهَا. لَمْ يَصْدُقْ عَيْنِيهِ وَهُوَ يَرَى تَرْبَهُ فَالَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ،
 كَادَ يُجِنُّ هُوَ الْآخِرَ لِقَسْوَةِ الْمَشْهَدِ، تَخِيلَ نَفْسَهُ فِي حُلْمٍ، حَرَّكَ رِجْلَهُ
 فِعْلًا لَعَلَّهُ يَسْتَفِيقُ مِنْ هَذَا الْكَابُوسِ. وَأَدْرَكَ أُخِيرًا أَنَّهُ أَمَامَ مَشْهَدِ
 حَقِيقِي. تَهَامَسَ مَعَ الْإِمَاءِ الْجَالِسَاتِ وَالدَّمَعَ يَمَلَأُ عَيْنِيهِ، فَأَخْبَرَنِي بِمَا
 حَصَلَ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتِمَّاكَ نَفْسَهُ، فَانْفَلَتَ لِسَانَهُ:

- قَاتَلَ اللَّهُ حُبَّ الْمَنْصِبِ، عَقْلُ تَرْبَهُ فَالَ فِي عُنُقِ أَخِيهَا امْمَهَادِي،

أمهَادِي الذي دفعه حب «أشْيَاخَه» إلى أن رَمَى بزوجهَا في غيَابَاتِ
الجُبِّ.

كَانَ نَحْدِيًّا لَشَجَاعَةِ أَوْلَئِكَ الرِّجَالِ وَحَصَافَتِهِمْ أَن يَخْبِرُوهُ بِالْحَقِيقَةِ،
ظَلُّوا لِسَاعَةِ يَتْرَامِقُونَ، وَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُوَدُّ أَنْ يَنْطِقَ الْآخَرُونَ
عَنْهُ بِالْكَلِمَةِ الْمَحْرَمَةِ، وَأَخِيرًا تَمْلَمَلُ أَحْمَدُونَا، ثُمَّ قَالَ:

- تَرَبَّهُ قَالَ أَكَلْتُ طَعَامًا دَسِيمًا، ثُمَّ جَلَسْتُ فِي طَرْفِ الْخَيْمَةِ
الْمَشْمَسِ، فَضْرَبَتْهَا الشَّمْسُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَالَتَهَا مُسْتَقْرَةً،
وَالِاسْتِخَارَةَ تَقُولُ إِنَّهَا سَتَشْفَى مِنْ مَرَضِهَا.
هَزَّ خَطْرِي رَأْسَهُ، فَقَدْ اسْتَوْعَبَ كُلَّ شَيْءٍ.

قَبْلَ الْغُرُوبِ وَقَفَ بِاتِّجَاهِ خَيْمَتِهِ، فَاسْتَقْبَلَتْهُ الْعَالِيَةُ بِأَكِيَّةٍ. نَظَرَ
فِي وَجْهِهَا الشَّاحِبِ، فَهِيَ مِنْذُ أُصِيبَتْ أُمُّهَا تَرَبَّهُ قَالَ لَا يِرْقَا لَهَا دَمْعٌ،
فَقَلْبُهَا الصَّغِيرُ مَا اسْتَطَاعَ التَّحَمُّلَ. حِينَ نَظَرَ إِلَيْهَا تَرَسَفَ فِي قِيُودِهَا
شَبَهَ عَارِيَّةٍ، سَرَى خَدْرٌ فِي سَاقِيهِ، فَاحْتَمَى بِالْجُلُوسِ مُحَوِّقًا، نَظَرَتْ
إِلَيْهِ فَضَحَكَتْ، ثُمَّ قَالَتْ وَكَأَنَّهَا أَفَاقَتْ فِجَاءَةً:

- يَا مَرْحَبًا بِخَطْرِي، لَقَدْ تَأَخَّرْتَ عَنَّا كَثِيرًا.

حَاوَلَ أَنْ يَقِفَ حَتَّى يَجْلِسَ جَنْبَهَا، لَكِنَّ رَجُلِيهِ لَمْ تَسْعَفَانِهِ. بَكَى مِثْلَ
طِفْلِ، فَانْفَجَرَتْ الْعَالِيَةُ صَارِخَةً تَبْكِي بِصَوْتِ مُلْتَاعٍ، وَهِيَ تَحْضُنُهُ مِنْ
الْخَلْفِ، حِينَمَا رَأَى ابْنَهُ سَلْمَاتِي الصَّغِيرِ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ بَاكِيًا، وَبَكَى
أُمِّيْرِيكَ أَيْضًا.

تَحَلَّقَ بَعْضُ الْجِيرَانِ أَطْفَالًا وَفَتِيَاتٍ يَتَفَرِّجُونَ عَلَى الْمَشْهَدِ الْمُؤَلَّمِ،
وَبَكَوْا أَيْضًا، بَيْنَمَا كَانَتْ تَرَبَّهُ قَالَ تَهْذِي بِجَمَلِ مُفَكِّكَةٍ، وَتَضْحَكُ
بِبَلَاهَةٍ، مَا زَادَ الْمَوْقِفَ أَسَى لَا يَحْتَمِلُ. اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الرِّجَالُ يَهْدِثُونَ
مِنْ رَوْعِهِ، وَيَذْكُرُونَهُ بِثَوَابِ الصَّبْرِ عَلَى الْأَقْدَارِ. أَخَذَ سَلْمَاتِي بِذِرَاعِهِ

وبذراع العالِيه، ثم ذهب بهما إلى خيمة أخرى.

كانت أقسى ليلة مرّت عليه، أنسنته آلامها أشهرًا من العيش في قعر بئر معتمة. وبعد يومين بدأ يألف الوضع الجديد؛ أصبح أبًا وأمًّا في الوقت نفسه، أغلب وقته يحدث ابنته العالِيه التي تكاد تُجنُّ من الصدمة.

كان رجال الحي يتجهّزون لاستقبال كزافييه عند محظرة «الأنحاب». طلبوا منه أن يذهب معهم، لكنه اعتذر بسبب حالة تربيته. قال:

وقف النَّاجي بعد الفجر يُحدِّثُ طلبته عن زيارة كزافييه المرتقبة. ظهر ذلك اليوم، ويشرح لهم الموقف الشرعي الذي لا يُجرّم التعامل مع الكفار في ما لا يمس جوهر الدين، كان أكثر من سبعين طالبًا يُحدِّقون فيه. اعتجر عمامته وتنحنح طويلًا كمن لا يريد أن يتكلم، ثم قال: «أيها الطلبة الأبرار، اليوم سيزورنا رجال الحي رفقة رئيس مركز تامشكط، فقد حرص على أن يأتي لتعزيتكم وتعزيتنا جميعا في وفاة المغفور له شيخنا ولي الله الأعظم امرأبُ اتلاميذ، وقد قرر أن يمنح المحظرة بعض الهدايا العينية. إن شيخنا المغفور له كان له موقف متشدّد من هؤلاء القوم، وهو موقف له ما يعضده من فعل السلف وقولهم، ولكن هناك رأي آخر للسلف، ومواقف أخرى لهم تسمح بالتعامل مع هؤلاء بشروط معلومة. ولولا حرصي على وحدة الحي الذي يتفق رجاله على هذا الأمر ما قبلت مصافحة هذا الكافر، ولا أدخلته هذا الحي الطاهر، ولكني رأيت مصلحةً راجحةً في فعل لا يجرّمه الشرع تحريما قاطعا.»

كان الخبر مفاجئًا لهم، والخطابُ جديدًا عليهم، فمحظرة

«الأنحاب» كانت العدوَّ الأوَّل في نظر الإدارة الفرنسية، وشيخها المغفور له امرأبُطُ أتلاميدُ كان في نظرهم أخطرَ شخصية في أفله، والعلماء الذين تحرَّجوا منها هم قادة الرفض والممانعة، وقد حاولوا استدراجه أكثر من مرة، ولكنه كان صارماً وقويًّا.

ترامقوا مستغربين. وقف لمروِّح وقال:

- رحم الله لمربط، يا شيخنا النَّاجي هل سنستعين بهدايا الكافر وماله على تحصيل علم نبتغي به وجه الله؟ أمّا أنا فسأترك هذه المحظرة التي يعيش طلبتها من هدايا الكافرين.

لم ينس النَّاجي بأي كلمة، أخذ عمَّامته ثم أوغل باتجاه عريشه، بينما ضج جمع الطلبة بحوارات شغلتهم وجه ذلك اليوم عن حفظ دروسهم ومراجعتها.

كان لمروِّح في مقدمة الراضين للزيارة، واستطاع أن يُقنِع جُلَّ الطلبة بالغياب عن الحشد المرتقب، بل استطاع أن يقنع كثيرا منهم بأن يذهبوا إلى محظرة أخرى، إذا ما قبل النَّاجي هدية كُزافييه. وعند منتصف النهار جاءت طلائع الموكب، امهَّادي على جملة «الصَّبَّار»، رفقة عبديه الأثيرين النَّومي وأتوئديمه. بعده بقليل وصل سلَّماتي ممتطيا سهوة فرسه، لابسا فضفاضتين. ثم تقاطر رجال الحيِّ بعد ذلك.

أرسل النَّاجي بُتَّار ليستدعي له الطلبة، فمن المقرَّر أن يحتشدوا عند خيمته، ويراهم كُزافييه. لم يذهب معه إلا ثلاثة طلبة فقط، كانوا كبارا في السنِّ، جاؤوا من مناطق نائية، أما البقية فقد تعاهدت أن تظلَّ في أعرشتها كأنَّ شيئا لم يكن، وأرسلت مع بُتَّار رسالة حاسمة: «إذا قرَّر كُزافييه أن يدخل أعرشة الطلبة فإننا سنواجهه بما نملك».

اقترب موكب كُزَافِييَه؛ ثلاثة أفراس تتقدم موكبه البهيج، يلمع فوقها علم الجمهورية الفرنسية، يركب هو إحداهما وحوله حارساه، وخلفه ما يناهز عشرين جنديا جَمَالَةً وَخَيَالَةً. كان مَزْهُوًّا وهو في طريقه إلى دخول محظرة «الأنحَاب» رمز المقاومة والرفض لمشروع فرنسا، دَاخَلَهُ شعور نابليون وهو يربط خيله بسواري الجامع الأزهر، كلاهما فَتَحَ مُيْنٌ، ولدخوله هذه المحظرة العنيدة رمزية خاصة. رأى أعرشة المحظرة المصنوعة من الحطب والحشائش، فَتَسَاءَلَ في نفسه كيف يمكن لهذا العِلمِ الغزير أن يخرج من تحت هذه الأعرشة البائسة! كان الطلبة ينظرون حركة الموكب بفضول شديد، قال أحدهم:

- اليوم فقط تأكدتُ أن لِمِرَابِطٍ قَدْ مَاتَ.

بكى بعضهم متأثرًا بالكلمة.

قال له لِمِرْوَرِح:

- لمرابط لن يموت، إنه حيٌّ في مئات العلماء والفقهاء الذين تخرَّجوا في هذه المحظرة، وهو حيٌّ الآن فيكم أنتم الذين قررتم أن تُمرِّغُوا أَنْفَ هذا الكافر، وأنوف الطامعين في ثوابه والخائفين من عقابه.

دخل كُزَافِييَه وهو يتوقَّع أن يكون هناك حشد كبير من الطَلَبَةِ. تفاجأ بالجمع القليل، عشرة رجال فقط، من بينهم امهَّادِي وسَلْمَاتِي، فعرف أن الطلاب امتنعوا من استقبله، وتظاهر بالرضى عن الزيارة رغم عبوس المشهد. أهدى النَّاجِي أَكْوَامًا من قماش «النَّيْلَه»، وبعض الألبسة الإفرنجية المستعملة، وشكره على الاستقبال ثم كَرَّرَ راجعا يتبعه موكبه.

كان أمهَادِي وسَلْمَاتِي يسايرانه مُعْتَدِرَيْنِ عما حصل، فشكرهما
وطمأنهما على ثقته فيهما، ثم سألهما عن خَطْرِي، فأخبراه بأنه مشغول
بتمريض زوجته التي ظهر بها جنون منذ ذلك اليوم الذي لَقِيَهَا فيه.
فأظهر أَسْفَهُ على ما حصل لتلك المرأة القوية الجميلة. ودَعَاهُ ثم كَرَّ
راجعين صوب أعرشة المحظرة.

الفصل العشرون

رجع كَزَافِيئِهِ إِلَى تَامِشِكْطُ، اجتمع بفريقه، واطَّلَعَ عَلَى مَا اسْتَجِدَّ بَعْدَهُ مِنْ أَخْبَارٍ، فَهُوَ مِنْذُ بَدَايَةِ مَايُو يَنْسُقُ أُمُورَ «الْحَصْرَةِ»، يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْمَجْمُوعَاتِ الْمَتَنَاطِرَةِ فِي مَنطِقَةِ «لِفْدَه»، وَيَنْسِجُ عِلَاقَاتَهُ، وَيُوطِّدُ أَرْكَانَ مَرْكَزِهِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْبَدْوِ الْغَرِيبِيِّ الْأَطْوَارِ، كَلِمًا هَدَّاتٍ عَاصِفَةٌ ثَارَتْ بَعْدَهَا عَوَاصِفٌ أَعْتَى.

دَخَلَ مَكْتَبَهُ بَعْدَ الْفَجْرِ، أَخْرَجَ رِزْمَةَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي يَكْتُبُ فِيهَا مَذَكْرَاتِهِ. تَنَاوَلَ الْقَلَمَ ثُمَّ كَتَبَ:

«15 يوليو 1946»

رَجَعْتُ مِنْهُكَ الْقَوَى مِنْ عِنْدِ «الْحَصْرَةِ»، شَهْرٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا بِالضَّبْطِ اسْتَعْرَقَتْهَا هَذِهِ الْمَرَّةُ، مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ نَسْبِيًّا، لَكِنْ هُنَاكَ أَسْبَابٌ مَوْضُوعِيَةٌ لِذَلِكَ، فَقَدْ ضَاعَ لِي أَسْبُوعَانِ فِي انْتِظَارِ الْوَفْدِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي وَصَلَ مَرْكَزَ «كَيْفَه»، وَالَّذِي تَعَطَّلَ مَجِيئُهُ فِي النِّهَايَةِ لِأَسْبَابٍ شَرَحَهَا لِي الْمَسِيُودَامْبِيرُ أُورُلْيَانُ فِي الرِّسَالَةِ الَّتِي وَصَلْتَنِي بِتَارِيخِ 20 مَآيُو 1946، أَيُّ بَعْدَ خَمْسَةِ عَشْرِ يَوْمًا مِنْ بَدَايَةِ «الْحَصْرَةِ».

رئيس الوفد صديق شخصي لي، وكان يودّ لو رأى عيّناتٍ من

المجموعات القبلية الواقعة في دائرة سلطتي، كما كان مدفوعا بعاطفة التطلع لرؤية نمط آخر من الحياة البدوية في أفله، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لم أأسف لتعطله، لأنني في الحقيقة كنت مشغولا عن استقبالهم.

ومع أنني هنا منذ أربع سنوات إلا أن الخبرة التي حصلت عليها خلال هذه «الحصرة» كانت هائلة، وذلك لكثرة الزوابع التي هبت خلالها. سأحدث عن ذلك في هذه الصفحات، ولكن بعد أن أدون ملاحظاتي عن طابع هؤلاء البداءة الجفاة.

اكتشفت هذه المرة كثيرا من طابع الإنسان في هذا الجزء من الصحراء، والذي سأسميه هنا بـ«الشرق الصحراوي»، والذي يمكن رسم خارطته تقريبا على شكل متوازي أضلاع، يمتد من الأطراف الغربية لأفله وحتى جبل «الكركار». وهي منطقة تمتاز بالخصب وبتنوع التضاريس، فهناك الجبال الشاهقة والتلال العفر والأودية السحيقة والغابات الكثيفة، وهناك أيضا مدافع السُّيول التي كثيرا ما تكون بها مغارات للوحوش المفترسة خاصة الأسود والضباع والنمور.

تنساح في هذه التضاريس مجموعات قبليّة كثيرة، أغلبها قبائل زوايا، ومنها قبائل شوكة، وتبدو طبيعة العلاقة بين الزوايا وقبائل الشوكة في هذه المنطقة مختلفة عن طبيعتها في الجزء الساحلي من الصحراء المعروف بـ«بوايدي الأطلسي».

العلاقة بين قبائل «لعرب» وقبائل الزوايا في هذه المنطقة طبيعية جدًّا، فرغم قوّة شوكة الإماراتين الحسانيتين اللتين قامتتا في هذا المجال الجغرافي، فإن أي واحدة من هاتين الإماراتين لم تضطهد القبائل الزاوية في هذه المنطقة، ولم تفكر في ذلك مطلقا، بل ظلّ هناك احترام متبادل.

القبائل الزاوية في هذا الشرق الصحراوي الذي عايشت أهله

لا تشعر بالقَهْر، بل يشعر أغلبها بالندية في القوة والشوكة مع قبائل «لِعَرَب» المجاورة لها، ولم تكن هناك أي غرامات أو إتاوات تدفعها للإمارات الحسانية.

أقوى هاتين الإماراتين، وهي التي كادت بقوتها ونظامها واتساع نفوذها أن ترتفع إلى سلطنة، هذه الإمارة كانت تمارس نفوذها القهري على المجموعات الضعيفة من أبناء عموماتها فقط، وعلى مجموعات أخرى من بني حسان. بينما في مناطق أخرى من الصحراء تمارس قبائل الشوكة اضطهادا عنيفا لجل القبائل الزاوية التي تشترك معها في المجال، وتفرض عليها غرامات وإتاوات، ولعل من أسباب ذلك تلك الحروب الطاحنة التي جرت بين الطرفين، وانتهت بهزيمة قبائل الزوايا في ذلك الجزء من الصحراء.

لكن لا بد من أن هناك أسبابا أخرى غير تلك الحروب، فلا يكفي هذا العامل وحده لتفسير الظاهرة، ذلك أن حروبا طاحنة وقعت بين قبائل زاوية وأخرى محاربة في هذه الجزء الشرقي أيضا، وانتهت بهزيمة قبائل الزوايا ولكن لم يحصل إذعان من تلك القبائل المهزومة للقبائل المنتصرة. إن إحدى القبائل الحسانية خاضت إبان دخولها الحوضين معارك طاحنة مع قبائل زاوية، وانتهت تلك المعارك بقيام إمارتها، ولكنها لم تُسْفَر عن خضوع تلك القبائل لهذه الإمارة.

تحضرنى هنا ملاحظة قرأتها في المقتطفات التي حصلت عليها من مخطوطة الرحالة بُول مَارْتِي، التي كتب فيها عن قبائل البيضان. كان يُصَدِّرُ حديثه عن أغلب قبائل زوايا الجزء الشرقي من هذه الصحراء بقوله: «بنو فلان قبيلة زاوية، ولكنها محاربة عند اللزوم». هذه الخاصية جعلت زوايا الشرق الصحراوي يشغلون عن العلم والمعرفة

بالصراعات الداخلية على الزعامة، وبالنزاعات بين بعضهم البعض، فلا تقاس دقة المعارف وكثرتها لدى القبائل الزاوية في بوادي الأطلسي بشكل عام بالمعارف العامة والسطحية الموجودة لدى عموم زوايا الشرق الصحراوي. ولعل ذلك يرجع إلى أنّ تحصيل العلم ومُراكمته المعارف لدى زوايا بوادي الأطلسي كان وسيلةً لإثبات الذات التي تمّ سحب السلاح منها، وتوقيع معاهدة بترك حملته إلى الأبد.

أما في الشرق الصحراوي فإنّ تحصيل الزوايا للعلم هو سعي لحقّق واقع من التفوق على القبائل التي يشتركون معها في حمل السلاح والاستعداد للحرب، وتشارك هي معهم في طلب العلم ورعاية شعائر الدين، وتلك خاصية تميزت بها القبائل الحسانية في الشرق الصحراوي، إذ تجد من بينها علماء وصلحاء.

وكشفت لي تطورات الأيام الأخيرة أيضا بعض الزّيف في ما كتبه الرحالة الأوائل والمستكشفون عن صلابة تمسك إنسان الصحراء بمبادئه وقيمه، ولعلمهم رأوه يرفع رأسه ويخفضه مُصلّيًا، وحكموا عليه من خلال مواعظه وحكمه التي يلقيها على طلبته في الحضرات الصوفية والمحاضر العلمية بكثير من الفصاحة والصرامة، لكنهم لم يعاملوه في لحظات القوة والضعف، ولم يعايشوه وهو خائف أو راغب. يمتلك إنسان الصحراء قدرة فائقة على التأويل والبحث عن المخارج الشرعية لتصرفاته، ومن خلال خبرتي عرفت أنه يمكن أن يتنازل عن أي شيء مهما كانت صرامة موقفه منه في السابق، وأنه سيجد تأويلا شرعيا لذلك. إنه يجعل من التأويل قميصا زُكِيحًا يغطّي به عَيْنِي ضميره اليقظ، كي يفعل في غفلته ما يشاء. إنه يخاف ضميره ولكنه خبير بالتحايل عليه.

هو أيضا إنسانٌ عَوَدَتْهُ مجاهل الصحراء المرعبة على التوجس، لكنه حين يشعر بالأمان سيكون مستعدا لكل شيء، لكن حذار من أن تشعره بأنك تستهدفه في قيمه أو عاداته، فستحول حينها إلى وحش كاسر ومغفلٍ عنيد، لذلك كنت أفكر الليالي ذوات العدد كي أعرف المدخل السَّلسِ لِأَيِّ قَضِيَّةٍ خطيرة أريد تمريرها.

إنسان الصحراء غريب الأطوار، يكره أيَّ نقد جارح أو تصرف مُذِلٍّ في الفضاء العام، وقد يغضب فيقتلك إذا أهنته بقولٍ أو فعلٍ أمام الناس، ولكنه مستعدٌ لأن يذلَّ نفسه لك، وأن يصبر على الإهانة مهما قَسَتْ، إذا كنت تفعل به ذلك بعيدا عن الأضواء، خاصة إذا وثق في أنك لن تكشف للناس في العلن ما جرى بينكما في السر. لذلك كنت أحيانا أتعمد اللعب بالوجهاء وشيوخ القبائل عن طريق تكليف أحدهم بِحَمْلِي على ظهره مسافةً طويلةً، إذا كنا وحيدين، وكان أغلبهم يفعل ذلك راضياً. كنت أحيانا أبصق عليه، وربما أبول، فلا يزيد على أن يضحك ويظهر السرور. لكنني كنت أيضا -انطلاقاً من الملاحظة السالفة- أظهر احترامي عَالِيًا لهؤلاء في المجالس العامة، وأمام رجال ونساء قبائلهم، فأنا أعرف أن أي إهانة لأحدهم أمام قومه قد تدفعه إلى أن يَغْرِزَ سكينه في رِئْسِي دون تردد.

أيضا، من خلال معاشتي اليومية لهؤلاء عرفت أن البيضاني لا يمنح ولاءً لغير ذاته، مهما كان ذلك الغير: عقيدةً أو مبدأً أو مجتمعاً، إنه يوالي مصلحته فقط، ويقف في صَفِّها مهما كانت قيمة ما أو من يقف في الصَّفِّ المقابل لها، وسنخسر كثيرا من جهودنا إذا ظننا أننا سنملك ولاء هؤلاء. يعاهدك أحد هؤلاء البداية في الليل ثم ينقض عهده معك قبل أن تطلع نجمة الصبح إذا وجد مصلحته عند غيرك.

إنسان هذه الربوع أيضا، متعودٌ على الزهد في الأشياء، وذلك لسببين: السبب الأول هو أنه لا يعرفها، والسبب الثاني هو أن طبيعة الترحال تلزمه بالتَّخَفُّفِ، وقد انعكس ذلك على نفسيته فصارت سجيةً له. ولا يكابر أحد في تأثير التضاريس والمناخ ونمط العيش في نفوس المجتمعات وطباعها، وقد ألمح عُوسْتَأْفُ لُوبُونُ إلى ذلك في كتبه، وخاصة في كتابه «روح المجتمعات»، الذي تركت منه نسخةً مخطوطةً في مكتبتي بتولوز. لكن هذا الزهد الظاهر في الأشياء لدى إنسان الصحراء يخفي وراءه تطلعا فادحا للمكانة والمناصب، وتلك هي نقطة الضعف لدى هذا الكائن الذي تعكس هيئته وملاحظه كثيرا من القسوة والجلافة. ولعل هذه السمة النفسية العميقة في تلافيف روح الصحراوي هي التي جعلت الرِّحالة والمستشرقين يغتربون بها رأوه من مظاهر، ولكننا نحن الذين عايشناه عرفنا كثيرا مما يناقض ذلك.

أريد أن أستطرد هنا ملاحظة أخرى، وهي الترف الوجداني لدى هذا الإنسان الذي يعيش حياة تطبعها القسوة، إنه مع ذلك رقيق المشاعر مرهف الحس، يحب الموسيقى وتهده عاتيات الحب. تتجاوز في داخل كل صحراوي شخصيتان، إحداهما جافيةٌ قاسيةٌ يتعامل بها مع عبده وإمائه ويقهر بها الأرض الكنود، وأخرهما لطيفة ودودةٌ يتعامل بها مع المرأة والفرن. وبالمناسبة فإن المكانة التي تحظى بها المرأة بين هؤلاء البدو لم تحلم بها المرأة الفرنسية بعد، ولم يحلم بها المسرِّعون الأوروبيون جميعا، الذين لا يزالون يفتخرون بأنهم رفعوا قدرها حين نقلوها من حيوان مدنِّس إلى إنسان، ولكنَّه إنسان لا كرامة له ولا حقوق.

تتحكَّم المرأة هنا في كلِّ شيء، فهي الأميرة في البيت، وهي السيِّدة على زوجها وماله وولده، وهي المُكْرَمَةُ التي لا يمكن لأي إنسان

مهها بلغت نذالته أن يهينها، بل هي هنا تمتلك الحق في الرأي السياسي والتدبير الخاص لشؤون المجموعات القبلية، وكم سمعت وشاهدت أدوارا محورية لها في هذه المجتمعات.

وحتى لا أُزَيَّف التاريخ، فإنني أحكم على الجيل الذي عايشته، وتعاملت معه من هؤلاء، والذين سمعت زملائي في العسكرية والخدمة يتحدثون عنه. قد يختلف هذا الجيل من سكان الصحراء عن الجيل الذي قبله. ولعل لِمَرَابُطُ كان نموذج الجيل الأول، الذي ينظر إلينا باحتقار، ويرانا كما يقول كتابهم القرآن (نَجَسْ)، لكن هذا الجيل الوسيط الذي عايشناه، والذي رأى أو سمع بطشنا بأجداده، مختلف تماما، هذا الجيل يمثلُه بفداحةٍ سَلْمَاتِي وَاْمَهَادِي، وأغلب شيوخ ووجهاء القبائل البيضانية.

قلبي على ميكافيلي! لو علم أن مذهبه هو السائد في هذا المجال الصحراوي المفتوح لما اضطهدته الكنيسة، ولما مات منعزلا في قرية صغيرة على أطراف فلورنسا. لو أنه هاجر إلى هؤلاء لجعلوه «أميرا» فعَلِيًّا. اقتسمت أنا وهؤلاء البيضان مَبْدَأِي ميكافيلي العظيمين، هم أخذوا مبدأه «الغاية تُبَرِّرُ الوسيلة»، وأنا أخذت مبدأه «فَرَق تَسُد». سأرجع إلى هذه النقطة بشيء من الاستفاضة.

شهدت «الحصْرَه» هذا العام أحداثا مهمّة، وعصفت فيها زوابع عاتية، كادت تقتلع وجودنا من جذوره، وفي الحقيقة لم يَمَرَّ عَلَيَّ في هذه الصحراء بل في حياتي كلها موقف أصعب من يوم حادثة وادي «أَيَزِن»، فقد ألفت نفسي وجنودي مصفّدين في الأغلال، مَرْمِيَّين في وادٍ لا أنيسَ به، بفعل بضعة رجال لا يملكون سوى الشجاعة النادرة والقوّة البدنيّة الخارقة.

كنا نمتلك سلاحاً أكثر تَفُوقاً ورجالا أكثر عدداً، ولكن كل ذلك بات هباءً في وجه الضربات اليدوية القاضية والسريعة لا جملته ولمعيدل وامبيريك، لكن سلماتي الذي كان قائد الرحلة جاء في الوقت المناسب، وادعى أنه كان قد خرج لطلب جملة. صدقته في ذلك الوقت، لأنني كنت أريد تحقيق هدف ملاحقة المجرمين من خلاله. لكنني الآن أصبحت أشك في صدق دعواه، فربما الرجل الداهية أراد أن يُعَرِّر بأصدقائه ويتركهم يواجهوننا، ثم يأتي ليربط بنا علاقة جديدة بصفته منقذا لنا ومتحدثاً باسم زملائه المطاردين.

تبيننا في هذه «الحضرة» سياسة مزدوجة؛ الضرب بيد من حديد على أي تمرد، وخلق قيادات متعددة داخل المجموعة الواحدة، عوضاً عن سياسة القائد الواحد التي جعلت التمرد يكثر في صفوف هؤلاء البداية الذين لا يعرفون السلطة، واستطعنا بسياسة تعدد القيادة أن نستفرغ طاقتهم في المكائد الداخلية بعضهم لبعض. لذلك قضينا على تمردين، أحدهما التمرد الذي قاده بوتيبي، الرجل القوي في مجموعته، والذي احتويناه حين منحناه بعض الاهتمام والصلاحيات المحددة، لكن لا يزال لديه بعض النفور منا، وهو الآن تحت الترويض المرين. والثاني التمرد الذي قاده سلماتي وأمرابط أنلامي في مجموعة أهل بوطرومه، والذي نعتبر أننا أنجزنا خلاله في شهر ما لم نكن نتوقع إنجازاه في سنوات.

قتلنا لِمَرَابِطُ دون أي ضجيج، وأجدني مضطراً إلى أن أكتب أن ابن عمه سلماتي هو من قتلَهُ بِمَسْحُوقِ سُمِّي، سلمته أنا له عند جبل «البيجوج». هذا لكي تعرف كيف ينتقل هؤلاء البداية بين المواقف المتناقضة. سلماتي الذي كان يَحْتَنِكُ لِمَرَابِطُ ويوظفه في قضية أخيه

خَطْرِي، هو الذي تَوَلَّى قَتْلَهُ فِي النِّهَايَةِ مُقَابِلِ وَعْدٍ مِنَّا بِمَنْحِهِ مَنَصِبِ زَعِيمِ المِجْمُوعَةِ. هَذِهِ شَهَادَةٌ لِلتَّارِيخِ.

سَلَمَاتِي رَجُلٌ مَنُحُومٌ بِالزَّعَامَةِ، وَدَاهِيَةٌ مَتَهَوِّرٌ حَدَّ الجُنُونِ، لَمْ أَرِ قَبْلَهُ فِي حَيَاتِي رَجُلًا لَهُ عَقْلُهُ وَتَهَوُّرُهُ، كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ عَنِ نَابِلْيُونِ، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أَرَى فِي تَصَرُّفَاتِهِ إِلَّا الشَّجَاعَةَ الْحَكِيمَةَ.

اسْتَطَعْتُ أَيْضًا - وَهَذَا عَمَلُ جِبَّارٍ - تَحْوِيلَ سَلَمَاتِي مِنْ مَعَارِضِ عُنَيْدٍ إِلَى جَاسُوسِ رَخِيسٍ، وَكَذَلِكَ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُسْتَدْرَجَ خَطْرِي الرَّجُلَ القَوِيَّ لِلْعَمَلِ مَعْنَا، بَعْدَ أَنْ أَنَهَكْنَا قَوَاهِ فِي سِجْنِ بَالِغِ القِسْوَةِ، أَمَّا امْتِهَادِي فَهُوَ الرَّجُلُ الثَّقَةُ الَّذِي لَمْ يَتَرَدَّدْ فِي مَبَايَعَتِنَا وَالْعَمَلِ مَعْنَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ.

أَمَّا الإِنجَازُ الأَعْظَمُ، وَالَّذِي أَعْتَبَرُ أَنَّهُ سَيَرَفَعُنِي إِلَى قَامَةِ كِبَارِ الفَاتِحِينَ الفَرَنَسِيِّينَ، فَهُوَ اخْتِرَاقُ مِحْظَرَةِ «الْأَنْحَابِ»، مِنْ خِلَالِ الهُدَايَا الَّتِي قَدَّمْنَاهَا لِلنَّاجِي شَيْخِهَا الجَدِيدِ الَّذِي جَاءَ خَلْفًا لِلْمَرَابِطِ المَقْتُولِ، وَمِنْ خِلَالِ الاسْتِقْبَالِ الَّذِي حَظِينَا بِهِ عِنْدَهُ. صَحِيحٌ أَنْ طَلَبْتَهَا لَمْ يَحْتَقُوا بِنَا، وَبَلَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْوُونَ رَشَقَ مَوْكِبِي بِالحِجَارَةِ إِذَا قَرَّرْتُ زِيَارَةَ أَعْرَشَتِهِمْ. وَلَكِنْ بِيَقَى اخْتِرَاقِ تِلْكَ المِحْظَرَةِ هُوَ أَمُّهُمُ إِنْجَازٌ فِي هَذِهِ المِنطِقَةِ، وَسَيَسْمَحُ لفرنسا بِالتَّمَدُّدِ الثَّقَافِيِّ دَاخِلَ هَذَا المِجَالِ، خَاصَّةً إِذَا وَاصَلْنَا سِيَاسَتَنَا المَرْنَةَ وَالمُنْفَتِحَةَ.

أَعْرَفُ أَنَّ لِمَرَابِطٍ لَمْ يُقْتَلْ حَتَّى وَرَثَ مِنْهَجِهِ المِشْدَدَ لِطَلْبَتِهِ، الَّذِينَ تَتَرَاوَحُ أَعْمَارُهُمُ الآنَ بَيْنَ العَشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ، لَكِنَّهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَنْ يَصْبِحُوا مُؤَثِّرِينَ وَقَادَةً فِي مِجْتَمَعَاتِهِمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَتَجَاوَزُوا الخَمْسِينَ، مَا يَعْنِي أَنَّ أَوَّلَ صَحْوَةٍ لِمَشْرُوعِهِ الخَطِيرِ سَتَكُونُ بَعْدَ سَنَةِ 1970، وَفِي ذَلِكَ الحِينِ لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ سَيَكُونُ وَضْعُنَا فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ. فَتَنَائِجُ

الحرب العالمية الثانية التي وضعت أوزارها للتوّ قد تدفعنا إلى البقاء، وقد تضطّرنا إلى الرحيل، لكنني أنا على الأرجح لن أبقى هناك إلى ذلك الحين، ولن تؤرقني هذه المحظرة العنيدة إذن.

أما لمُروِّح الشاب الذي يقود التحريض علينا مكانَ شَيْخِهِ المقتول، والذي أخبرت أنه كان وراء تحريض الطلبة على عدم استقبالي، ذلك الشاب سأفكر في أمره لاحقا.

لا بدّ أيضا من أن أذكر قسوة النظام الطبقي في هذا المجتمع، فالزوايا (هم بمثابة النبلاء عندنا) هم الأقل إنتاجية، ومع ذلك يرجع إليهم ريع عمل الطبقات الأخرى، التي يحتقرونها غاية الاحتقار. وقد قلت مرّة في اجتماع بسينلوي إن لدي خطة لقلب هرم مجتمع الصحراء. تقوم الخطة على تحريض العبيد على ترك الزرع ورعاية الماشية، وتحريض «لِمَعْلَمِينَ» (الصنّاع التقليديين) على ترك صناعة الأدوات والأواني الخشبية والجلدية، وتوفير مصادر عيش أخرى لهاتين الطبقتين. حينها سيجد الزوايا أنفسهم مضطّرين إلى تدبير أمورهم بأنفسهم، وحينها سيفقدون كثيرا من الأبهة والمكانة.

إنهم يعيشون من عرقهم ويحتقروهم مع ذلك، حادثة وادي «أَيَزِن» كانت كاشفة، لقد طولبت بالعفو عن بعض المشاركين فيها من أبناء الزوايا، لكن هناك اثنين لم يهتمّ بهما أحد، لأنهما من تلك الطبقات المهمشة. فلمَعَيَدِلْ رغم بلائه وقوّته وشجاعته ودوره البارز في الحادثة، ها هو يقبع في بئر معتمة، لم يكلمني أحد منهم في موضوعه، وأمبِيرِيكُ العبد الذي لا يزال يعيش في الصحراء مطاردا، لم يحدّثني فيه أمهادي ولا سَلْمَاتِي الذي يملكه أخوه خَطْرِي.

لكنّ اعتقال خَطْرِي وإخفائه أدّى إلى أزمة استمرّت مدة اختطافه،

وكادت تُودي بِأَمْنِنَا فِي المنطقة، وواجهنا كثيرا من الغضب والاحتجاج بسببه، لأنّه ابن أسرة عالية المستوى في الهرم الاجتماعي. إنه مجتمع غريب، معاييرهِ المزدوجة للإنسانية محيّرة. إنّه يذكّرني بما أقرّوه عن حالة المجتمع الفرنسي قبل عصر الأنوار؛ نبلاءٌ تُباركُهُم السماء فيطؤون الأرض زَهْوَاً، وآخرون حَلَّتْ بهم لعنة الآلهة يعيشون حياة السخرة والازدراء.

أنا الآن مرتاح لحيّ أهل بُوطرُومَه العنيد، لقد استطعت فَكَّ شَفْرَةَ السيطرة عليه، وعرفت كلمة السرّ التي عدّني البحث عنها عدة سنوات. أخضعتهم من خلال خلق رؤوس متعدّدة متنافسة داخلهم. هم الآن تسيرهم ثلاث قيادات، أمهادي وسلماتي وخطري، وهم يتنافسون في التقرب منّي، ويشي بعضهم بأخبار بعض. أعرف أنّ بعض ما يقولونه لي محض كذب، ولكنه يعطيني صورة عن نمط تفكيرهم.

عرفت من خلال هذه الحصرة ومن خلال ملاحظاتي قبلها أن المجتمع البيضاني لا يملك قوة الجماعة، بل إنّ كلّ فرد منه مجتمع مستقلّ بنفسه، تحرّكه مصلحته فقط، ويمكنه أن يدوس في سبيلها على مصالح المجموعة، تماما مثل العلاقة بين الأغصان في أودية الحطب، لا جذع شجرة يجمعه، ولا ماء يسقيه دفعة واحدة.

الآن يمكنني أن أشعل أودية الحطب متى شئت، وأحيلها إلى رماد دون أن يصيبني شرر جمرها الملتهب».